
الإمام المحدث الشيخ
محمد زكريا الكاندهلوي
ومآثره العلمية



الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

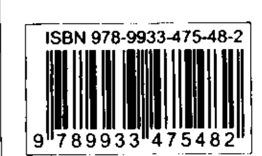
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-475-48-2



الإمام المحدّث الشّيخ

محمد زكريا الكاندهلوي

ومآثره العلمية

تأليف

العلّامة السّيّد أبي الحسن عليّ الحسنيّ النّدويّ

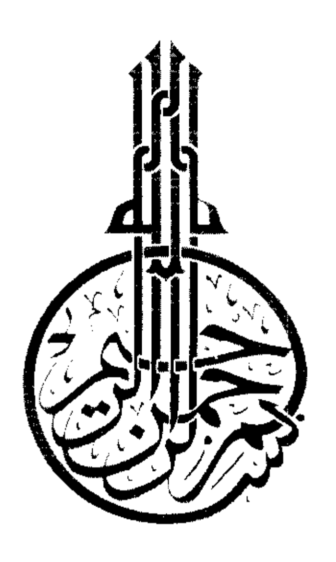
تعريب

السّيّد جعفر مسعود الحسنيّ النّدويّ

بإشراف

الأستاذ الدكتور تقيّ الدين النّدويّ





تقديم

✍ بقلم: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه أجمعين. **أما بعد:**

لقد دار بخلدي لحظة وفاة شيخنا وأستاذنا الإمام الرباني المحدث الكبير محمد زكريا الكاندهلوي المدني، والألم يعتصر قلوبنا أن أؤلف كتاباً أترجم فيه حياتَه ومآثره العلمية وآثاره في علم الحديث خاصة، وأبيِّن منهجه في التربية والسلوك وتهذيب الأخلاق، ولكنني لتواتر المشاغل لم أتمكن إلا من كتابة مقالة وجيزة بعنوان: الإمام محمد زكريا المحدث، نُشرت في مجلة «الفرقان» الصادرة في لكنو إلا أن فكرة التأليف ما تزال تُلِحُّ عليَّ وتدعوني للتفرُّغ لهذا العمل الجليل، تخليداً لذكراه ووفاءً وعرفاناً لشيخي الذي اشتدت علاقتي به ثلاثين سنة منذ زمن الطلب إلى أيام تدريسي في جامعة ندوة العلماء وجامعة فلاح دارين بكجرات وجامعة الإمارات حتى وفاته سنة (١٩٨٢م) الموافق غرة شعبان (١٤٠٢هـ) بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

وتعريفاً بآثاره وأعماله الجليلة عقدتُ ندوة علمية في الجامعة الإسلامية بمظفر فور أعظم جراه ـ الهند تحت إشراف مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية بعنوان: الإمام محمد زكريا الكاندهلوي، ونجحَتْ بحمد الله هذه الندوة حيث كتب العلماء والباحثون مقالات علمية ودراسات مستفيضة حول شخصيته وأبرزوا فيها جوانب مضيئة من علومه وفضائله ومآثره، ونشرت هذه المقالات باللغة الأردية.

ثم كلفت ولدي الدكتور ولي الدين الندوي الأستاذ المشارك بكلية الدراسات الإسلامية العربية في دبي أن يكتب بحثاً علميّاً أكاديميّاً حول شخصية الشيخ محمد زكريا، فكتب هذا البحث الذي نشرته مجلة الأحمدية وهي مجلة محكمة تصدرها دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي.

ولكن بعد أن نُشِرَ كتابَا «أوجز المسالك إلى موطأ مالك» و«بذل المجهود شرح سنن أبي داود» بتحقيقنا طلب مني العديد من العلماء والباحثين وأساتذة الجامعات العربية في العالم الإسلامي أن أتفرغ للتأليف في حياة الشيخ الإمام محمد زكريا المحدث، ممّا قوّى عزمي على إنجاز هذا الأمل، رغم انشغالي بتحقيق بعض أمهات كتب السُّنَّة وخدمتها وإخراجها للناس مثل «الجامع الصحيح» للإمام البخاري بحاشية السهارنفوري، الذي طبع في بيروت في خمسة عشر مجلداً، والذي استنزف مني المزيد من الجهد والوقت، إلا أن كل ذلك لن يحول بيني وبين تحقيق أمنيتي في تأليف كتاب يترجم للشيخ العلامة، لا سيما بعد تتبعي ما ألفه العلماء باللغة الأردية عن حياة شيخنا، ولم أجد كتاباً واحداً يعطي صورة واضحة عن شخصيته العظيمة وعن مآثره النادرة، اللهم إلا كتاب أستاذنا العلامة الشيخ أبي الحسن الندوي الذي ألفه باللغة الأردية، وقد كلفت بتعريبه شابّاً صالحاً أديباً من أسرة الشيخ الندوي نفسه فأدّى هذه المهمة بجودة فائقة، وكنت خبرتُ قدرته حيث سبق أن كلفته بتعريب كتاب الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي من الأردية إلى اللغة العربية، فنقله إلى العربية وأحسن وأجاد، فتحمل هذه المسؤولية الجديدة أيضاً فرحب بهذا العمل المبارك لعلاقة والده وأسرته مع الإمام محمد زكريا فقام بما طلبت منه خير قيام، فجزاه الله خير الجزاء.

كما طلبت من صديقنا الفاضل العالم الجليل والأديب الأريب والد المعرّب الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي مدير التعليم بجامعة ندوة العلماء بالهند مراجعة الترجمة، فقرأها وأبدى لولده المعرّب بعض التوجيهات النافعة التي جعلت العمل كاملاً مفيداً نافعاً.

وكنت قد قرأت الكتاب ثلاث مرات أيضاً ووجهت إلى المعرّب بعض التوجيهات فقبلها، فصار الكتاب صالحاً للطباعة، وقد اقترحت على الأخ العزيز السيد جعفر مسعود الحسني الندوي أن يضيف إلى الكتاب خصائص درس شيخنا الذي كتبته قديماً في «مقدمة تقرير البخاري» بالأردية في موضع مناسب، كما اقترحت عليه أن يلحق في آخر الكتاب البحث الذي نشر لزميله وصديقه ولدي العزيز الدكتور ولي الدين الندوي بعنوان: «المحدّث الشيخ محمد زكريا وآثاره في علم الحديث» في المجلة الأحمدية، فأنجز ما طلبت منه مشكوراً مأجوراً؛ لأنه التزم فيه أن يعرّف عن جميع مؤلفات شيخنا في الحديث الشريف وغيره من العلوم.

وإن شاء الله سوف يكون هذا الكتاب معرِّفاً بشخصية الإمام محمد زكريا ومؤلفاته، الأمر الذي يسعد مركز الشيخ أبي الحسن الندوي أن يقدمه إلى قراء العالم العربي والإسلامي ليملأ فراغاً طالما استشعره أهل الذكر من العلماء وطلاب العلم.

ندعو الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فإنه ولي النعم، وهو نعم المولى ونعم النصير.

أ. د. تقي الدين الندوي
رئيس الجامعة الإسلامية أعظم جراه الهند
ورئيس مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية بالهند
مدينة العين/ دولة الإمارات
يوم الخميس ٢٦/ ربيع الآخر ١٤٣٢هـ
٣١/ ٣/ ٢٠١١م
dr. nadwi@gmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

وبعد:

كان لي شرف عظيم أن كلفني الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمارات سابقاً، بنقل سيرة المحدث الجليل والداعية الإسلامي الكبير والمرشد الروحي الشهير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي التي ألفها سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي باللغة الأردية، وذلك تفضلاً منه وتكرماً، وقد سبق أن ترجمت سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي كذلك بإشارة منه وتوجيهه.

وأتاح لي بذلك أن أرافق هذه الشخصية العملاقة في كل مرحلة من مراحل حياته، وأرى كل جانب من جوانب سيرته التي تعيد إلى الأذهان عصر السلف، فأرافقه في طفولته وشبابه، كهولته وشيخوخته، حلّه وترحاله، أفراحه وأحزانه، صحته ومرضه، وفي كل ما يتعلق بحياته من الأمور والأحوال.

أراه مدرساً، مربياً، مرشداً، داعياً، معلماً، عكوفاً على الدراسة، مشتغلاً بالعبادة، شغوفاً بالتأليف، متابعاً للصحف، مكرماً للضيوف، مجيباً على الأسئلة، معالجاً للقضايا المعقدة، خبيراً بشؤون البلاد، مطلعاً على مجريات الأمور، منبّهاً للأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية، ومستنكراً لما تسرب إليها من البدع والخرافات أشد الاستنكار، حتى أعرف عنه ما لا يعرفه إلا أخص أقاربه وأقرب مسترشديه.

ومن هو الذي يعرفه ولا يقع في حبه، يرافقه ولا يرتوي بماء نبعه، يصاحبه ولا تغلي الدماء في عروقه، يجالسه ولا تجيش عواطف الكرم والجود في نفسه، وقد أودع الله فيه من الجاذبية والتأثير على النفوس ما يعجز عن وصفه القلم، وميزه بالحب والإخلاص، والاعتدال والاتزان، والوسطية والجامعية عن المعاصرين له، وكان له من الهمة ما يدهش العقل، ومن البساطة ما يدعو للتفكير، ومن الحرقة ما يذيب القلوب المتحجرة.

والحق أن نقل مثل هذا الكتاب الذي دبجه يراع سماحة الشيخ العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي لإبراز جوانب عظيمة لهذه الشخصية الجليلة من خلال دراسة حياته، وأفكاره، وخدماته في سبيل العلم والدعوة، والتربية، شرف عظيم لناقله إلى العربية، ومنة كبيرة لمن أوكل إليه هذا الأمر الجليل، فقد كتب عنه العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي ما يدل على علاقته مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومنزلته عنده وإفادته منه، فكتب:

«من أبرز تلامذة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذين انتشروا في بلدان مختلفة من العالم، ولا يزالون ينجزون خدمات بارزة في علم الحديث شرحاً وتحقيقاً وتأليفاً: الأخ العزيز الدكتور تقي الدين الندوي».

كان من نيتي حين أمرني أستاذنا الفاضل بنقل هذا الكتاب إلى العربية أن أنقله نقلاً حرفيّاً لكنني اضطررت إلى العدول عن الترجمة الحرفية وحذف بعض الأبيات الأردية، والفارسية التي كان يزدان بها الكتاب بالأردية، كذلك بعض التعبيرات الخاصة بالبيئة الهندية ليجيء الكتاب مفهوماً لدى إخواننا العرب، ولا يثقل عليهم فهمه لاختلاف أسلوب اللغة الأردية عن أسلوب اللغة العربية، وتباين الذوق الهندي عن الذوق العربي.

وأتقدم بالشكر هنا إلى والدي الفاضل الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي رئيس الشؤون التعليمية لندوة العلماء لكنو على توجيهاته التي أفدت منها كثيراً، وقد أفرغ وقتاً على عظم تبعاته وخطر مسؤولياته لقراءة هذه الترجمة من أولها إلى آخرها، وذلك لما يحمل في قلبه من حب وتقدير للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

وأخيراً أشكر الأخ محمد وثيق الندوي أستاذ الأدب العربي بجامعة ندوة العلماء، والعزيز محمود حسن الحَسَنيّ الندوي أستاذ الحديث الشريف بمدرسة ضياء العلوم في رائي بريلي على مساعدتهما لي في إتمام هذا العمل، فلهما الشكر على ما بذلا من الجهد، وأنفقا من الوقت، وكذلك أشكر الأخ محمد عثمان خان الندوي مدير إدارة «الرائد» على قيامه بكتابة هذا الكتاب على الكمبيوتر فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وأدعو الله أن يتقبل هذا العمل ويضعه في ميزان حسنات كل من ساهم فيه، وينفع به المسلمين، ويهدينا جميعاً إلى الصراط المستقيم.

جعفر مسعود الحسني الندوي
١٨/٣/٢٠١٠م



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

ينتابني شعور مزدوج، وأنا أسعد بتقديم هذا الجهد المتواضع الذي يدور حول شخصية المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (١٣١٥ - ١٤٠٢هـ)؛ شعور يثير في نفسي عواطف الشكر والامتنان لما قدر لي أن أتناول حياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الحافلة بالمآثر والأمجاد وخدماته الجليلة في مجال العلم والدين، ومساعيه البارزة في مجال الإصلاح والإرشاد، وجهوده المتميزة، ومآثره في مجال البحث والدراسة، وفضائله الروحية والعلمية التي قلما تجتمع في رجل واحد، وأرجو أن يجلب لي هذا الجهد الخير والسعادة والبركة في الدنيا والآخرة.

إن هذا المنهج الدراسي والتربوي الذي يجري منذ قرون لا في الهند فحسب بل في العالم كله، وتمتد جذوره من البيوت إلى المدارس والجامعات ومراكز التصنيف وزوايا المصلحين الربانيين التي يسودها جو من الهدوء والطمأنينة والروحانية، ومجالات السعي والكفاح والنضال الصاخبة التي تعج بالحياة والحرارة والحركة تقوم على ركائز الإخلاص والإيمان والاحتساب والإيثار والتضحية والانقياد التام للأساتذة والمشايخ، والخضوع الكامل للمحسنين والمربين، والقناعة في شؤون الحياة، والحرص الشديد على الجهد في الدراسة والتحلي بالفضائل، والتواضع مع العلماء المعاصرين، وحسن الظن بالطبقات والعناصر والجماعات التي تختلف في الرأي والفكر ووجهة النظر، وأداء الحقوق، والاستغناء الذي يضرب به المثل، والتوكل على الله، والمجاهدة والرياضة، والزهد في الحياة.

كانت شخصية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الأنموذج الأخير لهذا

المنهج للتعليم والتربية والتزكية (حسب معرفتي المحدودة ونظري القصير) تمثل الاجتماع والاقتراح المتناسق والمتناسب بهذه الصفات الجميلة، ولذلك تشكل محاولة تقديم صورة تبين حياته مهما كانت غابرة ومختصرة، وتقديم خلاصة نتائج تلك العوامل التعليمية، والتربوية التي كانت قد اجتمعت بفضل من الله في أيام طفولته وفي البيئة التي نشأ بها، محاولة كشف القناع عن تأثير ذلك العصر الذي ينتهي بوفاته، فليست هذه السيرة سيرة نابغة من نوابغ ذلك العصر وإنما هي قصة آخر ربيع لتلك الفترة التي أنجبت كثيراً من العلماء الكبار، وذلك المجتمع الذي أعدهم، والمنهج الدراسي الذي خرجهم، والغصن الطري الطيب النضر المثمر، ولذلك لم يقتصر جهد كاتب هذه السيرة ودراسته ومسؤوليته على عرض سيرة لرجل واحد، بل هو أوسع وأدق، وأعمق وأشمل من ذلك بكثير، فيساورني لذلك شعور بالارتياب والاضطراب والعجز والتقصير في التوفيق والنجاح في أداء هذه المهمة، وأقدم هذه الأوراق إلى القراء الكرام، ويساورني الشك بأنني وفقت في أداء هذا الواجب.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، لم يزل يؤلمني شعور وهو أنه كان من المتوقع، وكانت المؤشرات تدل عل ذلك وظواهر الأمر تؤكد على أن يقوم بهذا العمل الشاق الجليل الواسع ابن أختي السيد محمد الثاني الحسني (م١٤٠٢هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه كان قد سبق أن صدر من قلمه بناء على أوامر من الشيخ زكريا الكاندهلوي كتابان قيمان مهمان، أولهما عن الشيخ محمد يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ (م١٣٨٤هـ)، وثانيهما عن الشيخ خليل أحمد السهارنفوري (م١٣٤٧هـ)، على رغبة ملحة من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وسعد بدعوته والقبول والتقرب إليه، ثم سعد بتأليف آخر يضم سيرة سبطه الناهض الشهير الشيخ محمد هارون (م١٣٩٣هـ) الذي يعرف بعلمه وفضله، وقد جاء أجله وهو في ريعان شبابه، وربيع أيامه، ويدل قيامه بتأليف هذه الكتب الثلاثة على علاقته الوثيقة مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وعلى ثقة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي به وكفاءته لكتابة السيرة ثقة كاملة، وقد اختاره الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من بين مئات من العلماء وعشرات من الكُتَّاب الذين كانوا

يرافقونه ويصحبونه في الحل والترحال لإنجاز هذا العمل الدقيق الوسيع.

والجدير بالذكر أن الشيخ محمد زكريا كلَّفه بتأليف كتاب سيرة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وقد سبق أن صدر كتاب ضخم حول سيرته بعنوان «ترجمة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري» من قلم الكاتب الشهير الجليل الشيخ عاشق إلٰهي ميرتهي (م١٣٦٦هـ) الذي كان من ثقاته ومسترشديه وأخص أتباعه، ومساعدته في إنجاز هذا العمل مساعدة كاملة، وقد سمع الشيخ محمد زكريا ذلك الكتاب حرفاً حرفاً، وأعرب عن سروره البالغ، ودعا له بالخير والبركة، حتى قال له مرة: ستؤلف سيرتي أيضاً.

لكن لم يشأ له القدر أن يؤدي هذا الواجب، وانتقل إلى رحمة الله في (٢١/من ربيع الثاني سنة ١٤٠٢هـ، ١٦/من فبراير سنة ١٩٨٢م) قبل أن تستأثر رحمة الله بشخصية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بثلاثة شهور، وإن لم تتح له فرصة تأليف هذه السيرة إلا أن هذا الكتاب الذي بين أيديكم يحمل قدراً كبيراً من كتاباته؛ لأنه عندما تولى الشيخ محمد الثاني مسؤولية تأليف سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي بعد وفاته بأمر من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لم يكن من الممكن أن تكتمل هذه السيرة بدون سيرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لما كان له من صلة قرابة وصلة رعاية وتربية بصاحب هذه السيرة ودعوته وبركته، فأبدى رغبته تقديراً وإكراماً وإجلالاً للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في أن أتولى بنفسي هذا العمل الجليل، وأؤلف هذا الجزء من السيرة للشيخ محمد يوسف، وكان يتردد في التعريف بشخصية تحمل جوانب متعددة، وجهات متنوعة، وصفات مختلفة كشخصية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذي كان على قيد الحياة، ويجلس على كرسي الرئاسة العلمية، تردداً كبيراً، فتوليت هذا الأمر نظراً لاضطرابه وتردده فيه.

ولذلك فإن هذا الكتاب الذي بين أيديكم تكملة لذلك الجزء الذي كتبته بناء على رغبته واشتمل عليه كتابه عن سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ويرى الفضل فيه.

وأنقل هنا ما كتبه من مفتتح ذلك الجزء الذي يتعلق بحياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

«إني أعد ذلك سعادة وشرفاً لي، وهو صلتي بهؤلاء المشايخ الكبار، وما أحظى به من رعايتهم ومحبتهم الخاصة لي، وإنني كنت أتجرأ على الاستفسار عن بعض الأمور، وقد فعلت ذلك أكثر من مرة في السابق أثناء التأليف في سير أعلام الهند، ولم يخيبوني لعطفهم وحبهم الذي شجعني على تلك الجرأة، وحتى الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (المتوفى سنة ١٩٤٤م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان أقل معاصريه اهتماماً بكتابة التاريخ، والذي كان جل اهتمامه موجهاً إلى الدعوة والإرشاد، وكان ذلك همه الوحيد، وشغفه الفريد وشغله الشاغل قد استفسرته في اللقاء الأول عن أحوال حياته وأسرته، ولم يستجب لرغبتي بسرور واستبشار فحسب بل سمح لي أن أسجل تلك المعلومات بحضرته.

لقد كانت هذه المعلومات أساس كتابي في سيرته، ثم استفسرت الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الصدد، فزودني بمعلومات وافية، كما سألته شفهيّاً خلال اللقاءات المتكررة وسجلتها، ولا شك أن ذلك كان بالنسبة له إيثاراً عظيماً ومجاهدة بالغة، ولكن سواء كان ذلك لحسن حظي أو حكمتي، أو حبه الغامر وعطفه، فإني قد حصلت على معلومات كافية منه، ورتبت على أساسها هذه الترجمة لحياته»[١].

والواقع أن هذا العمل الجليل لو لم يتحقق في ذلك الوقت بفضل من الله لكان من العسير لي فيما بعد أن أقوم به بهذه الدقة والثقة والسهولة، وأنجزه بهذه الصورة، وإذا تم ذلك العمل فلا يتم بتلك الدقة التي تم بها من قبل ولا يستحق أن ينظر إليه بعين الاعتبار والثقة كما ينظر إليه الآن.

ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أنه يختلف عن ذلك المنهج الذي يسير عليه كُتَّاب السيرة عادة؛ لأني أعتقد أنه ينبغي لكاتب السيرة أن يبرز جوانب صاحب السيرة التي تحمل درساً ورسالة لطلاب العلوم الدينية، وخريجي المدارس الإسلامية.

استفدت في تأليف هذا الكتاب من السيرة الذاتية للشيخ محمد زكريا

(١) انظر: مقدمة كتاب الشيخ محمد يوسف حياته ومنهجه، للشيخ محمد الثاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الكاندهلوي التي تحتوي على سبعة أجزاء، ومصنفاته الأردية وأحوال الرحلات التي اهتم بتسجيلها بعض مسترشديه وتلامذته، وخاصة رحلاته إلى إنجلترا وإفريقية، والرسائل التي كتبها المرافقون له من المدينة المنورة إلى مسترشديه وأتباعه أيام مرضه الأخير إلى أن وافته المنية.

أما المعلومات التي تتعلق بأسرته فأخذتها عن كتاب «الشيخ محمد يوسف حياته ومنهجه في الدعوة» للشيخ محمد الثاني رحمه الله، وكتاب «أحوال مشايخ كاندهلة» للشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي رحمه الله، والبحث الذي أعده باحث هذه الأسرة الشهير الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي، عن أسرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وأبنائه وأحفاده، وقد نشر في مجلة «الفرقان» في عددها الممتاز عن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

أما المعلومات الأخرى التي تتعلق بهذه الأسرة فاستفسرت عنها الأستاذ محمد شاهد المظاهري فزودني بتلك المعلومات، وأرسل إلي جميع مصنفات الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ورسائله.

ومما يجدر بالذكر أنني سعدت بلقاء هذه الشخصية الجليلة لأول مرة سنة (١٩٤٠م)، ولم أزل أحظى بعطفه وكرمه وعنايته الخاصة منذ ذلك اليوم، ولم أزل أتردد إليه وأكتب إليه، وأتلقى الرسائل منه رداً على رسائلي منذ (٤١ ـ ٤٢) سنة دون انقطاع، وحاولت قدر جهدي أن لا يضيع من تلك الرسائل أي ورقة صغيرة ولا كبيرة، ولكن لا أدّعي بأن هذه الرسائل التي تحمل نصائح تربوية، وآراء توجيهية، وإرشادات قيمة، ومعلومات شخصية نافعة، وعلاقات ودية قوية؛ مصونة عندي مئة في المئة، إلا أن الرسائل التي احتفظت بها لا يقل عددها عن (٣٥٠) رسالة، واستفدت كثيراً من هذه الرسائل في الباب التاسع لهذا الكتاب.

ومنهجي في ترتيب هذه السيرة أنني احترزت ذكر الأمور الخارقة للعادة والمبشرات والمقامات التي تعتبر جزءاً رئيساً لسير الشخصيات الروحية، واعتاد كُتّابُ السير أن يتناولوا هذا الجانب بغاية من الاحترام والتقدير، ويذكروه بشيء من الإطناب والتفصيل، وذلك لأنني أرى أن الخصائص الإنسانية النبيلة والفضائل العلمية والعقلية التي يتصف بها هذا الرجل، وعلاقته

مع المعاصرين له، وأعماله اليومية، ونشاطاته الدعوية والإصلاحية، وسعة قلبه، ودقة نظره، وواقعيته، وحرقته على المسلمين، وشغفه بالدعوة إلى الله، واضطرابه للإسلام كلها تختفي تحت ركام هذه الأمور الخارقة للعادة، ويسدل عليها ستار كثيف منها فلذلك أجد الذي يعتنون بالدراسة ويشتغلون بالبحث والتحقيق، ويبحثون عن شخصية يجعلونها أنموذجاً لهم ويحتذون بهم في الأخلاق والمعاملات، والعبادات والسلوكيات والعادات؛ لا يلتفتون إلى مثل هذه الكتب؛ لأنهم لا يجدون فيها ما يروي غليلهم ويسد حاجتهم.

حاولت في هذا الكتاب أن يطلع القراء من هذه الطبقة المثقفة على ما يمتاز به الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من جامعية ومنزلة علمية رفيعة، ومكانة عالية مرموقة في مجال البحث والدراسة وشغفه بالعلم وحرقته على أحوال المسلمين، وحرصه على نشر العقائد الصحيحة، والعلوم الدينية، واتباعه للشريعة، وهُيامه بالدعوة إلى العمل بالسُّنَّة وبذل الجهد لها، وتضرعه إلى الله وابتهاله إليه، وعلاقته الوثيقة بالمدارس الإسلامية، وكيفية تعامله مع الآخرين، واحترامه للعلماء والمعاصرين له، وزهده وورعه، وثقته بالله، واهتمامه بأداء ما يجب عليه من الحقوق، لتثور في نفس القراء عواطف تحملهم على العمل بالشريعة، وتدفعهم إلى الاقتفاء بأثر شخصية كهذه الشخصية، وينشأ فيهم الشعور بالضعف، والتقصير في القيام بالأعمال الصالحة، وتتوق نفوسهم إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة والاتصاف بعلو الهمة وسعة القلب، ودقة النظر، وتشتعل فيهم الرغبة في اكتناز قدر كبير من الأعمال الصالحة النافعة في الدنيا والآخرة.

وأعتذر إلى القراء إذا وجدوا بعد دراسة هذا الكتاب تفاوتاً عظيماً، وبوناً شاسعاً، وبعداً هائلاً بين كاتب هذه السيرة وصاحبها، واعترضوا على اختيار كاتب هذه السطور لهذا العمل، وارتابوا في صحة انتخاب الذين كلفوه بهذا الأمر، (وفي مقدمتهم الشيخ محمد طلحة الكاندهلوي حفظه الله).

أبو الحسن علي الحسني الندوي
دار العلوم ـ ندوة العلماء
٢٦ محرم الحرام ١٤١٣هـ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٨٤م



الباب الأول

أسرته وجده وأبناؤه

● الأسرة:

من الأسر الكريمة العريقة في القدم التي عرفت في الهند بالعلم والفضل والذكاء قروناً طويلة أسرة تنتمي إلى أبي بكر الصديق ﷺ واستوطنت بلدة «جهنجهانة» بمديرية مظفر نجر، ثم قدر لها أن تنتقل إلى بلدة كاندهلة في المديرية نفسها، وتستقر بها.

تمتاز هذه الأسرة التي أكرمها الله بنعم كثيرة بالصدق والإخلاص فأنجبت كبار العلماء والدعاة والمصلحين والمجددين والفقهاء والمحدثين والدعاة والأدباء والشعراء، والحكماء والأطباء الذين جمعوا بين العلوم المعقولة والمنقولة وأثبتوا فيها براعتهم، ولا تزال تنجب هذه الأسرة أمثال هؤلاء العلماء والدعاة حتى اليوم.

اتصف أبناء هذه الأسرة بعلو الاستعداد وسمو الهمة، ودقة النظر، وتوقد الذكاء، والرسوخ في العلم والتبحر فيه، واعتنوا بأكثر أنواع العلوم المنقولة وتفوقوا فيها، وكانت لهذه الأسرة العريقة في الدين والمجد علاقة قوية مع الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وحظي أبناؤها بشرف التتلمذ على أبنائه وأشعل ذلك في هذه الأسرة الرغبة في نشر العلم واتباع السُّنَّة، وإصلاح العقائد والشغف بالعمل الصالح والزهد والتذوق بالعبادة، وفي جانب آخر كان لهذه الأسرة ارتباط وثيق بالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (المتوفى سنة ١٢٤٦هـ) وحركته، فنفخ ذلك الارتباط روح الجهاد والتضحية بجانب إصلاح العقائد واتباع السُّنَّة. وأما صلتها بالشيخ مظفر حسين الكاندهلوي (المتوفى سنة ١٢٨٣هـ) فقد أنشأت فيها روح الحذر والورع والتقى والعفاف، وأثار فيها الحنين إلى العبادة والذكر والدعاء.

وكان مما تمتاز به هذه الأسرة أيضاً أنها لم تتردد أي تردد في الاستفادة من العلماء المعاصرين، رغم فضلها المتوارث وطريقتها الروحية، ومكانتها العلمية البارزة، ولم يزل يرتبط علماء هذه الأسرة بمشايخ عصرهم؛ يحضرون مجالسهم، ويغشون حلقات دروسهم كالشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (المتوفى ١٣٢٣هـ) والشيخ خليل أحمد السهارنبوري، والشيخ عبد الرحيم الرائي بوري (م١٣٣٧هـ)، والشيخ عبد العزيز الدهلوي (م١٢٣٩هـ) والمجاهد الجليل السيد أحمد بن عرفان الشهيد (م١٢٤٦هـ)، ويدل ذلك على ما تتصف به هذه الأسرة من الأخلاق والصدق والشغف بالعلم والدين، لا جرم أن الله ﷻ قد اختار هذه الأسرة للقيام بأعمال جليلة ومسؤوليات جسيمة وقدر لها أن تتولى مهام الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع وإحياء السُّنّة، فقامت بها أحسن قيام يتعذر نظيره في العالم الإسلامي اليوم.

إن جماعة الدعوة والتبليغ التي طبق ذكرها الآفاق، ويسمع صداها في مشارق الأرض ومغاربها، وتلمس آثارها في كل بقعة من بقاع المعمورة؛ قد تأسست على يد أحد أبناء هذه الأسرة النجباء، فهذه هي الأسرة التي أنجبت الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (م١٣٦٣هـ) الذي قام بعمل الدعوة والإصلاح بجهده الفردي الذي تحول إلى حركة عالمية، وترك بصمات عميقة لتضحياته ومجاهداته وعلو همته وسمو نظره في كل قطر من أقطار العالم، وَاصَلَ هذا العملَ نجلُه الرشيد الشيخ محمد يوسف وتوسع نطاق هذا العمل الدعوي في عهده، وأقبل الناس عليه[1]، ولا يحتاج صدقه وإخلاصه وثقته بالله، وحماسه للدعوة وعاطفته لإصلاح العقائد وكفاحه لإصلاح المجتمع وتأثيره في النفوس إلى دليل وهو كالعيان.

---

(١) عندما كتبت هذه السطور كان الشيخ محمد يوسف على قيد الحياة وقد توفي رحمه الله في (٢٩/ذي القعدة ١٣٨٤هـ، ٢/أبريل ١٩٦٥م) وتولى إمارة الجماعة الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي من نفس الأسرة الكريمة، وهو صهر محمد زكريا الكاندهلوي وتلميذه وتوسع نطاق عمل الدعوة مزيداً في عهده، وتوفي في (١٠/محرم الحرام ١٤١٦هـ، ٩/يونيو ١٩٩٥م).

وكذلك نجد شخصية المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي فإنها تمثل هذه الأسرة في علو الهمة، ودماثة الخلق، وعلو الكعب في العلم لا جرم أنه برهان ساطع على أمجاد العصر الذي مضى، وصورة صادقة للأسلاف الذين خدموا الدين وأنفقوا حياتهم كلها في الجهد والكفاح لتغيير مسار الحياة.

فنبدأ هذا الكتاب بسرد بعض وقائع الطبيب محمد أشرف لكونها محفوظة بقرب زمانه وذيوع صيته ومكانته في النفوس.

الشيخ محمد أشرف رحمه الله المتوفى (١٠٦٠هـ):

كان في عهد الإمبراطور المغولي شاه جهان شيخ كبير يسكن في بلدة «جهنجهانة» بمديرية مظفر نغر، في الولاية الشمالية للهند، وهو الشيخ محمد أشرف، وقد أجمع العلماء والمشايخ المعاصرون له على تبحره في العلم، وتميزه بالورع، واتباعه للسُّنَّة واهتمامه البالغ بالعمل بالشريعة وكان سليل أسرة كريمة عريقة في الدين والمجد والفضل، ونسبه كما يلي:

الشيخ محمد أشرف بن جمال محمد شاه بن شيخ بن شاه بن شيخ بهاء الدين شاه بن مولوي محمد فاضل بن قطب شاه، وقد أنجبت هذه الأسرة من أهل العلم والفضل كبار المحدثين والفقهاء والدعاة والشعراء، والأطباء والأتقياء، الذين لا يحصى عددهم.

وكان الشيخ محمد أشرف يملك مواهب عالية، وقدرات فائقة، وكفاءات ومؤهلات متنوعة، وقد حكى المفتي إلٰهي بخش وهو ينتمي إلى أسرته بعض مآثره ومواقفه المؤثرة الغريبة، نكتفي هنا بذكر إحدى هذه المآثر التي تدل على زهده في الدنيا واستغنائه عن الملوك واستخفافه بالمظاهر.

أبدى الإمبراطور شاه جهان رغبته في زيارته لكثرة ما سمع من فضائله وعرف من أحواله ومآثره، ورأى من مكانته ومنزلته لدى الجماهير، فأرسل مركباً وعدداً من رجال البلاط إلى «جهنجهانة» ليبلغوه رغبة الملك، فاستجاب الشيخ محمد أشرف لرغبة الملك، وقصد بعدما صلى صلاة الفجر مبكراً ولف

حول ظهره خماراً، وكان الملك قد كلف بعض ثقاته باستقباله لدى وصوله إلى المدينة، فاستقبلوا الشيخ وأكرموه واحتفوا به، ودخل الشيخ على الملك وقابله مع الأمير الذي كان له سابق معرفة به، وكان يحمل في قلبه الحب والتقدير له، وأراد الملك أن يختبر الشيخ فقال لوزيره سعد الله خان: أريد أن أختبر الشيخ وأفحصه، فوجه إليه الوزير كثيراً من الأسئلة ووجده حاضر البديهة، ورد على كل سؤال وجه إليه ردّاً شافياً مقنعاً، فقال الوزير للملك: إن هذا الرجل بحر زاخر لا ساحل له، فأصدر الملك مرسوماً يمنحه جائزة سنية وعقاراً كبيراً، لكن الشيخ رفض قبول هذه الهدايا والعطايا وقال دون أن يعبأ بأبهة الملك وهيبته: إنني لم أحضر إلى الملك للحصول على المال أو الجائزة، ولا أتلقى الرزق من الملك، وإنما أتلقى الرزق من الله الواحد القهار، فليس الملك رازقاً وإنما الرازق هو الله ﷻ[1].

كان للشيخ محمد أشرف ولد اسمه محمد شريف يقتفي أثر والده في العلم والفضل واتباع الشريعة المطهرة. ورزقه الله ﷻ ولدين:

أحدهما: **عبد القادر** الذي ظهر في أولاده وأحفاده عدد لا بأس به من العلماء والدعاة من أمثال المفتي إلٰهي بخش، والشيخ مظفر حسين الكاندهلوي.

وثانيهما: **محمد فيض** الذي كان يسكن في بلدة جهنجهانة، نبغ في أتباعه أمثال الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي والشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، والداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ونجله الشهير الشيخ محمد يوسف والمحدث الكبير والعلامة الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

(١) انظر: كتاب أحوال مشايخ كاندهلة، للشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي (المتوفى سنة ١٩٧١م).

• علاقته بكاندهلة:

ظهر في أسرة الشيخ محمد الذي كان يتولى منصب القضاء والخطابة والإمامة في بلده كاندهلة في عصر السلطان محمد تغلق، عالم كبير ومدرس بارع سمي باسمه أي محمد مدرس، وتم زواجه بابنة الشيخ عبد القادر بن الشيخ محمد شريف بن الشيخ محمد أشرف، وكان ينتمي إلى تلك الأسرة التي مضى ذكرها.

ورزق ابنان: وهما الحكيم قطب الدين والحكيم شرف الدين.

كان الحكيم قطب الدين من أعيان بلدة جهنجهانة ووجوهها، وكان يملك نفوذاً كبيراً في أنحائها وضواحيها الواسعة، وكان يجمع بين الدين والدنيا، وعقد قرانه أيضاً في نفس الأسرة التي تم فيها زواج والده من قبل فكانت قرينته بنت الشيخ ضياء الحق بن الشيخ محمد مدرس.

ورزقه الله منها ثلاثة أبناء: الطبيب شيخ الإسلام، الشيخ محمد مشايخ، والشيخ صدر الدين، وقطن هذان الأخيران في بلدة جهنجهانة.

• الحكيم شيخ الإسلام رحمه الله:

كان الحكيم شيخ الإسلام يمتاز بعلمه وفضله وكان كبار العلماء ينظرون إليه باحترام وتقدير، ويقابلونه بإكرام وتبجيل.

كان لشيخ الإسلام أربعة أبناء:

١ ـ المفتي إلٰهي بخش ٢ ـ الشاه كمال الدين ٣ ـ الشيخ إمام الدين ٤ ـ الشيخ محمود بخش.

وكان هؤلاء الأربعة من العلماء الأفذاذ الذين لا يدانيهم أحد في العلم والفضل والزهد والورع، ويتوجه إليهم الناس من مناطق نائية ليتلقوا منهم العلم والدين.

كان الشيخ إمام الدين أصغر سناً من المفتي إلٰهي بخش إلا أنه كان يفوقه في حدة الذهن وتوقد الذكاء، ودقة الملاحظة، وسرعة الخاطر، وحضور البديهة، وقوة الذاكرة، وسعة العلم، ويعتبر كتابه «مير زاهد»، وشرحه على

«ملا جلال»، ورسالة «نسب أربعة» و«مختصر كافية» وحواشيه على كتب المنطق والفلسفة المختلفة مآثر علمية كبيرة له، وخلف ابناً يدعى بالحكيم أشرف وقد صار فيما بعد ختناً للمفتي إلٰهي بخش، وهو يمتاز عن أقرانه في الدراسة، وكان طبيباً حاذقاً ذاع صيته في وصف المرض، ومكافحة الداء، ومداواة المريض، وكان ابنه الطبيب محمد أشرف أيضاً يعد من الأطباء الحاذقين الذين لمعت أسماؤهم لعلو كعبهم في الطب.

كان الشيخ كمال الدين بن شيخ الإسلام مشغوفاً بالرياضة والمجاهدة ومحبّاً للعزلة والخلوة، ويضرب به المثل في الزهد والورع، وما حكاه المفتي إلٰهي بخش خير دليل على ذلك إذ يقول:

«كان يستيقظ في ليالي الشتاء القارصة في منتصف الليل، ويتوضأ بالماء البارد، ويصلي صلاة التهجد، فقلت له يوماً: من الصعب أن يستيقظ الناس في مثل هذا الوقت من الليالي الشتوية ويتوضأ بمثل هذا الماء البارد، فكيف يتسنى لك أن تستيقظ كل يوم دون انقطاع؟ فأجاب: إنني كلما أنتهي من الوضوء تساورني الوساوس النفسية والشيطانية، وتحملني على أن لا أستيقظ في اليوم التالي، لكن عندما يرخي الليل سجوفه وتغار نجومه وتقع في أذني أصوات الطاحنات التي يقمن بالطحن بالرحى تحت جنح الظلام الحالك في الليالي الشتوية يطير نومي ويضطرب قلبي، ويشق عليّ النوم، وأستحيي، فأقوم من الفراش وأقول في نفسي: إن الطاحنات اللاتي يشتغلن بأعمالهن من منتصف الليل إلى إسفار النهار للحصول على القوت الزهيد ويلاقين في سبيل ذلك من التعب والجهد ما ينهكهن ويضنيهن فكيف لي أن أستلقي على فراشي وأنام ملء جفني، ولا أشكر الله ﷻ الذي يرزقني بدون أن أدفع لذلك أي ثمن، وأتعب في الحصول عليه».

فلما سمعت منه هذا الكلام المليء بعواطف الامتنان والشكر عرفت أن له قلباً حيّاً وشعوراً مرهفاً.

كان يحث الناس بجانب هذه المجاهدة على الجود والكرم، والإيثار والمروءة، والعفاف وخدمة الناس ورعاية المسافرين والاعتناء بهم، ولم يقترب قط من أماكن اللهو واللعب والغناء طول حياته.

● المفتي إلـٰهي بخش المتوفى سنة (١٢٤٥هـ):

وُلد المفتي إلـٰهي بخش ابن الطبيب شيخ الإسلام سنة (١١٦٢هـ) وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها في عام (١٢٤٥هـ)، وكان من أخص تلامذة الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وكان قد اشتهر بالإفتاء والتدريس، والتأليف، والطبابة، وكان له طول الباع في العلوم النقلية والعقلية، وكان شاعراً مقتدراً في اللغة العربية والفارسية والأردية، ويشهد بذلك كتابه الشهير «شرح قصيدة بانت سعاد» الذي نقل فيه كل شعر قاله كعب بن زهير ﷺ، إلى اللغة الفارسية، والأردية منظوماً، ومؤلفاته تربو على ستين كتاباً في اللغة العربية والفارسية، وأشهرها كتاب شم الحبيب، وتكملة لمثنوي مولانا جلال الدين الرومي.

● علاقته بالسيد أحمد الشهيد وارتباطه بحركة الجهاد:

بايع المفتي إلـٰهي بخش الشيخ عبد العزيز الدهلوي بعدما انتهى من الدراسة، ثم بايع مسترشده الشاب المجاهد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، بمناسبة قدومه رغم كبر سنه بالنسبة لشيخه بثمان وثلاثين سنة، وظل يستفيد منه بغاية من الإخلاص والتواضع، وقد حكى المفتي إلـٰهي بخش نفسه قصة لقائه الأول، وتدل هذه القصة على عواطف الحب والحنان والشوق والهيام فهو يقول:

كان مما أنعم الله به علي أنني عندما سمعت شهرة السيد أحمد الحسني وقصص فضائله وتوجيهاته وحركته الإصلاحية، والدعوية، وسرعة تأثيره، وعلمت أنه متبع صادق لسيرة النبي ﷺ وسُنّته استهوى قلبي، واستمال نفسي، واستولى على مشاعري وأحاسيسي وشغفت به قبل لقائه، وبلغ بي الشوق إلى أن نفد صبري، وصرت كأني على أحر من الجمر رجاء الشوق والوجد.

وكان للمفتي إلـٰهي بخش أبياتٌ كثيرة في مدح الإمام السيد أحمد بن عرفان، أقدم هنا معاني بعض أبيات منها، فيقول:

لا أستطيع أن أصف هذا المجاهد الجليل والبطل العظيم؛ لأن قلمي ولساني يعجزان عن وصفه والثناء على أعماله والإشادة بفضائله والإحاطة بمواهبه وقدراته.

وألف المفتي إلٰهي بخش كتاباً يلقي الضوء على طريقة أفكاره، وسماه بـ«الملهمات الأحمدية» والذي يصح أن يعتبر ملخصاً لكتاب «صراط مستقيم».

كان للمفتي إلٰهي بخش ابنان وهما الشيخ أبو الحسن المتوفى (١٢٦٩هـ) والشيخ أبو القاسم، كلاهما من المحبين للسيد أحمد بن عرفان الشهيد، والمقدرين له والمولعين به، وبلغ الشيخ أبو الحسن في حبه للسيد أحمد بن عرفان إلى نظم قصيدة حافلة بعواطف الحب والحنان والشوق والهيام بعدما عاد من مكة المكرمة بعد أداء مناسك الحج والزيارة، نكتفي هنا بتقديم عدة أبيات من هذه القصيدة كأنموذج.

يقول وهو يذكر نشاطاته الدعوية والإصلاحية وتأثيره في البيئة والمجتمع:

لا تجد بقعة من الأرض إلا ويُشَيّدُ فيها مسجداً، وكل من تلقاه تجده مشتغلاً بالبحث والدراسة، ويرفع الأذان في كل مكان ويقبل الناس على الصلاة، وتم القضاء على البدع والخرافات، وهجر المسلمون التقاليد الهندوكية كلها، نرى كل رجل يحفظ القرآن الكريم ويصبغ نفسه بصبغة الإسلام ويصهرها في بوتقته.

وكان من أسباطه الشيخ محمد مصطفى الجهنجهانوي والشيخ محمد صابر الجهنجهانوي، وكانا قد تتلمذا على يد المفتي إلٰهي بخش ولم يكونا مرتبطين بالسيد أحمد ارتباطاً روحيّاً فحسب بل سافرا معه ليخوضا معركة الجهاد، واستشهد معهما الشيخ مصطفى، وعاد الشيخ محمد صابر، وقضى حياته كلها في الجهاد والكفاح.

ومن أجل ذلك نرى أن هذه الأسرة الكريمة التي تسكن في بلدة جهنجهانة كانت معجبة بالسيد أحمد بن عرفان الشهيد، ومولعة بحركته، وكان يجري ذكره على لسان كل من ينتمي إلى هذه الأسرة صغيراً أو كبيراً رجلاً كان أو امرأة.

الشيخ محمد ساجد الجهنجهانوي المتوفى سنة (١٢٠٨هـ):

كان الشيخ محمد ساجد من أبناء الطبيب محمد شريف البارزين وهو يتصل بفرع هذه الأسرة الذي يعود إلى الشيخ محمد فيض، وكان قد وُلد سنة (١١٢٠هـ)، وكان رجلاً فاضلاً وعالماً كبيراً، وطبيباً حاذقاً، قد نقل المفتي إلٰهي بخش كثيراً من فتاويه، وكان الملك المغولي شاه جهان قد عرض على جده محمد أشرف ضيعة واسعة فلم يقبلها، بل اعتذر إليه على عادة الصالحين، ثم عرضها الملك على الشيخ محمد ساجد حسين فقبلها، فكان بذلك صاحب الرياستين، وألف كتاباً سماه بـ«عجائب الغرائب»، وكان أديباً أريباً، وشاعراً له ذوق رفيع، ورزق ولداً سمّاه محيي الدين، وكان لمحيي الدين ابن هو كريم بخش، وخلّف كريم بخش ولدين، وهما: الشيخ غلام حسن، والشيخ غلام حسين.

الشيخ محمد صابر والشيخ محمد مصطفى الشهيد وأولادهما:

تزوّج الشيخ غلام حسن بنت المفتي إلٰهي بخش ورزق منها ولدين، الحافظ محمد صابر والحافظ محمد مصطفى الشهيد[1].

كان الشيخ محمد صابر رجلاً زاهداً عابداً ورعاً خاشعاً لله مبتهلاً إليه، خاض معركة الجهاد مع السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وقضى حياته كلها في مساعدة حركته ونصرتها، وتقديم الدعم لها، وكان ابنه على خطى أبيه، وكان يغلبه شوق الجهاد في سبيل الله، وقد كف بصره في آخر أيامه، وكان لسانه يردد هذه الكلمة في كل وقت «ناولني البندقية أنا ذاهب إلى ساحة الجهاد».

خلف ولدين: الحافظ محمد يوسف، والحافظ محمد يونس، ومنحهما الله قدراً كبيراً من الصلاح والتقى، ونصيباً وافراً من العلم والدين، وترجمتهما في كتاب «أحوال مشايخ كاندهلة» يقول المؤلف: «قضى هذان

(١) جاهد الشيخ محمد صابر وشقيقه الشيخ محمد مصطفى في سبيل الله واستشهدا سنة (١٢٤٦هـ) في إحدى معارك بالاكوت.

الرجلان أيامهما الأولى خارج البلدة لاشتغالهما بالوظيفة ثم عادا إلى بلدة كاندهلة، وأقاما بها وكانا على منهج سلفهم الصالحين في الزهد والتقوى، وكان يتميز بحسن الظرف، وعذوبة الحديث، وبداهة الفكر، وحسن المحاضرة، والحرص الشديد على الخصال الإسلامية كصلة الرحم، ونصرة المنكوب، ونجدة البائس، وإغاثة الملهوف، والنصح للجميع، والإكثار من تلاوة القرآن الكريم، والمواظبة على الذكر والتسبيح.

وللحافظ محمد يوسف ثلاث بنات من زوجته الأولى، تزوج الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي بإحداهن وبعد وفاتها تزوج بالأخرى وأنجبت الثانية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والأولى ولداً وبنتاً.

رزق الحافظ محمد يونس خمسة أبناء: ١ ـ الحافظ محمد عمر، ٢ ـ الحافظ محمد عثمان، ٣ ـ الشيخ محمد شعيب، ٤ ـ الحفاظ محمد داود، ٥ ـ الحكيم محمد يامين، ورحل الحكيم محمد يامين إلى مكة المكرمة، واستوطنها، وهاجر الآخرون إلى باكستان، وأقاموا بها.

كان الحافظ محمد مصطفى الشهيد حفيد المفتي إلٰهي بخش، يسكن في بلدة «كاندهلة»، وكان يعرف بعلو كعبه في العلم والفضل، وشغفه بالفنون الحربية، وحنينه إلى الجهاد واشتغاله بالرياضة والعبادة، وتفوُّقه في الفتوة والفروسية، انضم إلى حركة السيد أحمد بن عرفان الشهيد، ولازم صحبته، وخاض معه معركة الجهاد، وقضى نحبه في سبيل الله، وقد رزق ولداً سمي الحافظ عباد الله، ولم يرزق الحافظ عباد الله ولداً. .

○ الشيخ محمد إسماعيل المتوفى سنة (١٣١٥هـ) وأبناؤه:

كان يسكن الشيخ محمد إسماعيل جد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في مبنى متواضع يقع على مقربة من قبر الشيخ نظام الدين أولياء بالقرب من مبنى أثري يعرف بأربعة وستين عموداً، وتم زواجه بامرأة من أسرة المفتي إلٰهي بخش، فكان يتردد لذلك إلى بلدة «كاندهلة» فصارت بمثابة موطنه، وكان يتولى تدريس أبناء المرزا إلٰهي بخش، وكان له صلة مصاهرة بالملك

المغولي الأخير بهادر شاه ظفر، وكان يسكن في بيت فوق ذلك الباب الأحمر، وكان يجاوره مسجد صغير يسمى بمسجد «بنغلة والي» وكان الشيخ محمد إسماعيل يقضي هناك حياة بساطة وتقشف وخمول وعزلة وتواضع وقناعة، ينفق كل وقته في العبادة والرياضة، ولم يشعر المرزا إلٰهي بخش بعلو منزلته حتى ثبت له أنه من العلماء الذين يستجاب لهم.

كان الشيخ محمد إسماعيل كثير العبادة، دائم الفكر، يستبق إلى خدمة الغرباء والأجانب، ويشتغل بتعليم مبادئ الدين، ويكثر من تلاوة القرآن الكريم، وكان قد بلغ غاية في التواضع، فإذا رأى شخصاً يحمل الأثقال على ظهره أو رأسه أسرع إليه، وحمل عنه ما يحمله من الأثقال، وكان ينزع الدلاء بيده ويسقي الناس من مائه، ثم يصلي ركعتين شكراً لربه على ما أتاح له من هذه الفرصة لخدمة عباده، وكان من عادته أنه يحضر الأباريق في الحفلات الشعبية ليتوضأ بها الناس، ويوفر لهم أسباب الراحة، ويفعل كل ذلك ابتغاء وجه ربه وتقرباً إليه.

أبدى يوماً رغبته في الحصول على الطريقة الروحية عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي فأجابه بقوله: إنك لا تحتاج إلى مثل هذه الطرق؛ لأنك قد جنيت ثمارها، وكان له شغف بقراءة القرآن الكريم، والذكر، وكان من أعز أمانيه أن يرعى الأغنام وهو يتلو القرآن، وقد جرت العادة في بيته أن أحداً من أبنائه يسهر في الليل ويشتغل بالعبادة طول الوقت الذي يحدد له، فكان الشيخ يحيى يسهر في الساعات الأولى من الليل، إلى الساعة الثانية عشرة، ثم يستيقظ الشيخ محمد إسماعيل نفسه، وينام الشيخ محمد يحيى، وفي الثلث الأخير من الليل يوقظ ابنه الأكبر الشيخ محمد.

وكان الشيخ محمد إسماعيل قد طُبع على المسالمة والمهادنة، ولم يشك أحد أنه تضايق منه يوماً ما، واتفق الناس على زهده وورعه وصفاء قلبه، وطهارة نفسه، ونقاء سريرته، وكان يقيم في دلهي وقتئذ علماء تختلف مذاهبهم ووجهات نظرهم، وجمعيات ومنظمات تتضارب أفكارها وآراؤها، وبلغ بهم العداء أنهم كانوا يتحاربون فيما بينهم حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض،

لكن شخصية محمد إسماعيل كانت الشخصية الوحيدة التي كان يتفق عليها الناس، ويحملون لها الحب، والتقدير، ولا يتنازعون في شأنها.

بلدة ميوات وعلاقة الشيخ بأهلها:

إن لعلاقة الشيخ محمد إسماعيل ببلدة ميوات قصة طريفة، إنه خرج يوماً في البحث عن شخص يصلي معه؛ لأنه كان وحيداً، لكيلا يفوته أجر الصلاة بالجماعة، فرأى رجالاً كانوا يأتون من بلدة ميوات، ويتجهون إلى مدينة دلهي، لكسب العيش، فسألهم الشيخ محمد إسماعيل: لماذا تذهبون إلى دلهي؟ فقالوا: نريد أن نعمل هناك، فسأل الشيخ: كم تكسبون من أجرة؟ فكانت إجاباتهم مختلفة حسب عملهم وشغلهم، وأجابوا ما أجابوا، فقال لهم الشيخ: إذا حصلت لكم مثل هذه الأجرة في هذا المكان، فهل تذهبون إلى دلهي؟ فقالوا: لا، فأتى الشيخ بهم إلى المسجد، وجعل يعلمهم الصلاة، ويدرسهم القرآن، وكان يشغلهم في هذه الأمور الدينية طول النهار، ويدفع إليهم أجرهم في المساء، فتعلم هؤلاء العمال الصلاة في عدة أيام، وتعودوا عليها، وتركوا أجرهم، وعمر بهم هذا المسجد، ثم أنشئت فيه مدرسة فكانوا من أوائل المتعلمين فيها.

وكان من عادة الشيخ محمد إسماعيل أن يرد هؤلاء الأجراء إلى بلدة ميوات بعدما تعلموا المسائل الدينية، والأحكام الشرعية الأساسية لينشروا تعاليم الدين في منطقتهم، فتحول هؤلاء العمال بعد مدة إلى دعاة، وهكذا فتح الطريق لأهل بلدة ميوات لتعلم الدين، وجعلوا يختلفون إلى هذه المدرسة ويتعلمون فيها الإسلام، ونال بذلك الشيخ محمد إسماعيل ثقتهم، وصار موضع احترام، وتقدير.

وفاته:

توفي الشيخ محمد إسماعيل في (٤ شوال سنة ١٣١٥هـ، الموافق ٢٦ فبراير ١٨٩٨م)، في مسجد يقع على مفترق الطرق الذي يسمى «بتهرام» في مدينة دلهي، وأرخ يوم وفاته «غُفِر له» ودفن في ناحية من نواحي مسجد «بنغلة والي»

بحي نظام الدين، وكان بين المكان الذي توفي فيه، والمكان الذي دفن فيه مساحة ثلاثة أميال، ازدحم الطريق الطويل بالمشيعين لجنازته، وكان الناس يتهافتون عليه، ولم تسنح لكثير منهم فرصة ليمس سرير جنازته، وكان يشتمل هذا الحشد الكبير على طبقات مختلفة من الناس الذين قلَّما يلتقون في مكان واحد.

يقول الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل: كان شقيقي الأكبر الشيخ محمد لين الجانب، رقيق القلب، كثير التسامح، غزير الدمع، فخشيت أن يشير هو نفسه إلى أحد من المشايخ ليصلي بالناس على الجنازة، ويعترض على إمامته رجال أو يقترح أحد اسم إمام آخر، وقد يكون هذا الإمام أيضاً موضع خلاف، ويؤدي ذلك إلى حدوث نزاع ديني أو صراع حزبي، ويترك في النفوس أثراً سيئاً، فتقدمت وقلت: إنني أؤم صلاة الجنازة، وقبل الجميع هذا الاقتراح، وأدوا صلاة الجنازة خلفي، ولم يحدث أي خلاف، وأقيمت صلاة الجنازة، عدة مرات، للحشد الكبير، فتأخر لذلك دفنه، وشعر خلال هذه الفترة أحد أصحاب البصيرة والإدراك النفسي كأن الشيخ محمد إسماعيل يقول:

«ودعوني بسرعة إنني أستحيي من طول انتظار رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين».

◘ أبناء الشيخ محمد إسماعيل:

كان للشيخ محمد إسماعيل ثلاثة أبناء، ولد له من زوجته الأولى الشيخ محمد، ومن زوجته الثانية التي تزوج بها بعد وفاة الزوجة الأولى ابنان وهما الشيخ محمد يحيى والشيخ محمد إلياس.

◘ الشيخ محمد بن الشيخ محمد إسماعيل المتوفى سنة (١٣٣٦هـ):

كان الشيخ محمد يمتاز بالحلم والتواضع والعطف والكرم، والجود، والسخاء، والابتهال إلى الله، والإنابة إليه، يبدو وكأنه ملك جاء في صورة بشر وتمثله هذه الآية الكريمة تمثيلاً صادقاً وهي: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان].

كان طويل الصمت، رشيد الأمر، عفيف الطرف، محسناً لا يسيء إلى أحد، مقبلاً على ربه، خاضعاً لأوامره، محبّاً للعزلة، منقطعاً إلى عمله، وكان يعيش حياة زهد وقناعة، وتوكل على الله، يسكن في المسجد الذي يقع في حي نظام الدين، محل والده، وكانت في هذا المسجد مدرسة أنشأها أبوه، وكان معظم الطلاب في هذه المدرسة من بلدة ميوات، وكان كثير من الناس يأتون إليه من دلهي وميوات ليسترشدوه، ويتوبوا على يده، ويتعلموا منه، وكانت عواطف المحبة والسماحة تجيش في قلب كل من يتصل به، وكان يعظ الناس ببساطة وبأسلوب سهل يفهمه الجميع، يبدو كأنه يتكلم ولا يخطب وكان لكلامه تأثير على النفوس، وتحريك للعواطف والمشاعر، وكان يروي خلال موعظته الأحاديث المتعلقة بالزهد والتقى والخلق، ويشرحها بشيء من التفصيل، أخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وكان يلازم صلاة الليل، فلم تفته صلاة التهجد مدة (١٦) سنة قبل وفاته، وكان مواظباً على الصلاة بالجماعة، فصلى مع الجماعة إلى آخر يومه وتوفي ليلة الجمعة في (٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٦هـ)، وهو يصلي الوتر، وشيع جنازته حشد كبير، وتم دفنه في حي نظام الدين بجانب أبيه.

● الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي المتوفى سنة (١٣٦٣هـ):

إن الشيخ محمد إلياس ابن الشيخ محمد إسماعيل وخدماته الدعوية، وجهوده الإصلاحية وحياته الحافلة بالرياضة والمجاهدة وتأثيره في النفوس، وانتصاراته في مجالات الدعوة معروفة ولا يسع هذا الكتاب أن يتناول الجوانب الرئيسة من شخصية الشيخ محمد إلياس، فهي تحتاج إلى كتاب مستقل؛ لأنه بحر زاخر لا ساحل له، وقد ألفت هذا الكتاب حول شخصية هذا الداعية الكبير بعنوان «الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية»[١].

(١) انظر: ترجمته في: الشيخ محمد إلياس ودعوته، بقلم المؤلف.

◘ الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي المتوفى سنة (١٣٣٤هـ):

ولد الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي ابن الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي يوم الخميس في (شهر محرم الحرام سنة ١٢٨٧هـ، الموافق ٢٣ مارس سنة ١٨٧١م)، وكان دمث الأخلاق، خفيف الروح، حسن المحاضرة، متوقد الذكاء، عالي الهمة، حفظ القرآن الكريم وهو لم يجاوز السابعة من عمره، أمره أبوه بأن يختم القرآن الكريم كله في النهار، ثم ينصرف إلى أي شغل، يقول الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عن نفسه: كنت أبدأ قراءة القرآن الكريم بعد صلاة الفجر فوق سطح البيت، ولا أفطر إلا بعدما أختمه، وكان من عادته أنه كان لا يستريح بعدما يختم القرآن الكريم، بل كان يدفعه شغفه بالعلم إلى الانغماس في الدراسة، فيكب عليها بنشاط وإمعان فيقول هو نفسه:

«إنني أختم القرآن قبل صلاة الظهر في غالب الأحيان، ثم أتغدى وأتعلم اللغة الفارسية في وقت الفراغ برغبتي.

وكان أبوه ورعا متزهداً شغوفاً بالعبادة، يحيي الليالي، وكان يوقظ ابنيه الشيخ محمد يحيى والشيخ محمد أخاه الأكبر في آخر الليل لصلاة التهجد ليتعودا عليها، وكان شقيقه الأكبر محمد بن محمد إسماعيل يصلي ثماني ركعات طويلة في النوافل، لكن الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي كان يصلي ركعات قصيرة في النوافل، ويقبل على المطالعة والدراسة، ويعكف عليها.

كان الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي يقول: إن أبي كان يهتم بالوضوء والذكر اهتماماً بالغاً ويؤكد علينا أيضاً أن نهتم به، لكني كنت مولعاً بالعلم والدراسة، فأحفظ كلمات اللغة العربية والفارسية وأنا أتوضأ، ويقول والدي عندما يسمع مني هذه الكلمات: لعلك تقرأ الأدعية المأثورة للوضوء.

إن هذه الحياة العلمية التي قضاها الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي كان من حقها أن يغتبط بها العلماء والأساتذة فضلاً عن طلاب المدارس الدينية، فينبغي أن يطلع العلماء والطلبة على جوانب حياة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي العلمية والدينية والدعوية، ويجعلوها أنموذجاً لأنفسهم ويروا كيف

درس الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي؟ وكيف طالع الكتب؟ وكيف صرف أوقاته؟ وأين صرف؟..

يقول الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عن دراسته للأدب: إنني كلما قرأت المقامات للحريري على أستاذي في الأدب، قرأتها في الطريق المؤدي إلى بيته، كنت أرافقه إلى بيته كما أمرني به.

وكانت براعته في العلوم المعقولة والمنقولة في صغر سنه تبعث على الدهشة، والاستغراب، اعترف بها كبار العلماء في عصره، وكان يعتز كبار العلماء بلقائه والتحدث معه في الموضوعات العلمية، وكانت له اليد الطولى في الأدب العربي، وكان يجيد النظم والنثر معاً.

سافر إلى بلدة كنكوه في شوال سنة (١٣١١هـ) ليأخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وذلك لأن شقيقه الأكبر قد قرأ كتب الحديث عليه، فرحل إليه ليأخذ عن الشيخ الحديث الشريف، وكان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي مصاباً بداء نزول الماء في العين في تلك الأيام، وكان قد ترك التدريس والإفادة منذ مدة، فأقام الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي ببلدة كنكوه مدة طويلة، وكان يلازم صحبته، ولا يغادر ذلك المكان ساعة حتى نهض الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي للتدريس، يقول الشيخ عاشق إلٰهي في كتابه «تذكرة الخليل»:

جلس الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي للتدريس بعد فترة طويلة نظراً إلى رغبة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي الشديدة، بطلب من الشيخ خليل أحمد، وكان هذا الدرس هو الدرس الأخير له في حياته، وكان الشيخ رشيد أحمد يعرف شغف الشيخ محمد يحيى واجتهاده في الدراسة، فلا يدرس إلا إذا حضر الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي.

كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي يحبه ويثق به، فإذا خرج من داره لشغل كان ينتابه قلق وهم، وكان يقول: إن الشيخ محمد يحيى عُكّازتي. كان من عادة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي أنه يقيد ما يلقي إليه الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي من الأمالي بعدما يعود إلى مقره، فصارت تعليقاته على كتب

الحديث شرحاً يندر وجوده، وقد لازم الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي اثنتي عشرة سنة بكاملها، ونشأ في مهد عطفه وكرمه وحنانه ولطفه، ولم يغادر بلدة كنكوه إلا بعد وفاته.

انضمامه لهيئة التدريس في مظاهر علوم:

وكان الشيخ خليل أحمد يتمنى منذ أيام أن ينضم الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي إلى هيئة التدريس في مدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور، ويتولى تدريس الحديث فيها؛ لأنه جرّب ذكاءه وفطنته حينما كان يدرس في دلهي، فدعاه لعدة أيام، وألح عليه بأن يقيم بها، فالتحق بمدرسة مظاهر العلوم في شهر جمادى الأولى سنة (١٣٣٨هـ)، وتولى تدريس الحديث الشريف فيها، واشتغل بهذا المنصب الجليل طول خمس سنوات ونصف سنة متطوعاً، لم يتقاضَى راتباً على تدريسه، وأنشأ مكتبة تجارية ليكتسب منها، وكان يعمل فيها بنفسه، وكان بكاءً يبكي في ظلام الليل ويناجي ربه ويتضرع إليه، فكان يلقى كل من يلقاه بوجه طلق باسم ويدخل السرور على أصحابه بحسن ظرفه وفكاهته. كان طلق الوجه، كريم المحيا، غزير الدمعة، عفيف اللسان، رقيق القلب، ويسكن كرجل عادي ببساطة، وكان له غرام شديد بالقرآن الكريم.

يكتب الشيخ عاشق إلٰهي أن الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عندما وصل إلى بلده ميرته ليصلي بالتراويح في شهر رمضان المبارك على دعوة مني، وكان يختم القرآن الكريم كله في تنقلاته طول النهار، وتكون على لسانه السورة الأخيرة للقرآن الكريم لدى غروب الشمس، فلما نزل من القطار حان وقت صلاة العشاء وكان دائم الوضوء، فتقدم إلى المحراب، وقرأ عشرة أجزاء في ثلاث ساعات، دون تلكؤ وتلعثم، يبدو كأن المصحف الكريم مفتوح بين يديه، وهو يقرأ فيه، وغادر إلى بلدته بعدما ختم القرآن الكريم في اليوم الثالث، ولقوة ذاكرته كان لا يحتاج إلى سامع.

يقول عنه الشيخ احتشام الحسن في كتابه «أحوال مشايخ كاندهلة»، كان من عادته أنه يأتي إلى بلده كاندهلة، ليصلي بأمه وجدته لأمه في رمضان،

ويعود إلى بلده بعد أن يختم القرآن الكريم كله في ثلاث ليال، وكان قد ختم القرآن الكريم كله في ليلة واحدة في السنة التي توفي فيها.

وكان بالإضافة إلى شغفه بتلاوة القرآن الكريم وتعليم الحديث الشريف حريصاً على مواساة الناس، ومساعدة ذوي الحاجة، والإحسان إلى الضعفاء والغرباء، والإنفاق على اليتامى، والأرامل، وكان يخفي ذلك كله، حتى لا يعرفه أحد من معارفه، وقد بلغ من بساطته أنه كان يعيش بالكفاف ولا يدّخر شيئاً، ولا يمسك من ماله شيئاً، بل يصرف على الفقراء والمساكين، وذوي الحاجة، وإن لم يسعه ماله اقترض لمساعدتهم، ولما توفي خلّف قرضاً يبلغ ثمانية آلاف روبية، ولم يعرف أحد أين أنفق هذا المبلغ، أصيب بمرض الكوليرا في (٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٤هـ)، ولحق بالرفيق الأعلى عن عمر يناهز (٤٦) عاماً، ولم يطل مرضه إلا ساعات، ودفن في مدينة سهارنفور في مقبرة «حاجي شاه»، التي تضم قبور كبار العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ محمد مظهر مؤسس مدرسة مظهر العلوم.

وكان من عادة الشيخ محمد إلياس حيثما يذكر أخاه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي أخذته نشوة، وغلبه حب غامر، وينسى كل شيء، ويتلذذ بذكر صفاته، وفضائله، ويقول: أخي كذا، وكذا، ويتبسط في الكلام، ويصفه بأنه قد طبع على الاعتدال والمسالمة، ووهبه الله ﷻ قدرة فائقة على الجمع بين العناصر المتضادة والطبقات المتصارعة.

◌ أحوال الشيخ محمد يحيى وميزاته بلسان نجله الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

كان المرزا قربان جاه بن المرزا إلٰهي بخش يحمل للشيخ محمد إسماعيل الحب والتقدير، ويضعه موضع الثقة والاحترام، فأبدى مراراً رغبته في زواج ابنته قيصر جهان بابنه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، وألح عليه بذلك، وكان الشيخ محمد إسماعيل رجلاً زاهداً، فلم يكن يرضى بزواج ابنه في أسرة ملكية. لكنه استفسر ابنه عن هذا الزواج بعدما ألح عليه كثير من

الناس، فاعتذر إليه عنه بقوله: «إن الزواج من أميرة لا يسمح له بأن يعيش حياة زهد وتقشف وبساطة».

كان الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي يؤكد على قطع العلاقة خلال أيام الدراسة، ويقول: إن الطالب مهما بلغ من الغباوة، والإهمال إذا لم يصب بمرض تكوين الصداقة وإقامة العلاقة فيأتي يوم يمتاز فيه في الدراسة، وعلى العكس من ذلك، إذا كان لديه رغبة في تكثير العلاقات فمهما كان ذكيّاً وحريصاً على العلم، ومتفوقاً في الدراسة يفقد كفاءته، وقدراته، ولا يجني في النهاية إلا الفشل، وكثيراً ما كان يقول: إن الشعور بالاستعلاء للانتماء إلى أسرة عالية لا يزول إلا بعد مدة طويلة.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: تاقت نفسي في صباي خلال إقامتي ببلدة «گنگوه»، إلى أن أصلي النوافل الطويلة بعدما رأيت عمي يصلي، فقمت أصلي النافلة بعد صلاة المغرب، فجاء أبي وصفعني صفعة شديدة وقال: لماذا لا تحفظ درسك؟.

كان الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي لا يلتزم بالمنهج الدراسي القديم الذي يسمى بالمنهج النظامي، وكان يراعي طبيعة الطالب ومستواه في تحديد الكتب، وكان يسمع درس كتاب «ألفية ابن مالك» كل يوم وكان يهتم بتحفيظ القواعد قبل كل شيء، ثم يقوم بإجراء تمارين هذه القواعد على اللوحات أو الأوراق، ولا تكون العطلة في شهر رمضان، ولكنه يختار لشهر رمضان كتباً توافق هذا الشهر، ويؤكد على دراسة كتب الأدب، ويكلف الطلاب بنقل العبارات الأردية إلى العربية، والعبارات العربية إلى الأردية، وكان يستنكر تدريس كتب الأدب التي عليها حواشي.

كان يعارض ذلك المنهج الدراسي الذي تتبعه المدارس الإسلامية في هذه الأيام، ويقول: بهذا المنهج لا ينشأ استعداد في الطالب وذلك لأن المدرس هو الذي يبذل كل الجهد ويتولى كل الأمر وهو الذي يسهر الليل كله، ويطالع الكتب طول الليل ليلقي الدرس على الطلاب في الصباح مدعماً بالأدلة والبراهين، بينما الطلاب لا يبذلون أي جهد في الدراسة ولا يلقون

إليها بالاً كبيراً، منهم من يسمع ومنهم من يحضر ومنهم من لا يسمع ومنهم من لا يحفظ، حتى نرى بعض الطلاب يشتغلون بأمور أخرى، وهم في صفوفهم، فلذلك اختار الشيخ محمد يحيى منهجاً آخر يرغم الطلاب على بذل الجهد والاهتمام بالدراسة، والقيام بالواجب، واستحضار الدروس، فهو يدعو الطالب إلى أن يشرح ما سمعه خلال درسه، أو يقدم خلاصته، وكان يقول: ليس على الأستاذ إلا أنه يقول: نعم، إذا أصاب الطالب، أو: لا، إذا أخطأ.

لم يطل مرضه إلا يوماً واحداً، شعر بالضعف في (٩ ذي القعدة) صباح الجمعة لكنه أدى صلاة الجمعة بهدوء، ثم اضطجع بعد تناول الغداء كعادته، وأصابه الإسهال، واشتد عليه هذا المرض، وكان عليه أن يذهب إلى منزل المحامي عبد الله ليشفعه أحداً من أصحابه، ولكن الجميع منعوه ثم توقف الإسهال واحتبس ولم ينجُ من مرضه ذلك، وفاضت روحه في صباح اليوم الثاني (١٠ ذي القعدة ١٣٣٤هـ)، وكان يردد لسانه كلمة لا إلـٰه إلا الله، بسرعة غريبة، توفي في الساعة التاسعة، وتم دفنه في الساعة العاشرة في مقبرة حاجي شاه، ووصل الشيخ خليل أحمد بعد ساعات من وفاته.

وكان الشيخ محمد يحيى يعيش حياة تقشف وبساطة، ويرتدي ملابس عادية رخيصة، ولا يبدو من ملابسه وأسلوب حياته أنه عالم من العلماء.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: كان غزير الدمع ما رأيت أحداً من العلماء يبكي مثلما كان يبكي والدي الشيخ محمد يحيى، والشيخ حسين أحمد المدني، وكان يتلو القرآن الكريم آناء الليل وآناء النهار، يقرؤه في النهار سرّاً وهو مشتغل بأمور مختلفة، ويقرؤه في آخر الليل جهراً ويبكي كثيراً.

كان الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي يقول: كان أخي الكبير محمد قد قرأ الحديث على الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، فوقع في قلبي حبه، ولم يزل يزداد هذا الحب، والإعجاب به، حتى قررت في نفسي أنه إذا قدر لي أن أقرأ الحديث، فأقرؤه عليه، وإلا فلا، وكان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي قد توقف عن تدريس الحديث منذ سنوات لكثرة أمراضه، وأشغاله، لكنه أخذ في تدريس كتاب سنن الترمذي في غرة ذي القعدة سنة (١٣١١هـ)، ثم بدأ يدرس

«الجامع الصحيح» للبخاري بناء على طلب من الشيخ خليل أحمد السهارنفوري لعطفه عليّ[1].

توفي الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي في اليوم الذي وصل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري إلى بمبي وتلقى نبأ وفاته هناك، وكان قد بعث إليه برقية من عدن منذ ثلاثة أو أربعة أيام، وأخبره فيها بقدومه إلى مدينة سهارنبور، فكتب الشيخ محمد يحيى رسالة إلى رائي فور يخبر بقدوم الشيخ خليل أحمد.

(١) وفي مقدمة: أوجز المسالك ص١٣٤: فقرأ عليه الأمهات الست في السنتين بغاية التدبّر والإتقان، وقيّد بالكتابة فرائد تقاريره. (تقي الدين الندوي).



الباب الثاني

من مولده إلى استكمال دراسته

○ مولده ونشأته:

ولد الشيخ محمد زكريا ابن الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي في بلدة «كاندهلة» في الساعة الحادية عشرة في الليلة الحادية عشرة من شهر رمضان المبارك سنة (١٣١٥هـ)، وكان أهل أسرته يصلون التراويح في المسجد، وما انتهوا من صلاة التراويح حتى أفضى إليهم أحد أقاربه بهذا النبأ السار، فغمرتهم موجة من السرور، وهنأ بعضهم بعضاً بهذا المولود الجديد، وتوجهوا إلى البيت الذي ولد فيه هذا الصبي للتهنئة بدلاً من أن يذهبوا إلى بيوتهم، ثم أخذوا طريقهم إلى بيوتهم.

وكان جد هذا الصبي الشيخ محمد إسماعيل في حي نظام الدين وقتذاك، فقال عندما بلغه الخبر: قد جاء الذي يحل مكاني، وأدركته المنية في شهر شوال في نفس السنة.

وفي اليوم السابع جاء أبوه الشيخ محمد يحيى إلى بلدة «كاندهلة»، وأبدى رغبته في رؤية الصبي، وكانت العادة قد جرت في الأسرة الكريمة، أن يستحيي الآباء من أن يحتضنوا الصبي ويبدوا حبهم وإعجابهم أمام آبائهم وأجدادهم، ولم يكن يؤتى بالصبي ليراه أبوه في تلك الأسر، وكانت إحدى النساء في أسرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي «مريم بي» وقررت في نفسها أن تقيم احتفالاً بالعقيقة، وتحقق أمنيتها القديمة بهذه المناسبة، فلما بلغهن أن الشيخ محمد يحيى يرغب في أن يرى ولده سررن غاية السرور في جانب، ودهشن غاية الدهشة في جانب آخر، وكان الشيخ محمد يحيى قد أتى معه بحلاق، فلما قُدم إليه الصبي أشار إلى الحلاق بأن يحلق شعر هذا الصبي،

وأرسل الشعر إلى أمه، وقال: إني حلقت الشعر، فعليك الآن ذبح الشاتين، والصدقة بزنة شعره فضة.

أطلق على هذا الصبي اسمان: أحدهما: محمد موسى، والآخر: محمد زكريا، واشتهر بهذا الاسم الأخير.

كان الشيخ محمد يحيى يقيم في تلك الأيام في بلدة «كنكوه»، عند الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي بصورة دائمة، ولا يأتي إلى «كاندهلة» إلا لحاجة ملحة، وكان الشيخ محمد زكريا في الثانية والنصف من عمره، فسافر مع أمه إلى بلده «كنكوه»، ونال من عطف الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وحبه ودعائه ما لم ينله أحد غيره، وذلك لارتباط ابنه بالشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وعلاقته الوثيقة معه علاقة إشراف وتربية، ولأنه كان قدر لهذا الصبي أن يكون شارحاً لعلومه وأميناً لفضائله الروحية.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نفسه: كنت في الثانية من عمري، وكان الشيخ رشيد أحمد يجلس تحت شجرة متربعاً فأقوم على ركبتيه، وأعانقه وأتعلق به، وأضاف يقول: لما كبرت شيئاً كنت أقف على الطريق الذي يمر به الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، فأسلِّم عليه بصوت عالٍ فيرد عليّ الشيخ بنفس الصوت وبنفس الأسلوب لعطفه علي، وقد بلغ به الحب أنه كان يُجْلسني في المحضنة التي يحملها كبار العلماء والمشايخ، وآكل معه في بعض الأحيان وأستحق وحدي ما بقي من طعامه دون أن يشاركني فيه أحد.

كانت بلدة «كنكوه» مركزاً كبيراً للعلماء والطلاب حينذاك، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الكبار، الذين جاؤوا من أقصى البلاد ليأخذوا عنه الحديث، ويتلقوا منه تربية روحية، ويتعلموا منه الدين، وكان قد خيَّم عليها جو روحي وعلمي يتعذر نظيره في هذا العصر، فقضى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أيام طفولته التي يقبل فيها الطفل كل ما يقدم إليه، دون أن يشعر بأنه يحمل له خيراً أو شرّاً، وتختزن ذاكرته كل ما يسمعه ويراه، دون أي جهد وعناء، فأمضى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي معظم أيامه في هذه البيئة العلمية الروحية، ومكث في «كنكوه» اثنتي عشرة سنة، ولا يذهب إلى بلدة

«كاندهلة» إلا إذا ذهبت أمه إليها لتشارك في حفلة زواج أو لحاجة تعرض لها فيذهب معها، ثم يعود إلى بلدة «كنكوه»، وكان موطنه أيضاً مركزاً علميّاً ودينيّاً كبيراً.

وقد امتزج بهوائه الشغف بالعلم، والاهتمام بالنوافل، والتلاوة، والارتباط بالعلماء، والعكوف على الدراسة والمطالعة، وعلو الهمة، والتواضع للعلماء، والتذوق للعبادة، فكان لا بد أن يتأثر هذا الصبي الذي كان يتمتع بذكاء حاد، وشعور مرهف، وقلب يقظ بهذه البيئة العملية الروحية، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يعرج في طريقه إلى كنكوه، على قرى وأرياف، يسكن فيها زملاء الشيخ محمد يحيى في الدراسة وبعض أقاربه وأصدقائه، ويمكث فيها أياماً، وفي بعض الأحيان يتوجه إلى بلدة كاندهلة عن طريق «بذولي» حيث يسكن عدد من أقاربه وأصدقائه، ويمكث فيها أيضاً أياماً عديدة، وخلال فترة إقامته تعقد اللقاءات، وتقام الحفلات ويشارك فيها العلماء الذين يعرفون بأخلاقهم وصدقهم ووقارهم، وفضلهم وتحفظهم، وكان لهم كعب عالٍ في فنونهم وعلومهم، وتمتد الإقامة في هذه الأماكن التي تقع في طريقه إلى «كنكوه» أربعة أو خمسة أيام، وكان الشيخ محمد زكريا يحكي وقائع هذه الرحلات بغاية من الشوق والاهتمام، ويدل ذلك على مدى دقة ملاحظته، وقوة ذاكرته وتأثير هذه الرحلات على طبيعته وذوقه، ودور هذه اللقاءات، والجلسات في تشكيل شخصيته.

توفي الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في شهر جمادى الأولى سنة (١٣٢٣هـ) وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في الثامنة من عمره، وغربت تلك الشمس التي أشرقت هذه المنطقة كلها بنور علمه، وانجذب العلماء الكبار إليها من مناطق نائية وصارت مركزاً دينيّاً كبيراً تفرق هؤلاء العلماء الذين اجتمعوا فيه إثر وفاته، لكن الشيخ الذي آثر الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي على أبيه، وكنكوه على موطنه عقد العزم على أن يبقى في هذه البلدة، وبقي هناك بالفعل مدة.

دراسته:

كانت العادة قد جرت في معظم الأسر الشريفة في تلك الأيام أن الطفل إذا بلغ أربع أو خمس سنوات أرسل إلى كُتّاب يقع قريباً من البيت، ومن غريب الأمر أن هذه الصبي كان قد أتم سبع سنوات ولم يبدأ دراسته، وكان يتمتع بصحة جيدة جعلته يبدو أكبر سنّاً بالنسبة لأقرانه فيعجب أهل أسرته من تأخره في الدراسة، ويحملون ذلك على الإهمال، حتى قالت جدته للشيخ محمد يحيى: إن حبك لولدك قد أعماك، إنك حفظت القرآن الكريم وأنت في السابعة من عمرك، وقد أصبح هذا الولد مثل الثور، ولكنه لم يبدأ حفظ القرآن بعد، هل تريد أن تراه إسكافاً يصلح النعال أو الأحذية؟! فأجاب الشيخ محمد يحيى أمه: دعيه يلعب ما يلعب، إنه عندما يبدأ بالدراسة فلا يستريح إلا في قبره، حتى جاء ذلك اليوم السعيد، وبدأ دراسته وكان يقيم ببلدة «كنكوه»، وقدم الشيخ محمد يحيى ابنه إلى صديق له، وكان صالحاً ورعاً زاهداً من أهل بلدة «مظفر نجر»، وكانت بينه وبين الشيخ محمد يحيى علاقة وثيقة، فقرأ عليه الشيخ محمد زكريا، القاعدة النورانية.

ومما تمتاز به هذه الأسرة هو عنايتها بحفظ القرآن الكريم عناية بالغة، وكان حفظ القرآن المرحلة الأولى من المراحل الدراسية في هذه الأسرة، ولم يكن بد من المرور بها، فأخذ الشيخ محمد زكريا في حفظ القرآن على عادة أبناء أسرته، وكان أسلوب الشيخ يحيى في التعليم يختلف عن أساليب التدريس الأخرى، وكان يكلف ابنه بحفظ صفحة واحدة، ويقول له: اقرأ هذه الصفحة الواحدة مئة مرة، ولا عليك بعد ذلك (ولا يستثنى أي طفل مهما أوتي من ذكاء وفطانة من مقتضيات العمر والطبيعة البشرية) فيقول الشيخ نفسه: كنت لا أُقدِّر أن قراءة صفحة واحدة مئة مرة كم يستغرق لها من الوقت، فحضرت إليه بعد قليل، وقلت له: قد قرأت هذه الصفحة مئة مرة، فلم يقل لي شيئاً، ولما كان من الغد، قلت له مثلما قلت له بالأمس، فقال: يبين صدقك غداً، وكنت قد كلفت بأن أقرأ جزءاً واحداً مئة مرة حتى بعدما وصلت إلى بلدة «سهارنبور» وشرعت في تعلم اللغة العربية.

وكان لأبي صديق يسمع لي ذلك الجزء، وكنت أخطئ كثيراً ويرى ذلك الأستاذ عبد الله، وكان محامياً كبيراً من أهل مدينة «سهارنبور»، وكان يتصل بهذه الأسرة اتصالاً عميقاً، فقال لأبي مرة: إن ابنك لا يحفظ القرآن الكريم، فأجاب أبي: كلا! فقال: كيف؟ فقال له: ليس له إلا أن يقرأ القرآن الكريم مدى الحياة، فيحفظه.

مكث الشيخ محمد زكريا في بلدة «كنكوه» إلى سنة (١٣٢٨هـ)، وكان عمره وقتذاك يتراوح بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، وقرأ أثناء إقامته بهذه البلدة بعض الكتب الدينية، والكتب الفارسية الأولى، وقرأ معظمها على عمه الحنون الشيخ محمد إلياس، وكان من عادة الشيخ محمد إلياس أن يغلق الكتاب إذا أخطأ الطالب خطأ فاحشاً، ويقول له: لو أمسكت لسانك ستة أسابيع اتخذتك ولياً، فيقول الشيخ: كان من الصعب عليّ أن ألازم الصمت ستة أيام، فضلاً عن ستة أسابيع.

إقامته بمدينة «سهارنفور» وإقباله على الدراسة العربية:

بدأ الشيخ محمد زكريا دراسة الكتب العربية بعدما قدم إلى مدينة «سهارنبور» سنة (١٣٢٨هـ)، وكان للشيخ محمد يحيى عقل اجتهادي في أكثر شعب الحياة، ولا سيما في الدراسة، وكان لا يرضى عن المنهج الدراسي المتداول، وطريقة التدريس الشائعة، وتنسيق الكتب الدراسية الذي تلتزم به المدارس، فوضع منهجاً دراسياً جديداً في ضوء خبرته وذكائه، وموهبته التعليمية، وكان الشيخ محمد إسماعيل قد تبع هذا المنهج، ووضع صيغاً كثيرة، واختير هذا المنهج أيضاً للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان من عادته أنه يملي عليه القواعد شفهياً، دون كتاب، ثم يعلمه عدة حروف لا تجاوز أربعة أو خمسة، ويأمره بأن يتخذ صيغاً كثيرة من المثال والأجوف، والناقص والمضاعف، ويطلب إليه أن يحفظها عن ظهر القلب، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: إني قد أسمعت «صرف مير» و«بنج كنج» خلال اثني عشر يوماً لكن: «كتاب فصول أكبري» قد استغرق وقتاً طويلاً، وكذلك قرأت

بعض الكتب الدراسية المتداولة من الصرف والنحو بشيء من الحذف والزيادة، والتعديل على نهج خاص متميز، قرأت بجانب كتاب «الكافية»، كتاباً يسمى بـ«مجموعة الأربعين» وقرأت ترجمة الجزء الأخير من القرآن الكريم، بدلاً من كتاب «نفحة اليمن» الذي كان بغيضاً إلى الشيخ محمد يحيى، وما قرأت من «نفحة اليمن» إلا ما جاء في الباب الثالث من قصائده، ثم قرأت «قصيدة البردة» و«قصيدة بانت سعاد»، و«القصيدة الهمزية» قبل أن أقرأ «المقامات».

كان الشيخ محمد يحيى يزور مدرسة «مظاهر العلوم» بسهارنفور كل سنة بعدما توفي الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي على دعوة من الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ليلقي الدرس في الحديث، على طلبة «مظاهر العلوم»، لكنه ترك إقامته ببلدة «كنكوه» سنة (١٣٢٨هـ) على رغبة ملحة من الشيخ خليل أحمد، وكان لا يأخذ منها مرتباً، وإنما كان يدرس فيها فخريّاً، وهكذا بدأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي دراسته في «سهارنفور»، وأتم هناك ما بقي له من الدروس في الحديث، وقرأ كتب الفلسفة والمنطق على الشيخ عبد الوحيد من أهل بلدة «سنبهل»، وعلى الشيخ عبد اللطيف رئيس مدرسة «مظاهر العلوم» الأسبق.

استكمال دراسته:

قرأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الكتب النهائية على أبيه الشيخ محمد يحيى، وكان الشيخ محمد يحيى له طريقة تختلف عن الطرق الأخرى في التدريس، وكان يكره أن يلقي الدرس على من يتلمذ عليه، دون أن يكلفه ببذل جهد وإجهاد عقل، وإتعاب نفس، كما جرت العادة في المدارس العربية في العصر الحاضر، وكان يحضِّر الدرس، ويستعد له ويطالع الكتب بكل جد وإمعان، وكان لا يجيب إلا في المباحث العويصة التي يعجز عن فهمها، والمعضلات التي لا يتطرق ذهنه إليها، ولا تساعد فيها الحواشي ولا تعمل فيها الشروح، وكان لا يهمه إلا أن تحصل للطالب ملكة في المطالعة، وكان

لا يشعر بحاجة إلى أن يتم الكتاب من أوله إلى آخره، فإذا رأى أنه لا يبقى للطالب حاجة إلى اللجوء إلى أستاذ في فهم ما جاء في هذا الكتاب من معان تركه، ويبدأ كتاباً آخر.

كان الشيخ العلامة ماجد علي[١] قد ذاع صيته في تلك الأيام بدروسه في العلوم العقلية، وكان قد قرأ الكتب العالية في العلوم العقلية على كبار الأساتذة من أهل خيرآباد، بجد وعناية، وكان له كعب عال في تدريس هذه الكتب، وكان الناس يتوجهون إلى بلدة «ميندهور»، بمدينة «علي جراه»، ليقرأ عليهم كتب الفلسفة، والمنطق، وكان الشيخ ماجد علي قد أخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وكان الشيخ محمد يحيى زميله في هذا الدرس، وكانت له صلة قوية به، وبناءً على هذه الصلة ونظراً إلى ذكاء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الحاد وحرصه على العلم وشغفه به طلب من الشيخ محمد يحيى أن يفوض إليه أمر ابنه لسنة واحدة ليتم عنده كتب الفلسفة والمنطق، وكان يقول:

إنني أرجو أن يبدي رغبته في أن يقرأ «الجامع الصحيح» للبخاري عليّ، ولكن لم تسنح له الفرصة، ولم يضطر إلى مغادرة سهارنفور لاستكمال دراسته.

◘ انقطاعه إلى الدراسة:

كان الشيخ محمد يحيى يعنى بالتربية أكثر من عنايته بالدراسة، ويؤكد على الاحتراز من إقامة الصلة بالعالم الخارجي غير التعليمي خلال أيام الدراسة، ويهتم ببناء الشخصية أكثر من الجهد لكسب العلم، وكان دائماً يراقب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ويتابعه ولا يغفل عنه، وكان يمنع نجله الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يصادق أحداً من زملائه في الدراسة،

---

(١) كان الشيخ ماجد علي المتوفى سنة (١٩٣٤م) من علماء جونفور، الهند، أخذ العلم عن الشيخ عبد الحق الخيرآبادي، وتعلّم الحديث النبوي الشريف في كنكوه بسهارنفور، ودرّس في المدرسة العالية بكلكته في بنغال، وكان من الأساتذة المشهورين النابغين.

ويختلط معه ويتردد إليه، وإذا رأى أحداً يسلّم عليه بصفة خاصة أو يقوم أحد بجانبه في الصلاة أكثر من مرة وهو في مثل سنه استفسره عنه، وينبهه إلى ذلك، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يحترس من ذلك مخافة أن يثير ذلك سخطه، ويعكف على الدراسة منقطعاً عن البيئة الخارجية، وكان الشيخ محمد يحيى قد بلغ من الحيطة والحذر في هذا الأمر أنه كان لا يسمح لابنه بأن يذهب إلى خارج المدرسة، أو يجلس في مكان خارجها إلا إذا كان هو معه أو عمه الشيخ محمد إلياس ولذلك لم تجد فيه الرغبة في التنزه والسياسة وقضاء وقت الفراغ في التسلية مكاناً في قلبه، وكان لا يخطر بباله، وصار ذلك طبيعة له، وكانت تقام في بعض الأحيان احتفالات ومعارض في سهارنفور خلال تلك الأيام لكنه كان يمتنع عن التوجه إليها وإن سمح له أبوه بذلك في بعض الأحيان، وقد بلغ حبه للعزلة وانقطاعه إلى الدراسة أنه مكث مرة في المدرسة نحو ستة أشهر ولم يخرج منها.

◘ دراسته للحديث:

جاء ذلك اليوم المبارك الذي بدأ فيه الشيخ محمد زكريا دراسته للحديث، وكان قد شاء القدر له بأن يتشبث بهذا العلم طول عمره ويهب له حياته كلها، وينتمي إليه ويسبق اسمه لقب شيخ الحديث، ويعرف بهذا اللقب أكثر من اسمه ويدخل في صف كبار المشتغلين بهذا العلم الجليل ممن خدموه وشرحوه، ونشروه.

بدأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي دراسته للحديث في السابع من شهر محرم سنة (١٣٣٢هـ) بعد صلاة المغرب بغاية من الاهتمام والعناية، واهتم أبوه بذلك اهتماماً بالغاً، اغتسل أولاً وتطيب، ثم أخذ في درس كتاب «مشكاة المصابيح» قرأ الخطبة، ثم توجه إلى القبلة ودعا طويلاً يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: لا أعرف ما دعا والده في هذه المناسبة ولكني كنت أنا شخصيّاً أدعو دعاء واحداً، وهو أنني بدأت دراسة الحديث متأخراً فدعوت الله ألا تنقطع عني أبداً.

كان الشيخ محمد يحيى تلميذاً للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وكان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي يعتز به، وكان يمتاز بتوقد ذكائه، ودقة ملاحظته، وسلامة ذوقه، وشغفه البالغ بعلم الحديث، وحرصه الشديد على دراسته، والتطبيق بين الحديث والفقه، وكان تلامذته قلما يعجبون بدرس يلقيه غيره. فكانوا يؤثرونه على غيره.

○ دراسته العالية للحديث:

بدأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي دراسته العالية للحديث سنة (١٣٣٣هـ) حين اعتزم الشيخ خليل أحمد السهارنفوري أن يسافر إلى الحجاز، وكان ينوي أن يقيم هناك مدة طويلة، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد رأى أنه لا يشتغل بوظيفة ولا يحتاج إلى الاستعجال في هذا الأمر، ولا يلزم له أن يستكمل دراسته هذه في سنة واحدة، فجعل يقرأ كتاب أبي داود على أبيه، وأرجأ دراسة كتاب الترمذي إلى أن يعود الشيخ خليل أحمد السهارنفوري من الحجاز، لكنه قرأ الترمذي والبخاري وكتب الصحاح الأخرى غير ابن ماجه على أبيه، وكان قد بذل جهداً كبيراً في هذه السنة الدراسية، وكان يحرص دائماً على أن يقرأ الحديث الشريف وهو على وضوء، وكان الدرس يستغرق خمس أو ست ساعات في بعض الأحيان، وكان لا يحتاج إلى أن يتوضأ خلال الدرس إلا بعد أسبوع أو عشرة أيام، وإذا احتاج إلى أن يذهب للوضوء خلال الدرس حاول زملاؤه في الدراسة أن يوقفوا الدرس بتوجيه الأسئلة حتى يعود.

○ مبايعته على يد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري:

كان الشيخ خليل أحمد السهارنفوري قد عزم على أن يرحل إلى الأرض المقدسة ليقيم فيها مدة طويلة، وكان الناس يتهافتون عليه ليبايعوا على يده، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: قد ساورتني في نفسي رغبة كالأطفال حين رأيت الناس يبايعون على يده، وأبديت له رغبتي هذه فقال: ائتني حين أفرغ من النوافل بعد صلاة المغرب، وكان الشيخ عبد الله الكنكنوهي قد نال

منه الإجازة، ولكنه كان يريد أن يجدد البيعة على يده، فدعاهما الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ووضع يده في أيديهما وطلب منهما أن يعيدا ما يقوله من كلمات فجعل الشيخ عبد الله يبكي بكاء شديداً حتى اختنق بالبكاء وتأثر الشيخ خليل أحمد ببكائه، لكنه تمالك نفسه وتماسك دموعه، وكان الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي والشيخ عبد الرحيم الرائي فوري فوق السطح، فأشرفا عليهم حين سمعا هذا البكاء، فوجدا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يبايع على يده، فعجب الشيخ محمد يحيى من ذلك، وشعر بأنه قام بهذا العمل دون أن يخبره بذلك، لكن الشيخ عبد الرحيم الرائي فوري أعجب بعمله هذا ودعا له بالبركة، وأشاد بجرأته هذه.

◘ علو همته عند وفاة والده:

تحمل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حادث وفاة والده العطوف رغم صغر سنه بقوته الإيمانية والروحية تحملاً يليق بأصحاب النسبة العالية وأهل الإيمان واليقين، ولم يكن أنه قد تحمل هذه الفاجعة التي نزلت عليه كالصاعقة بل قام بتسلية أهل أسرته المفجوعة وإزالة همها وتهدئة عواطفها، وكان الشيخ محمد يحيى قد ترك ديْناً يبلغ ثمانية آلاف روبية، فتظاهر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بشجاعة نادرة وهمة عالية وكتب رسالة إلى كل من عرف أن له ديْناً على أبيه، أن الفقيد رَحِمَهُ اللهُ قد برأت ذمته من هذا الدين، وأنا أتكفل بتسديده، ولم يكن الشيخ قد جاوز السنة التاسعة عشرة من عمره وقتذاك، وكان من الطبيعي أن يساور الدائنين قلق واضطراب، فخافوا أن تضيع أموالهم، فجعلوا يطالبون بتصفية الديون بقوة وإلحاح، وكان الشيخ محمد زكريا يقترض من رجل ويسدد دين رجل آخر، وكان هذا العام من أشد الأعوام ضيقاً وعسراً، وقد قام الشيخ محمد زكريا بتسديد ما كان على أبيه من دين خلال شهرين، لكنه أثقل هو نفسه بالديون حتى بقي عليه تسديد ألف روبية من ذلك الدين الذي اقترضه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لتصفية دين أبيه إلى سنة (١٣٤٤هـ)، فكلف الشيخ نصير الدين بتسديده سنة (١٣٤٤هـ)

حين سافر إلى الحجاز للحج وكان الشيخ نصير الدين مسؤول مكتبته التجارية وقتذاك.

◘ المطلوب أكثر من الطالب:

كان قد خطر ببال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حين توفي أبوه الشيخ محمد يحيى في شهر ذي القعدة سنة (١٣٣٤هـ) أنه لا يحتاج إلى دراسة «الجامع الصحيح» للبخاري، و«سنن الترمذي» من جديد لكن الشيخ خليل أحمد أمره بعدما عاد من الحجاز بأن يقرأ عليه هذين الكتابين مرة أخرى، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: كنت لا أرغب في ذلك أي رغبة، لكنه كان لا يمكن لي أن أخالف أمره، وبينما كنت كذلك إذ رأيت في المنام أن الشيخ محمود الحسن الديوبندي يطلب مني أن أقرأ عليه «البخاري»، فجعلت أفكر أن الشيخ محمود الحسن محتجز في سجن «مالتا»، فكيف يمكن لي أن أقرأ عليه؟! فلما حكيت قصة هذه الرؤيا للشيخ خليل أحمد، قال لي: إن هذه الرؤيا تشير إلى أن تقرأ عليّ مرة ثانية، فبدأت دراسة هذين الكتابين عنده من جديد، وكان هذا العام أشد انهماكاً في المطالعة وعكوفاً على الدراسة، يقول الشيخ: إنني كنت لا أنام أكثر من ساعتين في الليل والنهار، كنت أطالع شروح الحديث طول الليل، وأستعد للدرس استعداداً كاملاً، وكان هذا الجهد والحرص والسعادة وحسن الحظ مما لفت نظر الشيخ خليل أحمد إلي، وقرّبني إليه وجعله يحبني حبّاً كبيراً، ويثق بي ثقة بالغة.

ومن هنا يبدأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عهداً جديداً في حياته ويعود إليه كل ما أحرزه من تقدم ورقي وما كسبه من حب وتقدير، وما ناله من شهرة ومنزلة بين أقرانه وأمثاله في الأيام المقبلة.

◘ مساعدته في تأليف «بذل المجهود»:

لم يمض على الدرس إلا شهران، وكان الشيخ خليل أحمد يعود من دار الطلبة إلى المدرسة القديمة، بعدما ألقي الدرس، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يصحبه كالعادة، فقال له وهو في الطريق: كان من أمنيتي أن

أكتب شرحاً لـ «أبي داود» وكنت قد بدأت ذلك ثلاث مرات، لكن الاشتغال قد حال دون تحقيق هذا الأمل، وأخذت في شرح هذا الكتاب وكان الشيخ خليل رشيد أحمد الكنكوهي أحمد على قيد الحياة، وكنت واثقاً بأن الشيخ يرشدني في كل مشكلة تعرض لي خلال هذا العمل، لكن خمدت هذه العاطفة حين توفي الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ثم خيل لي أن الشيخ محمد يحيى يساعدني في القيام بهذا الأمر، ويحلّ مشاكلي، فأناقشه إذا دعت الحاجة إليه، وبعد وفاته فترت همتي. وأرى الآن أنني أستطيع أن أنجز هذا العمل إذا ساعدتما في هذا.

فأجاب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من ساعته: ابدأ هذا العمل يا سيدي ولعل ذلك هو استجابة دعائي، فقال الشيخ: ما هذا الدعاء؟ فأجاب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: حين بدأت دراسة «مشكاة المصابيح» كنت أشعر أني تأخرت في دراسة الحديث، فدعوت الله ألا تنقطع صلتي بالحديث مدى الحياة، وكنت أعتقد أنه لا سبيل إلى ذلك، وهذا أمر مستحيل بالنسبة لي، وكنت أفكر أنه إذا تم اختياري كمدرس بعدما انتهيت من الدراسة، فمتى يتاح لي أن أدرّس كتب الحديث، وفي كم مدة أصل إلى كتب الحديث؛ لأن المدرسين القدماء الذين يُدرّسون منذ سنوات لم تسنح لهم فرصة لتدريس كتب الحديث إلى الآن، لكن أرجو الآن أن الاشتغال بشرح «سنن أبي داود» سيشغلني بالحديث، ولا يستبعد أن يقدر الله لي ﷻ فرصة لتدريس كتب الحديث بعدما أتم الشيخ خليل أحمد السهارنفوري هذا الشرح.

❊ ❊ ❊



الباب الثالث

اشتغاله بالتدريس والتأليف، تعرضه للمحن، عقد قرانه، رحلاته للحج، الاستئذان والمغادرة

تعيينه كمدرس:

تم اختيار الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كمدرس في مدرسة مظاهر العلوم في (١ محرم سنة ١٣٣٥هـ)، وحدد له مرتب قدره (١٥ روبية)، وكلف أولاً بتدريس كتابين وهما «أصول الشاشي» الذي كان يدرسه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، و«علم الصيغة» وقد كان يدرسه الشيخ ظفر أحمد، وتولى بجانب ذلك تدريس كتب في المنطق، والنحو والصرف، وكتب بدائية في اللغة العربية، وكان لم يتجاوز عشرين سنة من عمره حينذاك، وكانت قد جرت العادة في المدارس أن لا يكلف مدرس في مثل هذا السن بتدريس كتاب كـ «أصول الشاشي» لكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد أثبت جدارته بتدريس هذه الكتب بذكائه النادر، وجهده البالغ، واستعداده التام، وبلغ إعجاب الطلبة به وبأسلوبه في إلقاء الدرس أنهم أبدوا رغبتهم في دراسة الجزء الذي كان قد قرؤوه من قبل.

وفي السنة الدراسية التالية سنة (١٣٣٥هـ) تولى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تدريس الكتب العالية المهمة، وفي سنة (١٣٣٦هـ) تولى تدريس «المقامات» للحريري و«المعلقات السبع»، وقد كان المسؤولون في المدرسة مترددين في تكليفه تدريس «المعلقات» ولأنه كان يدرس في هذا الفصل بعض الطلبة الذين كانوا زملاءه في الدراسة، لكنه لم يلبث أن نال اعتراف رئيس هذه المدرسة بصلاحيته العلمية ونجاحه في تدريس هذه المادة، وفي سنة (١٣٣٧هـ) تولى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تدريس كتاب «الهداية» في

الفقه و«الحماسة» في الأدب، وفي رجب سنة (١٣٤١هـ) أسند إليه تدريس ثلاثة أجزاء من «الصحيح» للبخاري على أمر من الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ونال من الطلبة إعجاباً وتقديراً ثم تولى تدريس «مشكاة المصابيح» ولم يزل يدرسها حتى سنة (١٣٤٤هـ).

⊂ عكوفه في خدمة «بذل المجهود» وعطف الشيخ عليه وثقته به:

مما يفتح للطالب أبواب الرقي الروحي والاستفادة من كبار العلماء والمشايخ أن يولي جلّ اهتمامه ويصرف كل همه إلى الأمر الذي كلفه به أستاذه أو شيخه، وطلب منه أن يساعده في القيام به، فيكسب الطالب عن طريق هذا العمل ثقته وحبه وعطفه وعنايته ويقطع من مراحل السلوك والمعرفة من خلاله ما لا يقطعه عن طريق آخر بصفة عامة، حتى لا يقطعها عن طريق الرياضة والمجاهدة التي تشق على النفس، كان الشيخ خليل أحمد يعكف على تأليف «بذل المجهود»، وكان قد ملك هذا العمل شغله الشاغل وهمه البالغ وشغفه، واستولى على أعصابه ومشاعره، وكان من سعادة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وحسن حظه وحدة ذكائه وبُعد نظره وإدراكه للحقيقة أن صرف إليه اهتمامه كله وأنفق فيه كل ما أوتي له من صلاحية وكل ما كان له من وقت، وانقطع عن كل شغل له.

كان منهجه في التأليف أن الشيخ خليل أحمد يشير عليه بمراجعة بعض كتب الحديث وشروحه فيطالع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تلك الكتب، ويقتني منها المواد المتعلقة به ثم يعرضها على الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ويختار منها الشيخ خليل أحمد ما يشاء، ويقوم بترتيبه ثم يملي على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ويكتب الشيخ ما يملى عليه، ويزداد بذلك قرباً منه يوماً فيوماً.

أثار ذلك ـ بمقتضى الطبيعة البشرية ـ في زملائه من الذين كانوا يريدون أن ينالوا عناية الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وثقته وحبه بصفة خاصة روح التنافس وعواطف الحسد مما دفع بعضهم إلى أن يقولوا: بأن اشتغال الشيخ

محمد زكريا الكاندهلوي بهذا العمل يعرقل في القيام بواجبه من التدريس، فينبغي أن يختار لذلك العمل رجلاً لا يتولى مسؤولية التدريس، ولا يشتغل بوظيفة في مدرسة، فتم اختيار رجل آخر من أجل ذلك، لكن الذي اختير لهذا العمل كان من عادته أن يطلب الإجازة حيناً بعد حين، وهكذا يطول غيابه وينقطع عن العمل وذلك يشق على الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، فلما رأى ذلك الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عرض عليه نفسه، وقال الشيخ خليل أحمد السهارنفوري: إن عملي هذا لا يحتاج إلا إلى مثلك، وهكذا عادت إليه تلك المسؤولية، ثم اختير مرة ثانية لكتابة ما يملي الشيخ خليل أحمد السهارنفوري رجل يحسن الكتابة، لكن الخطاط قال: إنه يسهل علي النقل مما يكتبه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لأنه يهتم بوضع النقط اهتماماً بالغاً، وهكذا ألقيت عليه مسؤولية الكتابة من جديد بعدما انتقلت إلى أشخاص مختلفين.

احترز الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي خلال هذه المدة من التنقل والرحلات وعن كل ما يحول دون هذا العمل ويصرفه عنه إلا إذا اضطر إلى ذلك، وكان يستوحش دائماً من الرحلات ولا يستأنس بها، فأصبح نفسه خلال أيام تأليف «بذل المجهود» كأنه مكبّل بالقيود وحدث له أكثر من مرة أن الشيخ خليل أحمد قد أخذه معه في سفر على رغبة ملحة من بعض شيوخه، فقال له الشيخ في الطريق حين وجد فرصة: لو رافقتك في هذه الرحلة تتأخر عملية تصحيح تجارب «بذل المجهود»، فائذن لي بالعودة من الطريق، فأذِن له الشيخ خليل أحمد بالعودة بغاية من السرور، وانصرف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من محطة قريبة.

لما بدأت مرحلة طباعة كتاب «بذل المجهود» نظمت طباعته أولاً في مدينة «ميرته» ثم تولت مطبعة الشيخ شبير علي في مديرية «تهانة بهون» أمر إصداره، وكان من عادة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يذهب إلى «تهانة بهون» مساء كل خميس، ويعود في صباح السبت وكان يقوم بهذه الرحلة مرة في الأسبوع، وإذا رأى المطبعة لا تغلق يوم الأحد يمكث هناك إلى يوم

الأحد، واستمرت هذه العادة إلى مدة طويلة، ثم عادت مسؤولية طباعة هذا الكتاب إلى مطبعة من مطابع دلهي، تسمى بمطبعة هندية، فأخذ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يتوجه إلى دلهي مرة في الأسبوع حسب عادته، وكان يسافر إلى دلهي ليلة الجمعة بالقطار الذي كان يغادر في الساعة الثانية عشرة ليلاً، كان يشتغل بأعماله إلى الساعة الثانية عشرة، ثم يمشي وحيداً إلى المحطة راجلاً، ومما يدل على اهتمامه بهذا العمل أنه ينام وتجارب «بذل المجهود» على صدره، ويتجه من محطة «دلهي» إلى المطبعة مباشرة، ثم يعود إلى بيت رشيد أحمد، حين تغلق المطبعة في المساء، ويغادر «دلهي» في اليوم التالي ليلة الأحد، ويصل إلى «سهارنفور» في الساعة الواحدة ظهراً وتواصلت هذه السلسلة نحو ثلاث سنوات، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نفسه:

كانت المطبعة الهندية تغلق يوم الأحد على العادة لكن صاحب المطبعة وهو رجل من الهنادك يهتم بأمري أكثر مما ينبغي حتى بلغ به اهتمامه أن شغل آلات الطباعة في العطلة الأسبوعية في بعض الأحيان، نظراً إلى أهمية العمل، ويعطي العاملين يوم الأحد أجرة إضافية، فأعود يوم الإثنين بدلاً من يوم الأحد، إذا اقتضى الأمر لذلك، وقد وفقني الله ﷻ أن أقوم بنقل «شمائل الترمذي» إلى الأردية خلال إقامتي بـ «دهلي»، فكنت كلما ذهبت إلى دلهي آخذ هذه الأوراق من دكان الشيخ رشيد الذي كان على مقربة من المحطة، وأنقل صفحة أو صفحتين إلى الأردية فيما بقي من الوقت بعد تصحيح المسودات، وعندما أردت أن أعود أضع هذه الأوراق في محلها من دكانه وأنصرف وهكذا تم تأليف هذا الكتاب أثناء السفر إلا أنني أضفت إليه إضافات عندما راجعته لدى إخراجه.

◌ زواجه الأول:

أصيبت والدة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالحمى إثر حادث وفاة زوجها الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، ولم يزل يشتد عليها المرض حتى تحولت إلى حمى السل، وكانت لم تزل تبدي رغبتها في زواج ابنها الشيخ

محمد زكريا الكاندهلوي منذ وفاة زوجها، وقالت للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: إنه قد حان وقت وفاتي، وأنا أحب أن أرى بيتك عامراً، وكان من المقرر أن يتم زواج الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من بنت الشيخ رؤوف الحسن، فأبدت رغبتها هذه للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، فكتب إلى الشيخ رؤوف الحسن في «كاندهلة»: إني أرى أن يعقد قران محمد زكريا في أقرب وقت، فأبدى الشيخ رؤوف الحسن موافقته على ذلك، امتثالاً له وقال: أنا مستعد لذلك في أي وقت تختارونه وأي يوم تحددونه متى شئتم، فذهب الشيخ خليل أحمد السهارنفوري إلى «كاندهلة» مع عدد من أهل أسرته، فاقترح الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعدما عقد قرانه أن «كاندهلة» هي موطني فلا أحتاج إلى أن أذهب بزوجتي منها فأمكث هنا يومين أو ثلاثة أيام، ثم أتوجه إلى «سهارنفور» فأعجب أهل كاندهلة بهذا القرار، إعجاباً كبيراً، لكن حينما بلغ الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ذلك قال: إنني جئت كأب له، ولذلك الأمر بيدي، فتم زفافها في اليوم التالي، وانتقلت العروس مع هؤلاء الرجال إلى «سهارنفور» وتوفيت والدة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في (٢٧ رمضان ١٣٣٥هـ) وصلى الشيخ خليل أحمد السهارنفوري عليها.

زواجه الثاني:

توفيت زوجته الأولى في (٥ ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ، الموافق سنة ١٩٣٧م) وكانت بنت الشيخ رؤوف الحسن، وترك هذا الحادث في نفسه أثراً بالغاً، وعكف على الدراسة والتأليف وانقطع إليهما بهدوء، ولم يكن في قلبه فكرة للزواج الثاني، لكن عمه المشفق الشيخ محمد إلياس لم يرض له بذلك، وكان يرغب الكبار من أهل أسرته في أن يتم له الزواج وتعود إلى بيته الحركة والنشاط، فلم يمض أربعة أشهر على وفاة زوجته إلا وقد عقد له القران على بنت الشيخ محمد إلياس وأخت الشيخ محمد يوسف التي تسمى بعطية في (٨ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ، الموافق ٧ يوليو ١٩٣٧م) في حي «نظام الدين» بمحضر من المربي الكبير الشيخ عبد القادر الرائي بوري (م١٩٦٢م) وتلقى العالم

الرباني الشيخ السيد حسين أحمد المدني (م١٩٥٧م) هذا النبأ في محطة «سهارنفور» بسكة الحديد، فتوجه إلى دلهي، وتولى عقد النكاح في المسجد بعد صلاة الجمعة.

◘ الحج الأول:

في سنة (١٣٣٨هـ) عزم الشيخ خليل أحمد السهارنفوري على أداء الحج والعمرة مرة أخرى، ولا يذكر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن الحج كان قد فرض عليه أم لا، لكن الحنين إلى زيارة بيت الله الحرام، والحرص على صحبة الشيخ مما دفعه إلى أن يرافقه في هذه الرحلة، وكان هذا الحج الحج الأول للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، فغادر في يوم من أيام شهر شعبان (١٣٣٨هـ)، وأعلن الشيخ خليل أحمد حين وصل إلى «مومباي» أن كل رجل يسمح له بأن يتناول الطعام مع من يألفه ويستأنس به، فشارك الشيخ محمد زكريا الشيخ خليل أحمد في طعامه بإذن من الشيخ مقبول الذي كان منظماً لأمور الشيخ خليل أحمد، وسلم الشيخ محمد زكريا كل ما كان لديه من مال لنفقات السفر إلى الشيخ مقبول، وأقبل شهر رمضان وهم في السفينة، فنظمت صلاة التراويح في السفينة وكان الشيخ محمد زكريا والشيخ خليل أحمد كلاهما يؤمان صلاة التراويح بالتناوب، ولما حضرا مكة المكرمة أشار عليهم الشيخ محب الدين[1] بالعودة إلى الهند على عجل، وقال: ستحدث القيامة هنا.

كان من عادة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في رمضان أنه يذهب كل يوم إلى «التنعيم» مع بعض زملائه بأردية الإحرام مشياً على الأقدام بعد الفراغ من صلاة التراويح، ويعتمر ويقضي الليلة كلها في هذا العمل المبارك، وكانت «الحجاز» في تلك الفترة مسرح اضطراب، وكان الركب يتعرض لحوادث النهب والسلب، ويواجه الحجاج أخطاراً كبيرة وآلاماً جسيمة في طريقهم إلى

---

(١) من مسترشدي الحاج إمداد الله، وكان يشير إلى حدوث اضطرابات شريف حسين وخطة غزو أهل نجد.

المدينة، ولما أقبل شهر شوال قال الشيخ خليل أحمد: إنني زرت المدينة عدة مرات ولست أدري هل تتاح لكم الفرصة لزيارتها في الأيام المقبلة، فعليكم أن تنتهزوا هذه الفرصة التي سنحت لكم وتزوروها، وأمر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على الركب بقوله: «الأئمة من قريش».

ووصلنا إلى المدينة المنورة بسلامة وطمأنينة بفضل من الله وتأييده، ورأينا المرافقين في هذه الرحلة والحمال العرب قد ألفوا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وأنسوا به، وخدموه ما استطاعوا، وكنا قد قررنا أن نمكث في المدينة ثلاثة أيام، ولكن امتدت الإقامة، وبقينا هناك شهراً كاملاً، وكانت تفرض عقوبة مالية على من يطيل الإقامة أكثر من الأيام المحددة تبلغ جنيهاً لكل يوم، لكن لم تفرض علينا أي غرامة، رغم إطالتنا الإقامة، ومن غريب الأمر أن حاكم المدينة قد اعتذر إلينا.

○ نسخ مصنف عبد الرزاق في أسبوعين:

خلال زيارتنا هذه للمدينة المنورة وجد الشيخ خليل أحمد نسخة خطية «لمصنف عبد الرزاق»، عند علي جان، فأراد أن يشتريها منه لمدرسة «مظاهر العلوم» وكان سعره غالياً فلم يتمكن من شراء هذا الكتاب لغلائه، فقال له الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حين رأى رغبته في شراء هذا الكتاب: لو يسمح لنا بنقل هذا الكتاب لحاولنا ذلك، ولعلنا ننجز هذا العمل قبل أن نغادر المدينة، فقال له الشيخ خليل أحمد السهارنفوري: قد بقي على العودة عدة أيام، ولا سبيل إلى نقل هذا الكتاب في هذه الفترة القصيرة، فقلت له: لا حرج في المحاولة، فأمره الشيخ خليل أحمد بنقل هذه النسخة الخطية، وقد كان يظن أنه لا يمكن نقل هذا الكتاب الضخم خلال هذه المدة التي لا تزيد على عشرة أيام، فأخذ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تلك النسخة الخطية معه إلى مقر إقامته، وتولى نقل أكبر جزء منها، ووزع ما بقي منها بين زملائه الذين كانوا يرافقونه في هذه الرحلة، فكان زملاؤه ينقلونه مجتمعين من الصباح الباكر إلى الظهر، وأما الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي فينقله من العصر إلى

المغرب وهكذا انتهى من هذا العمل في أقل من خمسة عشر يوماً، وجمعنا أوراق هذا الكتاب وقمنا بتجليده قبل العودة بيوم أو يومين، ورددناه إلى صاحبه.

لا يستطيع أحد أن يقدر مدى السرور الذي غمر الشيخ خليل أحمد بعلو همة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وحبه البالغ وجهده الكبير وتضحيته براحته وأشغاله في سبيل تحقيق رغبته، وكيف دعا له من أعماق قلبه، عاد الجميع إلى «سهارنفور» في شهر محرم (١٣٣٩هـ).

◌ الشيخ محمد زكريا في محن:

واجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من أول يومه محناً تزل بها أقدام الجِلاد من الرجال، وتتحرك بها الجبال الراسيات، لكن احتملها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بكل هدوء وأناة، وبقي صابراً محتسباً.

إن الثبات في مثل هذه المحن والصمود أمامها يقرر مصير صاحبها في بعض الأحيان، وتأتي بنتائج بعيدة المدى، وقد يكون حادث بسيط يقع في حياة الإنسان، بمثابة نقطة تحول في حياته الحد الفاصل ويفتح له أبواب الرقي والسعادة والخير والبركة.

بعد حادث وفاة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي بثلاثة أيام قال له الشيخ عبد القادر الرائي فوري الذي كان يعرف أن الشيخ محمد يحيى كان عليه دين كبير، وخلف مكتبة صغيرة، وقد تمضي أيام ولم يأت إليها أحد من الزبائن، وعادت إلى هذا اليتيم الحديث السن مسؤولية كفالة أمه وأخته، فقال له: إن هذه الأمور تحتاج إلى جهد كبير وخبرة طويلة، وإنك طفل صغير حديث عهد بالتجارة، وللشيخ عاشق إلٰهي مكتبة وله خبرة طويلة في هذا المجال، فعليك أن تنتقل بمكتبتك إلى «ميرته»، وتديرها تحت إشرافه، وتتمكن بعد ذلك من أداء دين أبيك، وإعالة أمك وأختك بسهولة.

◆ الحج الثاني بصحبة شيخه وقضية راتب المدرسة:

اعتزم الشيخ خليل أحمد السهارنفوري أن يتوجه إلى الحجاز للحج والعمرة سنة (١٣٤٤هـ) وكلّف الحافظ عبد اللطيف بأن يشرف على الشؤون الإدارية للمدرسة خلال فترة غيابه عن المدرسة، وكذلك وكل إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أمر الإشراف على الشؤون الدراسية في هذه الحقبة من الزمن، ومن المسؤوليات التي كانت تعود إلى رئيس هيئة التدريس أن يشارك في الحفلات الدينية والدعوية والإصلاحية التي تعقد في مدن مختلفة إذا وجه إليه الدعوة، وبالإضافة إلى ذلك كان عليه أن يحضر الحفلات الشتوية التي تقام في المدارس التي تقع في تلك المنقطة في نهاية السنة، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يستوحش من الرحلات ويبتعد عنها كل البعد، فلما بلغه أن الشيخ خليل أحمد السهارنفوري اختاره لرياسة التدريس أصابه هم وقلق لجلالة هذا المنصب، ومقتضياته، فقال للشيخ خليل أحمد السهارنفوري: كيف يمكن أن أساعدك في إعداد «بذل المجهود» بعد هذه المسؤولية الجسيمة؟ فأجاب: نعم، أنا أيضاً أفكر في هذا الأمر، فقلت: أنا لا أريد إلا أن أرافقك في هذه الرحلة، فقال: كيف تتحمل نفقات السفر؟ فقلت: أقترض لذلك، فقال: أظن أنك لم تأخذ رواتبك منذ عدة شهور، فقلت: لا أستحق ذلك؛ لأنني قد تنازلت عن راتبي، فقال: لا بد من فسخ العقد أن يكون من الطرفين، وأنا أوافقك على هذا الاقتراح، فتم إلغاؤه لعدم الوفاء بالشروط.

هكذا استلم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رواتب لم يأخذها منذ عشرة شهور، وكان قدرها (١٩٤٠ أو ١٩٤٢ روبية) وتمكن بذلك من القيام بالرحلة إلى الحجاز، لكنه أرسل إلى المدرسة رسالة أوصى فيها الشيخ نصير الدين بأن يدفع ألف روبية بالأقساط، إلى المدرسة من دخل مكتبته إلى أن يعود، فعمل الشيخ نصير الدين بهذه الوصية بجانب ما أضيف إليه من نقود فيما بعد، وكان يبلغ (٢٧١٧ روبية) بعد عودته.

وليس من الصعب أن نقدر تلك السعادة التي نالها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وقد امتلأ قلبه بحب شيخه، وكان لا يجد اللذة والمتعة إلا في

خدمته، ولم يكن له هدف إلا أن يساعده ويخدمه ويستفيد منه من خلال هذه الرحلة التي أتاحت له فرصة ليرافق أستاذه في كل آن وفي كل مكان.

لم يلتفت الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي خلال إقامته بالمدينة المنورة إلى أي أمر دون إعانته شيخه في تأليف «بذل المجهود»، وقد منعه اشتغاله بتأليف هذا الكتاب عن زيارة الأماكن المقدسة، فلم يزر إلا المسجد النبوي و«البقيع» فترة إقامته بالمدينة، وبالإضافة إلى اشتغاله بتأليف «بذل المجهود» راح يكتب شرحاً على كتاب «الموطأ» الشهير لإمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس، وقد تم طبع هذا الكتاب بعنوان «أوجز المسالك» في ستة مجلدات[١] فيما بعد، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يعتبر إتمام كل ما وكل إليه الشيخ خليل أحمد السهارنفوري من أمرٍ من نقل كتاب أو القيام بعمل علمي آخر خلال إقامته بمكة المكرمة وظيفة له ووسيلة لرقيه ونجاحه.

◘ الاستئذان والمغادرة:

كان الشيخ خليل أحمد السهارنفوري توجه إلى المدينة المنورة ليقيم بها بشكل دائم، وكان لا ينوي العودة منها، ولا يعرف ذلك إلا أخص رفقائه، ويقولون: إنك قد جئت هنا لتدفن في مقبرة «البقيع»، لكن الحفاظ على المدرسة والإشراف فيها وصيانتها من الفتن التي يشهدها ذلك العصر ومواصلة النشاطات الدعوية والاستمرار في أعمال التوجيه والتربية التي تتعلق بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تدعوه للعودة إلى الهند، وبذل الشيخ حسين أحمد المدني جهداً بالغاً في إقناع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بأن ينضم إلى هيئة التدريس في المدرسة الشرعية بالمدينة المنورة، وألح عليه كثيراً حتى أرسل إلى الشيخ محمد إلياس تكاليف السفر ليوصل زملاءَه إلى المدينة المنورة، لكنه لم يوافق الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، على ذلك نظراً إلى أهمية

---

(١) ثم طبع هذا الكتاب في سنة (١٩٧٣م) في القاهرة في خمسة عشر مجلداً، فوقعت فيه أخطاء، فقام تلميذه الدكتور تقي الدين الندوي بتصحيح الأخطاء فطبع في ١٨ مجلداً في ثوب قشيب، فجزاه الله خيراً.



مدرسة مظاهر علوم، بل كتب إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يشغل بعض رياسة التدريس بالإضافة إلى منصب نائب رئيس المدرسة، ولكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد اعتذر عن ذلك، وحتى أحيل الأمر إلى الشيخ عبد القادر الرائي فوري، فرفع عنه مسؤولية إدارة المدرسة، لكنه كتب بخط يده رسالة أمره فيها بأن يشغل منصب الحديث، ووضع تلك الرسالة في كتاب يدرسه ليقع عليها نظره.

أذن له الشيخ خليل أحمد السهارنفوري بالبيعة والإرشاد في الطرق الأربعة قبل أن يودعه من المدينة المنورة، وأبدى له اهتماماً بالغاً، فنزع عن رأسه العمامة وطلب من الشيخ حسين أحمد المدني أن يلف بها رأسه، فعندما وضعت تلك العمامة على رأسه لم يتمالك الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نفسه وأجهش بالبكاء، وذرفت عينا الشيخ خليل أحمد السهارنفوري حبّاً له وعطفاً عليه.



الباب الرابع

إقامته الدائمة بمدينة سهارنفور وانقطاعه إلى التدريس والتأليف، واشتغاله بالإرشاد والتوجيه، ورحلاته للحج والعمرة، وأحداث مهمة أخرى وقعت في حياته

عودته من الحجاز:

عكف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على أعمال التدريس والتأليف بعد عودته من الحجاز، وعادت إليه وظيفة تدريس «سنن أبي داود»، وكان يمتاز في تدريس هذا الكتاب القيم لمشاركته في تأليف «بذل المجهود» وعناية الشيخ خليل أحمد السهارنفوري به عناية فائقة، وكان يتواصل بتأليف «أوجز المسالك»، وكان يشتغل بنشر الأمالي والدراسات التي قيدها أبوه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي أثناء تدريس الشيخ المحدث الكنكوهي الأمهات الست، وكان يقوم بتأليف كتيبات دعوية دينية تربوية بتوجيه مشايخه، وكان في مقدمتهم عمه الشيخ محمد إلياس رحمه الله.

وبالإضافة إلى هذه الأعمال التأليفية والتدريبية كانت له مشاركة فعالة في إدارة المدرسة، وكان يساعد الشيخ عبد اللطيف [مدير مدرسة مظاهر علوم] في إدارة شؤون المدرسة مساعدة تامة، وكان يرجع إليه في القضايا المستعصية التي تقتضي دراسة وبحثاً، وفي كثير من الأحيان يكون رأيه ومشورته حكماً فيها عند الجميع، وكثيراً ما يتردد إليه كبار المشايخ من أمثال الشيخ حسين أحمد المدني والشيخ عبد القادر الرائي فوري، والشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والشيخ عاشق إلٰهي الميرتي، والحافظ فخر الدين باني بتي، والشاه محمد ياسين نغينوي، وكلهم يضع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي موضع ثقته وحبه وتقديره ويستشيره لما يتمتع به من

الاعتدال في الرأي، والاتزان في الفكر والجامعية والشمول.

وكان مقره يشهد حشداً كبيراً من الضيوف في تلك الآونة، وكان ذلك نتيجة طبيعية لذيوع صيته وإقبال الناس عليه، ولم يزل يزداد عدد القادمين إليه، فيقوم بتهيئة الطعام وتوفير وسائل الراحة للجميع بسرور بالغ، ولم تكف أشغاله يوماً فيوماً حتى صار ذلك ميزة تبعث كثيراً من الناس على الدهشة والاستغراب.

عادت إليه مسؤولية إدارة المدرسة بعدما توفي الحافظ عبد اللطيف، وكان مديراً لهذه المدرسة، ومخلصاً لها، وخبيراً بأمورها، وإن الشيخ أسعد الله رئيس هيئة التدريس السابق خير خلف لمشايخ المدرسة الأقدمين لعلمه وفضله وخلقه وورعه، وزهده وكرمه، وكان بقاؤه في المدرسة نعمة كبيرة، لكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كان يضطر ليعطي المدرسة وقتاً من أوقاته الثمينة للقيام بأمورها الإدارية لإصابة الشيخ أسعد الله بأمراض مختلفة، وتعرضه لمعاذير متنوعة.

وفي الواقع كانت شخصية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي القوية وصلابة رأيه، وسداد فكره، وقوة تأثيره هي التي تضمن للمدرسة ازدهارها ورقيها.

وكان مما أنعم الله به عليه أن كل شيخ من شيوخ عصره حين يرحل عن هذا العالم المعمور يأمر مسترشديه وأتباعه باللجوء إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والارتباط به ليتلقوا منه تربية روحية، ومشورة وتوجيهاً، وإذا لم يصر منهم أمر بذلك ووافتهم المنية فيرجع مسترشدهم إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لما كانوا يرونه من الانسجام والثقة والصلة والاحترام بين الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومشايخهم.

أما الشيخ محمد إلياس رَحِمَهُ اللهُ فكان له صلة قرابة مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وكان من أسرته، ولكن الذي يدل على مكانة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في القلوب هو أن مسترشدي الشيخ عاشق إلٰهي والشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ عبد القادر الرائي فوري، والشيخ محمد يوسف قد ارتبطوا بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعدما توفي مشايخهم، واتخذوه مربياً روحيّاً وقائداً ومستشاراً ومرشداً لهم، وكانوا يتلقون من الأوامر بما ينبغي لهم في حياتهم من الأمور وما لا ينبغي لهم منها.

وكذلك أقبل أصحاب جماعة الدعوة والتبليغ إليه إقبالاً عظيماً ووضعوا أيديهم في يده، وأصبحوا تحت أمره، فوقعت عليه مسؤوليات جسيمة من مواصلة هذه النشاطات الدعوية وصيانتها من الأخطار والفتن والشرور التي كانت تنتشر في ذلك العصر، والاحتفاظ بنهجه ومبادئه والإشراف على القائمين عليه، وتربيتهم تربية روحية، وإدارة مركز نظام الدين ورعاية المسؤولين عنه، وبقدر توسع نطاق هذا العمل ازداد إقبال الناس على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وإذا توفي أحد من المشايخ تصعدت مسؤولياته، وكلما ازداد قدوم الجماعات من داخل البلاد وخارجها تضاعفت أشغاله واتسعت مائدته للضيوف الوافدين، وازداد هو نفسه تواضعاً، حتى إذا رأى أحدٌ ممن ورد عليه أول مرة أو كان حديث صلة به هذا العددَ الهائلَ من الضيوف وسعة المائدة التي تضم ألواناً من الأطعمة ظنَّ أنه شيء جديد حدث لأول مرة، أو هناك احتفال عظيم أقيم بمناسبة خاصة، أو هو استضافة فوق العادة رغم أن هذه الأمور كلها كانت تجري كالعادة، وتمضي على النهج القديم المألوف، ولا يختص بيوم دون يوم.

◘ الحج الثالث:

ذكرت فيما مضى أن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كان لا يستأنس بالسفر، وكان السفر عليه أشد ثقلاً، حتى كان يثقل عليه السفر إلى المناطق المجاورة كـ «ديوبند» و«الرائي بور»، فضلاً عن السفر إلى «دلهي»، وكثيراً ما حدث أنه أصيب بالحمى لمجرد نية السفر، وإذا اضطر في بعض الأحيان للقيام برحلة فيترك ذلك أثراً سيئاً على نفسه وعلى صحته وأعصابه أياماً طوالاً بعدما يعود، ففي هذه الحالة كانت الرحلة ـ مهما كانت مريحة وممتعة ـ تشكل محنة كبيرة بالنسبة إليه، وكانت الظروف تؤكد أن رحلة الحج التي قام بها سنة (١٣٤٤هـ) هي رحلته الأخيرة لهذه الأراضي المقدسة لامتناعه عن السفر، لكن شاء القدر فأراد الشيخ محمد يوسف رحمه الله أن يسافر إلى «الحجاز» للحج سنة (١٣٨٣هـ) مع مجموعة كبيرة من أصحابه ومسترشديه، وطلب من الشيخ محمد

زكريا الكاندهلوي أن يرافقه في هذه الرحلة، وألح عليه بذلك بغاية من الحب والإخلاص، فلم يستطع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يرفض طلبه، ويلجأ إلى الاعتذار عن السفر؛ لأن هذه الدعوة المملوءة بالحب والإخلاص، وجهت إليه من قبل من يحبه أكثر من سواه، ويؤثره حتى على نفسه، ثم كانت هذه الدعوة وجهت إليه لزيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، التي تتوق إليه كل نفس، ويضطرم شرر الهيام والغرام به في كل صدر، وكما قال الشاعر في اللغة الأردية بمعناه:

إن هـنـاك نـاراً تـعـلـوهـا رمـاد

فلم يكن للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بد من أن يستجيب لهذه الدعوة التي تلقاها من شيخه محمد يوسف رحمه الله، فانتشر هذا النبأ في كل من «باكستان» و«الهند» كتيار الكهرباء، وعرف الجميع أن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وافق على أن يرافق الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في رحلته إلى «الحجاز»، للحج والعمرة، فتهافت عليه الناس من كل مكان، وأراد أكثرهم أن ينتهزوا هذه الفرصة التي وفرها لهم القدر، فعقدوا العزم على أن يرافقوا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في هذه الرحلة المباركة، وكانت هذه الرحلة تاريخية، توجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مع الشيخ محمد يوسف في هذه الرحلة إلى «الطائف».

غادرت هذه القافلة مدينة «سهارنفور» في شهر ذي القعدة سنة (١٣٨٣هـ)، وعادت إليها خلال أربعة شهور عن طريق «باكستان»، في منتصف شهر ربيع الأول، ومكثت في مدينة «كراتشي»، و«سرغودها»، و«دهديان» يوماً أو يومين في العودة إلى «الهند»، واعتبر مسترشدوه من «باكستان» الذين كانوا يتمنون منذ عشرات السنين أن يسعدوا بزيارته ويتبركوا به، اعتبروا هذه الفرصة نعمة إلٰهية لأنه كان من الصعب على الشيخ محمد يوسف رحمه الله أن يرحل إلى «باكستان» رحلة مستقلة، لكن رحلته إلى «الحجاز» قد وفرت لهم هذه الفرصة التي لم تكن في حسبان أحد منهم، فتهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور، وإن الحنين إلى لقائه من جهة، وجاذبية شخصية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي من جهة أخرى، ساق آلافاً من الرجال إلى المحطات التي يمر بها القطار،

وكان الشيخ رغم كونه في عربة مكيفة في القطار ينزل عنها في كل محطة ليصافح القادمين من أماكن بعيدة، وقد امتلأت قلوبهم بالحب له والشوق إليه.

سفره إلى «دهديان»:

وكان الشيخ محمد يوسف رحمه الله يريد أن يقرأ الفاتحة على قبر الشيخ عبد القادر الرائي فوري، ويقضي بعض الوقت هناك، وكما ذكر في بعض مجالسه أنه سافر إلى «باكستان» خصيصاً لهذا الغرض، فلما وصل إلى «سرغودها» كان الحر شديداً، وكان الثلج يوضع على جانبيه بسبب شدة الحر، والمروحة تدور بصورة دائمة، وعرض عليه مسترشدوه مراراً أن يلغي رحلته إلى «دهديان»؛ لأنها قرية صغيرة ليس بها كهرباء، ولا يمكن أن يوفّر له ثلج هناك، لكن الشيخ لم يوافق على هذا الاقتراح، وكان من فضل الله عليه أنه لم يكد يصل إلى «دهديان» حتى تغير الجو إلى البرودة، وزال الحر، ولم يشعر بحاجة إلى الثلج، ولا إلى المروحة، بل احتاج في الليل أن يلقي على جسمه رداءً ليدفئه، وظل الجو رائقاً بهبوب الرياح الباردة طول إقامته، وكان يقول: إن الشيخ محمد يوسف رحمه الله كان يرغب في أن يسمع مني القرآن في حياته، وكانت رغبته ملحة، لكن لم تسنح له الفرصة لذلك، فاعتنيت نظراً لرغبته هذه بإتمام القرآن الكريم في هذا السفر، وكان من حسن حظي أنه قد بقي عندي رسالة وجهها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وأبدى فيها انطباعاته وعواطفه عن هذه الرحلة، وهي تكشف عن مزيد من تفاصيل هذه الرحلة وهي كما يلي:

بعد التحية المسنونة:

كنت وجهت إليك رسالة بعد وصولي إلى «كراتشي» في (٢٦ يوليو)، أرجو أنها قد وصلتك، تلقيت اليوم عبوة تشتمل على رسائل كانت قد وجهت إليّ بعدما غادرت إلى «كراتشي»، أرسلها إليّ الأخ سليم من «مكة المكرمة»، فإذا فيها رسالتك المؤرخة بسبع عشرة من محرم تحمل لي في الحب والحنان، أدعو الله أن يجعل ما تحسن بي من الظن وما تحمل لي في قلبك من الحب وسيلة للنجاح، والفوز في الدنيا والآخرة للطرفين كليهما.

وصلنا «لائل بور» يوم الثلاثاء في الساعة التاسعة بالقطار، بعدما مكثنا في «كراتشي» ثلاثة أيام ولم يدخر الإخوة وسعاً في توفير أسباب الراحة، كانوا قد حجزوا لنا المقاعد في العربة المكيفة من الدرجة الأولى، لكننا رغم هذه التسهيلات لم نتمكن من الاستجمام لأن كل محطة كان يمر بها القطار يتدفق إلينا الإخوة المحبون ويبلغ عددهم في بعض الأحيان خمسمئة رجل، ونحن نضطر في كل محطة للنزول عن القطار والوقوف على الباب لنقابل الناس والواردين فلم يغمض لي جفن في تلك الليلة.

كان قد اكتشف حين وصلت إلى مكة المكرمة أنني محدِّث، فأقبل إليَّ المشايخ والأساتذة من هذين البلدين ليأخذوا مني الإجازة في الحديث إقبالاً أعجزني عن الاعتذار إليهم بقلة بضاعتي في هذا العلم، وأتعبني ترديدي لكلمة «لعل وسوف» تعباً بالغاً، لكن دون جدوى، وكذلك عرفت لأول مرة من خلال هذه الزيارة لـ «باكستان» أنني مرشد، وقد حبسني جمع من الإخوة القادمين بحيث إنني اضطررت لسد أبواب غرفتي تخوفاً من الزحام وبقيت محتجزاً في الغرفة.

غادرت «لائل بور» إلى «سرغودها» يوم الأربعاء بعد صلاة العصر، ثم توجهنا من «سرغودها» إلى «دهديان» مساء الخميس، وكان الحر في «لائل بور» و«سرغودها» شديداً، وكان لا يقر لنا قرار، رغم الثلج الذي كان يوضع في الغرفة لتبريدها، ورغم عدد من المراوح الكهربائية، التي كانت تدور باستمرار، كان يقال: إن درجة الحرارة بلغت في «لائل بور» (١١٢ درجة)، بينما كانت بلغت في «سرغودها» (١٢٠ درجة)، ويخوفنا الجميع من «دهديان» وحرها، ويقول: إنه ليس هناك كهرباء ولا مروحة، ولا ثلج، فيصيبني القلق لما يقول الناس، لكن الشيخ عبد القادر الرائي بوري كان يهتم دائماً براحة هذا المذنب، فحدث اليوم نقيض ما يقولون، وتغير الطقس فجأة، وأصبحت «دهديان» منطقة باردة في النهار وقت الظهر، فاستمتعنا بها وشكرنا الله، وكنا قررنا أن نقيم بـ «دهديان» ثلاثة أيام، وذلك على رغبة ملحة من أهاليها، ولا يسع لنا أن نضيف إلى هذه المدة يوماً أو يومين.

وكانت هذه الأيام الثلاثة التي قضيناها في «دهديان» هي الأيام الأخيرة للشيخ عبد القادر الرائي بوري من زيارته لباكستان، كان يجتمع الرجال والنساء على الباب طول النهار مما يضطرنا إلى أن نغلق الباب، لكنهم كانوا لا يعودون رغم ذلك، وكان الأخ إسماعيل يحاول إقناعهم بالعودة إلى بيوتهم حتى ينصرف بعض منهم لكنهم سرعان ما يعودون، وكان قد وصل فضل أحمد إلى دهديان قبل عدة أيام، وكان الحافظ عبد الله قدم إلى دهديان صباح الجمعة وعاد في المساء، ثم توجه إليها صباح الأحد، وعاد معنا صباح الإثنين، وكان قد وصل عبد العزيز وشقيقه المفتي عبد الله، والسيد منظور والشيخ سعيد أحمد إلى دهديان حين تلقوا نبأ وصولنا إليها في كراتشي، وكان قد احتشد في دهديان عدد كبير من مسترشدي الشيخ عبد القادر بالإضافة إلى هؤلاء الإخوة.

وكان الاجتماع الذي كان من المقرر أن يعقد في رائي بور في شهر ديسمبر لم نتمكن من الحضور إليه، فوصلنا «راي وند» الليلة، ومن المقرر أن نغادرها إلى لاهور صباح الجمعة ونسافر من لاهور إلى دلهي بالطائرة، وأطلب منكم أن لا تقصدوا إلى دلهي؛ لأنه يتوقع أن يكون هناك زحام شديد ولا يمكن لنا في هذا الزحام أن نتقابل، وإن أردت أن تقابلني فعليك أن تشارك في اجتماع يعقد في ديوبند، فيلتقي بعضنا مع بعض هناك بهدوء وطمأنينة.

محمد زكريا
٧/ يوليو ١٩٦٤م
بندي (باكستان)

◘ الحج الرابع:

مضت سنة بعدما توفي الشيخ محمد يوسف دون أن يتوجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «الحجاز» لأداء مناسك الحج والعمرة، وفي سنة (١٣٨٦هـ) تلقى دعوات متتابعة من العاملين في مجال الدعوة والمسؤولين عن جماعة الدعوة في الحجاز، أن عمل الدعوة يحتاج أن يسافر خليفة الشيخ

محمد يوسف، والمسؤول الحالي عن جماعة الدعوة والتبليغ إلى «الحجاز» في موسم الحج؛ لأن ذلك يساعد على توسيع نطاق العمل في الدول الخارجية، وتنال به الدعوة قوة جديدة، وترسخ جذورها وتتكثف جهود العاملين فيها، ويتم تصديرها من هذه الأرض المباركة إلى المناطق النائية مصحوبة بالحجاج الوافدين، وذلك لا يمكن من داخل الهند، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح بعد دراسة طويلة، واستعراض دقيق للأوضاع، ومصلحة المشتغلين بالدعوة، وبعد استشارة من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والحصول على تأييده.

وكانت هذه الرحلة هي الرحلة الأولى للحج التي يقوم بها الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي بعدما توفي الشيخ محمد يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يتوقع أن يجتمع بهذه المناسبة عدد كبير من العاملين في مجال الدعوة والمسؤولين عنها والمعنيين بها، من باكستان والهند ودول إسلامية أخرى، بالإضافة إلى عدد ضخم من العلماء والمثقفين.

وكان من الطبيعي أن يستولي على الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي الشعور بالوحدة نظراً لأهمية هذا العمل الدعوي وخطورته وشموله، فأبدى رغبته للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يرافقه في هذه الرحلة المباركة؛ لأن صحبته تسبب له قوة وتدخل إلى قلبه طمأنينة.

وفي جانب آخر تتواصل إليه الرسائل من الزملاء في الدعوة في «الحجاز» تلح عليه بأن يأخذ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي معه إلى الحجاز؛ لأنهم كانوا يرون أن هذه الرحلة هي التي تتيح لهم فرصة اللقاء مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، فيستفيدوا من علمه وينالوا من بركاته.

كان قد تقرر في البداية في مدينة «سهارنفور» أن لا يتوجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «الحجاز» وذلك ليتولى الإشراف على أمور جماعة الدعوة والتبليغ في فترة غياب أميرها الجديد الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، ويملأ ذلك الفراغ الذي سيقع بمغادرته البلاد، وأخبر الجميع بذلك.

لكن بقدر ما يقترب موعد مغادرة الشيخ محمد إنعام الحسن إلى الحجاز، ينتشر نبأ رحلة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «الحجاز» في

أنحاء البلاد كلها، وتتدفق إليه الرسائل التي تستفسره عن ذلك، وترِد الأنباء بقدوم الزوار والمودعين إلى «مومباي»، و«دلهي» في اليوم الذي تم تحديده للمغادرة، وأخيراً توجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «دلهي» في (١٩ من شهر فبراير سنة ١٩٦٧م)، ولم يكن من المقرر رحلته إلى «الحجاز» حتى الآن، ينتشر الخبر حيناً بمغادرته وحيناً آخر بعدم مغادرته، وقد وصلت أنا والشيخ محمد منظور النعماني والشيخ معين الله الندوي إلى دلهي في (٢٠ من فبراير) لتوديعه، فطلبنا الشيخ على الفور، وأمر بالخلوة، فبقي عنده نحن الثلاثة، أنا والشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي والشيخ محمد منظور النعماني، فأبدى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تردده في هذه الرحلة، وصراعه النفسي في هذا الأمر، وذكر بعض الإشارات الغيبية والمبشرات، وطول انتظار الأصدقاء والزملاء، وحنينهم إلى اللقاء، ودواعي الرحلة، ثم ذكر مقابل ذلك تلك الأمور التي تدعوه لإقامته بالبلاد، وطلب منا جميعاً أن ندلي برأي في هذا الأمر، فآثرنا الإقامة على المغادرة وذكرنا ما فيها من المصالح، لكن لم يستقر الرأي على أحد من الأمرين حتى جاء المساء.

وكان من باب الصدف أن زاره في الليل سعادة السفير السعودي محمد أحمد الشبيلي، ودار الحديث حول هذه الرحلة، وبدا ميل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى السفر، فقدرنا أن الرحلة إلى الحجاز قد تقررت.

وكان لا يزال يرتفع عدد الذين جاؤوا للقائه وتوديعه، رغم أنهم كانوا يواجهون صعوبات بالغة في الوصول إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والتنقُّل من مكان إلى مكان في حي نظام الدين، لكثرة الزوار والمودعين، وكان الدور الأرضي والأول يمتلئان بالمودعين، ومما يدل على ارتفاع هذا العدد من المودعين، أن بعضهم تمكنوا من تناول العشاء وقت الفجر، رغم أن السفرة كانت قد بسطت بعد صلاة العشاء مباشرة، ويقدر أن العدد قد تجاوز المئات.

توجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى المطار في الصباح الباكر، وكان كثير من الناس يخشون عدم عودته من الحجاز، فتدفق الناس إلى المطار

لتوديعه، وطلب منه عدد من مسترشديه أن يعود إلى الهند للأوضاع التي يعاني منها المسلمون في الهند، وحاجة البلاد إلى مثل هذه الشخصية، وأعربوا عن رغبتهم في عودته إلى البلاد، غادر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى مومباي في الساعة التاسعة صباحاً، وأقام بها يومين (٢١ ـ ٢٢)، وكانت إقامته في هذه المرة بالمدرسة الرحمانية الواقعة بمدن فورة، ثم سافر إلى جدة في الثالث والعشرين، وكان في استقباله على مطار «جدة» سعادة السفير مدحت كامل القدوائي، وذهب به إلى منزله، وتناول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الطعام في بيته، ثم غادر إلى مكة المكرمة وكان مرافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد شميم [مدير المدرسة الصولتية بمكة المكرمة]، وأقام في المدرسة الصولتية على عادته. أذكر هنا جدول الأعمال نقلاً عن رسالة مهمة:

«كانت صحة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي جيدة في الرحلة التي سبقت هذه الرحلة بالنسبة للرحلات الأخرى، وكانت السيارات متاحة في كل وقت، لتواجد الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في «مكة المكرمة»، مما سهل له الذهاب إلى الحرم لأداء صلاة الفجر، وإذا تأخر يوماً بسبب ما، فيصلي في مسجد المدرسة، ثم يذهب إلى الحرم على الفور؛ لأنه كان من المقرر أن يلقي الشيخ محمد يوسف كلمة بعد صلاة الفجر، وكانت كلمته تستغرق ثلاث ساعات، فيذهب معه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الحرم، ويستمع لكلمته، ثم يعودان إلى مقرهما، ويكون الشاي جاهزاً فيحضر لهما فور وصولهما ويتناوله الجميع، ويستمر هذا العمل نحو ساعة، وكان الشيخ محمد يوسف يراقب الحضور بأسرهم أشد المراقبة أثناء تناول الشاي، وكان هذا الوقت أيضاً لا يخلو من الفائدة.

ففي هذا العام تولى مسؤولية إلقاء الكلمة الصباحية الشيخ محمد عمر البالن فوري، والشيخ سعيد أحمد خان، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يصلي صلاة الفجر في مسجد «المدرسة الصولتية» لمعاناته من المرض والضعف، وعدم توفر المراكب، ثم تقام حلقة الذكر في مقره، ويحضرها عدد كبير من الهنود والباكستانيين.

ويجدر بالذكر أن هذه الحلقات لم تقم في الرحلة الأولى، ثم يشرب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الشاي في الساعة الواحدة، حسب التوقيت المحلي، وكان الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، والشيخ هارون يستريحان في غرفة مجاورة إلى هذه الساعة، ويقدم الشاي إليهما في غرفتهما، ثم يدخلان هما وغيرهما من أعيان الدعوة، كالشيخ محمد عمر البالن فوري، إلى غرفة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ويجري النقاش حول قضايا دعوية وتربوية وتعليمية مختلفة، ويستمر ذلك إلى الساعة الثانية، وخصص الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ما بين الثالثة والخامسة للاجتماع بالزوار، والحديث معهم، وخلال هذه الساعات تعقد جلسات خاصة بالحجاج في مسجد «المدرسة الصولتية».

سيجتمع اليوم في مسجد المدرسة الحجاج الذين قدموا من باكستان والهند، وغداً سيعقد اجتماع للحجاج القادمين من أفغانستان، وكانت قد أقيمت قبل ذلك جلسات مختلفة للجزائريين، وغيرهم من مواطني البلدان الإسلامية، ويشارك الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في هذه الجلسات، ولو لوقت قصير، ويحضرها الشيخ محمد إنعام الحسن الكاندهلوي. وفي هذا الوقت تقام حلقة للتعليم لهؤلاء الرجال في الغرفة الملاصقة.

كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يعاني من تدهور صحته منذ أيام، وقد أصيب بالحمى بعد قدومه إلى هنا، وقد داهمه أيضاً مرض كثرة البول، لعله يرجع ذلك إلى شرب ماء زمزم؛ لأنه كان يكثر من شربه، ولم يشرب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي طيلة إقامته بمكة المكرمة غير ماء زمزم، إلا ماء الثلج، وكانت صلاة الظهر تقام في الساعة السادسة والنصف، ويستريح الشيخ بعد تناول الغداء إلى صلاة العصر، ويستغرق الغداء عادة نحو ساعة، لكنه يتأخر في القيلولة في الأيام التي تقام له فيها مأدبة، وكان لا يضطر للذهاب إلى مكان لتناول الطعام؛ لأن المأدبة تقام له في مقر إقامته، ويحضر له الطعام، وتقام صلاة العصر في الساعة التاسعة، وكان قد بدأ الشيخ يشرب القهوة بعد ذلك، لكن شرب القهوة أدى إلى إصابته بالأرق، فجعل يتناول الشاي الأخضر، بدلاً من القهوة، ويزوره الناس خلال هذه الفترة، وكان

الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يستعد للذهاب إلى الحرم من الساعة الحادية عشرة، ويتوجه إلى الحرم في الساعة الحادية عشرة والنصف، ويبقى هناك إلى الساعة الثانية والنصف، وخلال ذلك تعقد الجلسات العامة، واللقاءات الخاصة، وتقام حلقات مختلفة للناطقين بالعربية والناطقين بالأردية كذلك، وبالإضافة إلى ذلك تنظم حلقات للناطقين بلغات مختلفة من التركية والأفغانية والإنجليزية وغيرها من لغات العالم، ويجلس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في زاوية لما يشكوه من كثرة البول، ويعود الجميع في الساعة الثانية ويتناولون الغداء، ويكتفي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بتناول شيء من الفواكه، وفي الساعة الرابعة يتوجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مع رفقائه إلى الحرم مرة ثانية، ويطوف على كرسي المعوقين ثلاثاً أو أربعاً لعجزه ونقاهته، ويعود من الحرم في الساعة السادسة، ويستريح في الساعة العاشرة، ويؤذن لصلاة التهجد، وتقام صلاة الفجر في الساعة الحادية عشرة.

◘ رجوعه إلى الهند:

غادر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعد أيام الحج إلى المدينة المنورة بعدما أقام بمكة المكرمة ما أقام، ثم عاد من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة في (٢٢ من شهر أبريل)، ومكث هناك يومين، ثم توجه إلى «جدة»، وفي السادس والعشرين غادر إلى «كراتشي»، ومن هناك إلى «دلهي» بعد يومين، وكان في استقباله على مطار «دلهي» حشد كبير، وأقام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بدلهي يومي الجمعة والسبت، وفي (٣٠ من شهر أبريل) في الساعة العاشرة، توجه إلى مدينة «سهارنفور»، وتوضأ في بيته ثم ذهب إلى المسجد، وصلى ركعتين، ثم صافح الجميع، وكان لم يصافح أحداً من أقاربه ومسترشديه قبل الصلاة، وفي هذا الوقت أعلن بالدعاء بعد صلاة العصر، ودعا الشيخ إنعام الحسن في مسجد السكن الجديد للطلبة، وشارك فيه عدد كبير من أهالي المدينة وما جاورها من القرى والأرياف، وفي يوم الإثنين توجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى كنكوه مع بعض رفقائه بعد الفطور،

وعاد من هناك وقت الغداء، وانصرف الشيخ إنعام الحسن بعد صلاة الظهر إلى حي نظام الدين، وجلس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يدرس «الجامع الصحيح» للبخاري حسب القاعدة.

● جدول أعمال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

كانت حياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في هذا القرن العشرين تُشْبِهُ في العكوف على الدراسة، والانقطاع التام إلى العلم، وتقديم المعونة للآخرين، وخدمة ذوي الحاجة، والاشتغال بالأعمال الصالحة، حياةَ الذين وهبوا كل لحظة من لحظات حياتهم للعبادة، والخدمة، ونشر العلم والدين، ويقف الرجل حائراً أمام كدحهم وجهدهم، وعلو همتهم، وجامعيتهم، حين ينظر إلى مآثرهم وأمجادهم، ولا يمكن لرجل أن يعلل ذلك إلا بأن كل ذلك يرجع إلى تأييد من الله والقوة الروحية التي كان يتمتع بها هؤلاء الرجال.

كان من عادة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يتوجه إلى بيته بعد صلاة الفجر بقليل، ويشرب هناك الشاي مع عدد كبير من الزوار، ولا يقل عددهم عن الخمسين أو الستين، ويرتفع هذا العدد في بعض الأيام ارتفاعاً بالغاً، وكان عدد منهم يتناول الفطور ولكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لا يتناول شيئاً في ذلك الوقت إلا الشاي، وإذا كان عنده ضيف أو قريب من الأقارب أو رجل جاء إلى سهارنفور لوقت قصير، أو حضر أحد إليه ليتحدث معه في أمر مهم، فيخلو الشيخ به، ويجلس خلافاً للعادة، ثم يصعد إلى سطح البيت، ويجلس في غرفة صغيرة ويشتغل بأموره من الدراسة والتأليف، ولا يحول بينه وبين اشتغاله بهذه الأمور أي شيء، لا الشتاء، ولا الصيف، ولا الأمطار، ولا وقوع الأحداث، ولا قدوم الضيوف، إلا نادراً.

قال الشيخ نفسه: إنني تركت مرة ما تعودت عليه من الاشتغال بأعمال التأليف بمناسبة قدوم الشيخ عبد القادر الرائي فوري، أو من يماثله من العلماء والمشايخ، تقديراً لهم، فأصابني صداع في رأسي، فدخلت إلى البيت بعدما استأذنت منهم، وقمت بشيء من الأعمال التأليفية والتعليقية، وعدت إليهم،

وكثيراً ما يودعه هؤلاء المشايخ بغاية من الإلحاح؛ لأنهم كانوا لا يريدون أن يعطلوا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عن العمل، ويضيعوا وقتاً من أوقاته.

المكتبة الخاصة به:

ولا يستطيع أحد أن يتصور ذلك الطابق العلوي الذي يجلس فيه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلا بعد أن يراه بأم عينه، غرفة صغيرة تمتلئ بالكتب، وتبدو جدرانها الأربعة كأنها من الكتب، ويجلس الشيخ بين هذه الكتب المتراكمة كطير عاد إلى عُشِّه في المساء بعد قضاء طول النهار، ويصدق عليه في تلك الحالة ما قاله الشاعر خواجه مير درد (هو شاعر معروف باللغة الأردية) معناه:

«أنا لا أحتاج إلى أن أتوجه إلى حانة خمر لأنني أجد نوعاً من الطرب غريباً في قلبي، أغناني عن كل ما سواه».

إذا احتاج أحد الضيوف ليتحدث معه في أمر، أو اضطر أحد الأقارب ليقابله، فلا يجد مكاناً للجلوس إلا بصعوبة بالغة لتراكم الكتب في الجوانب الأربعة من الغرفة، فلا يرى فيها غير الكتب إلا ما كان فيها من قطعة جلد، أو حصير متواضع، وزجاجات من الأدوية، وقارورات فارغة قديمة، وكان من عادة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أنه كان يعمل هناك إلى الساعة الحادية عشرة والنصف بغاية من الجهد والانقطاع، وكان يريد أن لا يحدث في هذه الساعة أمر يحول دون عمله، ويؤدي إلى توقفه عن العمل، إلا ما كان من الأمور اللازمة التي تتطلب منه الاستعجال، فيلتفت إليه وإلا فلا، ولكنه كان يسمح للضيوف والزوار بالاشتغال بالذكر، والتسبيح، والتلاوة في فناء البيت؛ لأن هذه الأمور لا تصرفه عما يقوم به من أعمال علمية وتأليفية، ولا توقع خللاً فيها.

سفرته الواسعة:

يعود الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في الساعة الحادية عشرة، وتبسط له المائدة، ويتناول الغداء عدد غفير من الضيوف في مرحلتين أو ثلاث مراحل

لكثرة العدد، ويشارك الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ضيوفه في تناول الطعام ولا يزال يجلس على المائدة إلى أن ترفع المائدة، ولا يأكل من الطعام إلا قليلاً، ولكنه رعاية للضيوف كان لا يزال يجلس حتى يقوم آخر ضيف، وتضم مائدته صنوفاً من الأطعمة وكلها يتوفر للجميع وكان يُطعم الضيوف بإلحاح بالغ حتى يضطر بعض الضيوف الذين جلسوا على مائدته لأول مرة، ولم تكن لهم خبرة مسبقة ليأكلوا أكثر مما يحتاجون إليه، فيشكون من ألم في بطونهم، لكن الذي يدقق النظر، وسبق له الجلوس على مائدته، يدرك أن الشيخ لا يتناول من هذه الصنوف من الأطعمة اللذيذة إلا ما يتقوى به على العبادة، فيعجب لهذا القدر الضئيل الذي يتناوله الشيخ من الطعام حين يقارنه بما يبذله الشيخ من الجهد في سبيل العلم والدعوة، لكن الشيخ كان يظهر نفسه على المائدة كأنه يأكل كما يأكل غيره من الضيوف حتى لا يبقى أحد جائعاً رعاية له، فكان لا يعرف أحد أن هذا المضيف الكريم كم أكل هو نفسه.

وكانت الرسائل تعرض عليه قبل الغداء، فيلقي عليها نظرة عابرة، وكانت هذه الرسائل تزداد يوماً فيوماً، وكان أوسط ما يتلقاه من الرسائل بشكل يومي، يبلغ عددها (٣٠ ـ ٤٠) رسالة، ثم ارتفع هذا العدد فيما بعد وبلغ (٥٠ ـ ٦٠) رسالة. [بل بلغ في آخر حياته (٧٠ ـ ٨٠) رسالة].

وكان الشيخ يرغب في الساعة الثانية عشرة بعد تناول الغداء في الاستراحة، لكنه كان لا يتمكن من الاستجمام إلا في الساعة الواحدة، فينفق هذا الوقت في قراءة الرسائل أو في التحدث مع ضيف من الضيوف ثم يذهب لإلقاء درس الحديث.

تدريسه «الجامع الصحيح» للإمام البخاري:

وكان هذا الدرس يلقى أولاً في دار الحديث الواقع بالطابق العلوي، ثم صار يلقى في المسجد لمعاناته من الضعف وعجزه عن الصعود، وكان قد تولى تدريس «الجامع الصحيح» للبخاري بعدما توفي الشيخ عبد اللطيف سنة (١٩٥٤م)،

ولا يستطيع أحد أن يصف هذا الدرس إلا من حضره[1]، ويدرك شغفه بالحديث،

(١) أقدم هنا بعض خصائص دروس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي للجامع الصحيح للبخاري نقلاً عن الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي، فيقول:

١ ـ كانت تمتاز دروس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي للحديث النبوي الشريف بغلبة حب النبي ﷺ والهيام به، ويعجز القلم عن وصف تلك الحالة التي تعتريه أثناء تدريسه حتى لا يبقى أحد من الحضور إلا وهو يتأثر بتلك الحالة غاية التأثر، وكان لدروس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بقوة شخصيته، ونبل صفاته، وطهر قلبه، وحبه البالغ لذات الرسول الله ﷺ أعمق الأثر في القلوب، وقد رأيت بعيني مراراً أن الدموع تسيل من عينيه ويتأثر صوته، فكان يؤثر في السامعين وقد رأيت الناس في بعض الأحيان يجهشون بالبكاء.

وكلنا يشعر حين يقرأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حديث مرض وفاة الرسول ﷺ بصوت تخنقه العبرة، كأن هذا الحادث وقع اليوم، وكنا نجده يواجه صعوبة بالغة في قراءة ذلك الحديث لشدة ما كان يعتريه من شعور بالحزن والكآبة والأسى، فكان يسود الدرس كله جو من الكمد والإدناف، ولا يستطيع أحد منا أن يتمالك نفسه ويمسك بدموعه.

٢ ـ كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يكرم الأئمة والمجتهدين والمحدثين غاية الإكرام، ويحترمهم أشد الاحترام وخاصة في تدريسه للجامع الصحيح للبخاري، عندما كان يختلف في بعض الأمور مع الحافظ ابن حجر العسقلاني فكان يقول عنه بكل أدب واحترام لائق به: إنه صرف النظر عن أدلة الأحناف وتغاضى عن الأحاديث التي استندوا إليها، كأنه لم تبلغه هذه الأحاديث رغم أنه ذكر ذلك الراوي وروايته دعماً لمذهبه وتأييداً لرأيه في مكان آخر، كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بجانب ذلك يعترف بفضله قائلاً: إن الحافظ ابن حجر العسقلاني له منة عظيمة على المعنيين بالحديث ولا يعدله فيها أحدٌ من المحدثين، ويضيف دائماً إلى اسمه: رحمه الله، لجلالة قدره، وفخامة شأنه، وعلو منزلته في الحديث، ولا يجاوز الشيخ حد الاعتدال حتى في الأمور التي يقع فيها الخلاف بين الإمام البخاري والأحناف، ويصعب على كثير من المحدثين اتخاذ موقف الاعتدال في مثل هذه الأمور.

٣ ـ من الصعب نقل بعض الكلمات العربية إلى الأردية؛ لأن اللغة الأردية لا تحمل في جعبتها ما تحمل اللغة العربية من الألفاظ والكلمات، فيواجه المترجم صعوبة في ترجمة هذه الكلمات بروحها وحرارتها، ويحار في اقتناء الكلمات التي تلائمها وتؤدي معناها على أحسن وجه، لكننا نرى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كان يُعبِّر عن تلك الكلمات العويصة الترجمة تعبيراً لا يمكن أفضل منه.

٤ ـ كان إذا تناول حديثاً وظن أن فيه موضعاً لم يتناوله شُرَّاح البخاري الآخرون =

....

= بشرح مقنع، وبقي فيه غموض يصعب على الدارس فهمه، يوجه اهتمامه الخاص إلى ذلك الموضع من الحديث، ويسلط عليه الضوء، ويشرحه شرحاً وافياً، حتى يتضح للدارس، وينكشف له الغطاء. فلو قام أحد بجمع هذه التعليقات والتحقيقات النادرة لتكون كتاباً مستقلاً ذا قيمة كبيرة وإضافة جليلة، وعلى سبيل المثال نأخذ هذه العبارة «فقرنت يده بيده» في باب القسامة من الجزء الثاني للجامع الصحيح للبخاري في صفحة ١٠١٨ (طبعة هندية) فنرى جميع الشراح حتى الحافظ ابن حجر العسقلاني قد أصابه الوهم في إرجاع الضمير في هذا الحديث، فنبه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الوهم الذي وقع فيه الكثيرون من الشراح، وقام بشرح هذا الحديث شرحاً يرد على كل سؤال يتبادر إلى الذهن بشأن الضمير [راجع لمزيد من التفصيل: «لامع الدراري» ٣/ ٣٩١].

٥ ـ إذا وقع الراوي في وهم أو تكلّم فيه أحد، أو أصاب المؤلف وهم في الكتاب كان الشيخ ينبه إليه، ويبيّن للراوي منزلته، ولروايته مكانتها، وللشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تحقيقات وتعليقات على كتاب الشيخ الحافظ ابن حجر العسقلاني الشهير المسمى بـ«تهذيب التهذيب» ولو طبعت هذه التعليقات لكانت منة عظيمة على الأوساط العلمية ولا سيما على الأحناف.

٦ ـ كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يذكر ما ذهب إليه أئمة المذاهب الأربعة وما استدلوا به، ويذكر بصفة خاصة أدلة المذهب الحنفي ببسط وتفصيل، وإذا وجد حديثاً يتعارض مع المذهب الحنفي في بادئ الأمر يعلله تعليلاً يجعل المذهب الحنفي أقرب إلى ذلك الحديث.

٧ ـ وكان من عادته في القضايا المهمة أن يلخص آراء الشراح ويذكر سائر الأقوال ملخصاً، ثم يشرح بصفة خاصة تلك الأقوال التي لم يتعرض لها الإمام البخاري، ونستطيع أن نرى أمثلة ذلك في أبواب رفع اليدين، والآمين بالجهر، والكسوف وغيرها من المسائل.

٨ ـ كان الشيخ يلخص ما تكلّم به المحدثون، وذهب إليه الشراح في أسلوب رائع، ويكون درسه كله بمثابة لب وعصارة، ويشعر كل من يقابل درسه بالكتاب بأنه لخص صفحة كاملة في سطر واحد.

٩ ـ كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يحكي خلال درسه قصص كبار العلماء وأهل القلوب، ويريد بذلك أن يعرف الطالب منزلته قبل أن يقرأ هذا الكتاب العظيم، ويقف على المكانة التي نالها أولئك العلماء ببذل الجهد، وتحمل المشاق، والصبر على الشدائد في سبيل العلم، ولا شك أن هذه الوقائع تؤثر في النفوس، وتشعل الرغبة في القلوب، وتعدها لمواجهة الشدائد التي يتعرض لها الطالب في أيامه الدراسية، وتقوم بإصلاح القلوب وتزكيتها. =

= ١٠ ـ كان يهتم بشرح تراجم الأبواب اهتماماً بالغاً، ويبين غرض الإمام البخاري بوضع هذه التراجم بتفصيل، وكان يقول: إن كل ترجمة من تراجم الأبواب تحمل غاية وإن لم يتطرق إليها ذهن بعض الشراح، نأخذ على سبيل المثال «باب الصلاة إلى الحربة» فنرى الشراح قاطبة سكتوا عن بيان غرض هذا الباب، لكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يقول نقلاً عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي:

«كانت بعض القبائل في العصر الجاهلي تقدس الأسلحة وتعبدها، فأراد الإمام البخاري بهذه الترجمة للباب أن يزيل تلك الشبهة، واستدل به على أن الحربة تصلح لوضعها كسترة للصلاة وتصح الصلاة خلفها، ويوجد تفصيله في «لامع الدراري» فليرجع إليه.

١١ ـ إذا عرضت له أثناء حل تراجم الأبواب مسألة اختار فيها الإمام البخاري مذهب إمام وآثره على غيره من المذاهب، أو أيّد رأي إمام غير الأئمة الأربعة، أو هو ينفرد برأيه، فيذكر الشيخ تلك المسألة ويورد أدلة الإمام البخاري ويردّ على اعتراضه ردّاً مقنعاً.

١٢ ـ يبدو لكثير من المحدثين أن بعض تراجم الأبواب للبخاري قد تكررت، ولا يستبعد ذلك في مثل هذا الكتاب الضخم، فكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يشرح هذا التكرار شرحاً يزول به هذا الوهم، ويشير إلى نقطة دقيقة مهمة تستوجب هذا التكرار، ويقول: إن دقة الإمام واهتمامه بتعيين التراجم يقتضي أن يكون لهذا التكرار سبب.

فقد جاء في الصحفة ٥٦ للمجلد الأول بابان «باب من لم يتم السجود» وباب «من يبدي ضبعيه ويجافي جنبيه» ثم نرى هذين البابين بعينهما تكررا في صفحة ١١١٢ فقام الشيخ بتعليل هذا التكرار تعليلاً يُوجب التكرار، وليرجع للتفصيل إلى: «لامع الدراري» و«الأبواب والتراجم».

١٣ ـ كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يحمل في قلبه حبّاً غامراً للحديث النبوي الشريف فوق العادة، وكان من طبيعة المحب الصادق أنه كلما يلقي نظرة على ما يتمتع به حبيبه من الجمال والبهاء يشعر بلذة جديدة، فهذا هو حال الإمام البخاري، إنه قد يستنبط مسائل عديدة من حديث واحد، فقد ذكر الإمام البخاري حديث «بريرة» أكثر من عشرين مرة لأغراض مختلفة، وكذلك ذكر في كتابه ما جرى بين موسى عليه السلام وخضر عليه السلام من الحديث أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة استخرج منه شيئاً جديداً، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يلفت أنظار الطلاب إلى ذلك الأمر بصفة خاصة.

١٤ ـ ورد في الأحاديث بعض الكلمات والجمل لا يمكن للطالب فهمها =

واحترامه لكتبه، وحبه لنبيه محمد ﷺ، مما يترك أثراً بالغاً في نفوس الحضور، يشعر من يحضر درسه برعد من البرق في بعض الأحيان، ويقع ذلك خاصة بمناسبة اختتام الكتاب والدعاء له، وكان لا يستطيع الشيخ أن يتمالك نفسه رغم سعة صدره وقوة أعصابه، ويبكي، وكذلك كان لا يستطيع أن يملك نفسه حين يشرح الأحاديث المتعلقة بوفاة النبي ﷺ، فتغرورق عيناه بالدموع ويختنق بالبكاء.

• مجلسه بعد صلاة العصر:

يعقد اجتماع عام بعد صلاة العصر في بيته، ويمتلئ فناء البيت كله بالزوار والحضور، وكان من بينهم طلاب المدرسة، وأساتذتها وضيوفها، ويتناول الجميع الشاي، ويمكث الشيخ في المسجد بعد صلاة المغرب إلى وقت طويل، ولا يلقى أحداً في هذا الوقت، إلا إذا جاء إليه أحد من أخص ضيوفه وأقاربه، وتبسط السفرة قبل صلاة العشاء لكنه كان قد ترك تناول العَشاء منذ أيام، فلا يتناول العشاء إلا إذا كان على مائدته ضيف خاص، فيتناول لقمة أو لقمتين تطييباً لخاطره، وبعد صلاة العشاء يعقد له مجلس يحضره مسترشدوه وخدمته، وينفض هذا المجلس بعد هنيهة من الزمن.

• اجتماع القادمين قبل صلاة الجمعة:

ويسمح للقادمين من القرى والأرياف وضواحي المدينة بالمشاركة في الاجتماع الذي يعقد يوم الجمعة قبل صلاة الجمعة ويبايع القادمين الجدد،

= إلا بالمحاكاة والتمثيل، فكان الشيخ يلجأ إلى هذا الأسلوب لشرح تلك الكلمات والجمل حتى يسهل على الطالب فهمه فهماً أكثر دقة، جاء مثلاً في صفحة ٦٩ للمجلد الأول هذه العبارة «وضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى وشبّك بين أصابعه» فيشرح الشيخ هذه العبارة بالقيام بهذا العمل.

١٥ ـ يواجه الطالب صعوبة في التطبيق بين بعض الروايات التي تتضمن الأحداث التاريخية للتعارض الذي يوجد بين هذه الروايات، فكان الشيخ يزيل هذا التعارض بحيث تقتنع القلوب. (من مقدمة الدكتور تقي الدين الندوي لتقرير البخاري للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي) [المترجم].

ويلقنهم بالذكر وتزكية النفس، وكان هذا العدد يزداد يوماً فيوماً، ولا يتسع الفناء لاستيعاب هذا العدد من الزوار والقادمين، فيمتلئ بهم بما فيه الداخل والخارج، حتى يضطر عدد منهم إلى الوقوف على الطرقات والممرات، ثم يستعد الجميع لصلاة الجمعة، وكان الشيخ يؤدي صلاة الجمعة في مسجد صغير يدعى مسجد أيوب، وهو أقرب مسجد إليه، ويتناول الغداء بعد صلاة الجمعة على عادته، ولا يُعقد اجتماع يوم الجمعة بعد صلاة العصر؛ لأنه قد جرت له العادة منذ سنوات أن يشتغل بالذكر والتسبيح والدعاء بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب كل يوم جمعة، كان يقول: إن والدي أيضاً كان يعتاد ذلك، والتزم به طول حياته، ويتناول الشاي بعد صلاة المغرب في ذلك اليوم.

○ تدوين الوقائع الشهيرة:

وكان من عادته القديمة أن يدون الأحداث المهمة، والوقائع الشهيرة، وكيفية تنقلات مشايخه، وبعض زملائه ومسترشديه وذهابهم وإيابهم رغم اشتغاله بأعماله التعليمية والتأليفية والروحية والدعوية المتنوعة التي قلَّما تجتمع في أحد، وكانت هذه المدونات بمثابة مذكرة مفصلة مكتملة سجلت فيها الأحداث المهمة التي جرت حوله، وأرّخت عليها حسب السنين والشهور القمرية والشمسية، وقد ساعدت هذه المذكرة كثيراً في إعداد كتب عن حياة الشيخ محمد إلياس رَحِمَهُ اللهُ والشيخ عبد القادر الرائي فوري، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، وتعطي هذه المذكرة أيضاً معلومات مفيدة عن الشيخ حسين أحمد المدني، وبجانب ذلك تجد في هذه المذكرة تفاصيل وقائع كثيرة لكثير ممن كانوا على صلة بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وكذلك تجد فيها تراجم شخصيات دينية بارزة من داخل البلاد وخارجها بتواريخ وسنين، ومما يستغرب أنه كيف كانت تتاح له فرصة لكتابة هذه المذكرة رغم أشغاله الشديدة المتنوعة.

وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد اعتاد أن يتابع الصحف بصورة

دائمة، ويحتفظ له بالصحف اليومية بغاية من العناية، ويقرؤها الشيخ في وقت الفراغ، وكان له شغف بمعرفة أوضاع البلاد، وطبيعة الأحزاب والمنظمات ونشاطاتها، إنه يسجل في هذه المذكرة وقائع[1] الأحداث والاجتماعات لهذه المنظمات أيضاً، لكن إصابته بنزول الماء في العين واضطراره لاستخدام العدس للقراءة، قد منعته من متابعة الصحف، لكنه إذا علم بصدور مقال مهم في صحيفة فيطلب إلى أحد مسترشديه أن يقرأه عليه، لكنه رغم عجزه عن متابعة الصحف كان متيقظاً للغاية ومطلعاً على الأوضاع الدولية وخبيراً بشؤون البلاد.

◌ إصابته بنزول الماء:

ترجع إصابته بنزول الماء في العين إلى شهر ديسمبر سنة (١٩٦٠م) ولم يزل يؤجل إجراء العملية الجراحية في عينه لأشغاله المستمرة، ورحلاته المتتالية، وأخيراً تم نقله في (٧ من مارس سنة ١٩٧٠م، المطابق ٢٩ ذي الحجة ١٣٨٩هـ) إلى مستشفى العين بـ «علي جراه»، على رغبة ملحة من بعض مسترشديه وزملائه المخلصين كالحاج عظيم الله والحاج نصير الدين، وكان يعد هذا المستشفى من أكبر وأشهر وأرقى مستشفيات العين بالبلاد.

وفي (١٤ مارس ١٩٧٠م) أجريت له عملية جراحية ناجحة في عينه اليمنى على يد الجراح الشهير الدكتور «شكلا» الأستاذ في قسم أمراض العين بجامعة علي جراه الإسلامية، وكان لا يمكن للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يبقى دون شغل علمياً كان أو تأليفياً، توجيهياً كان أو تدريسياً، كان لا يستطيع أن يقرأ ولما أذن له بالتكلم جعل يحكي لمسترشديه ما جرى له من الأحداث التي تحمل لهم دروساً وعبراً، وما شاهده من إخلاص مشايخه وجهودهم وتضحياتهم وفضائلهم، وأساليب حياتهم، وخطوط تفكيرهم، ونسيج عواطفهم وتفانيهم في سبيل الدين، وكان بعض مسترشديه يسجل كل

(١) قد طبعت هذه المذكرة في ثلاثة أجزاء باسم «التاريخ الكبير» بالأردو.

ما يسمع منه، وهكذا تحولت هذه الحكايات إلى سيرة ذاتية أتت إلى حيز الوجود في سبعة مجلدات وهي في الحقيقة صورة حية ناطقة صادقة لما مضى من الأيام، ودروس علمية روحية توجيهية للعلماء والأساتذة والطلاب.

ثم نقل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى المستشفى مرة ثانية في (٢٢ أغسطس١٩٧٠م، المطابق ٧ جمادى الثاني ١٣٩١هـ) وبقي في المستشفى هذه المرة ثمانية عشر يوماً (٢٢ أغسطس إلى ١٣ سبتمبر) ولكن لم تخل هذه الفترة أيضاً من الإرشاد والتوجيه، وأما الرسائل التي كانت تصل إليه في تلك الأيام يبلغ عددها في بعض الأحيان أكثر من خمسين في يوم واحد، وهي تصله من مدن مختلفة من الهند وباكستان، وبريطانيا، والحجاز وإفريقية.

وبعد سنتين من إجراء العملية الجراحية في عينه اليمنى جعل الإخوة المحبون له يلحون عليه بإجراء هذه العملية الجراحية في عينه اليسرى، فأجريت له هذه العملية الجراحية في عينه اليسرى في مستشفى المدينة المنورة وذلك في (٢٤ أبريل ١٩٧٢م)، وقام بإجراء هذه العملية الجراحية الجراح الباكستاني الدكتور منير الحق، وكان من أهالي مدينة لاهور، وبقي الشيخ في المستشفى أربعة أيام، ثم عاد إلى مدرسة العلوم الشرعية حيث كان مقيماً.

عجزه عن التدريس:

كان يرجع تدريس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لكتب الحديث إلى (شوال ١٣٤١هـ، المطابق ١٩٢٣م) واستمر في ذلك إلى (سنة ١٣٨٨هـ، المطابق ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩م) ثم امتنع عن إلقاء الدروس بسبب إصابته بنزول الماء في العين، لكنه استمر بأعماله التأليفية[١].

---

(١) يقول الشيخ في رسالة له إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي: إنني أعاني من أمراض كثيرة، لكنني أشعر براحة في كل مرض يعتريني إلا آلام العين، فهي أشد علي، وأقعدتني عن القيام بأعمال علمية، وكنت قد طلبت إلى المسؤولين بالمدرسة أن يكلّفوا تدريس «الجامع الصحيح» للبخاري لشخص آخر، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك رغم تكرار المعاودات، فأدرسه الآن دون أن أنظر إلى الكتاب (٣ ذو الحجة ١٣٨٧هـ).

انقطعت عملية التدريس عن الشيخ في عام (١٣٨٨هـ) بعجزه عن ذلك، لكن إجازته للمسلسلات قد استمرت إلى نهاية إقامته بسهارنفور، وكان قد اجتمع عنده ألف وخمسون رجلاً بمناسبة المسلسلات، وكان من بينهم عدد كبير من العلماء والمشايخ(١).

◘ الرحلة الخامسة والسادسة إلى الحجاز:

لما سافر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الحجاز على رغبة من الشيخ إنعام الحسن والمشتغلين بالدعوة في هذه المنطقة المباركة سنة (١٣٨٦هـ) المطابق (١٩٦٧م)، وعاد إلى الهند بعد أداء مناسك الحج، فأراد بعد سنتين من تلك الزيارة للأراضي المقدسة أن يرحل إليها مرة ثانية، وكان من المأمول أن يرافقه في هذه الرحلة الحاج محمد شفيع صاحب شركة ساعة بيكاواد، لكنه لم يتمكن من السفر معه لقضيته التي كانت قد رفعت إلى

---

(١) كان من فضل الله على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أنه تمكن من إعداد مجموعة من تلامذته المتخصصين في علم الحديث في حياته وتحت إشرافه، أخص بالذكر هنا الشيخ محمد يونس الجونفوري، والشيخ محمد عاقل السهارنفوري، تولى الشيخ محمد يونس تدريس كتب الحديث بأمر من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي خلال إقامته بمدينة سهارنفور، وألقى أول درس للجامع الصحيح للبخاري في (٢٥ شوال سنة ١٣٨٨هـ) وافتتح هذا الدرس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.
وقام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بإعداد الشيخ محمد عاقل وتكوين شخصيته بإشراكه في أعماله التأليفية حتى استطاع أن يأخذ مكان الأساتذة القدماء.
وقد انتشر تلامذة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في الهند وباكستان ولا يزالون ينجزون خدمات بارزة في علم الحديث شرحاً وتحقيقاً، ومن هؤلاء التلامذة البارزين الشيخ عبد الجبار الأعظمي، والشيخ منور حسين، والشيخ إظهار الحسن، والشيخ عبد الحليم الجونفوري، والأخ العزيز الأستاذ تقي الدين الندوي المظاهري، وكان الأخير مستشاراً علمياً في رئاسة القضاء بـ«أبو ظبي» وهو الآن يعمل في جامعة العين كأستاذ في قسم الحديث، وقد حقق كتاب الزهد للإمام البيهقي، وقام بنشره بعدما حققه ونقحه من القاهرة، ونال به شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر بمصر.
[بفضل الله الذي حقّق كتاب «أوجز المسالك» في ١٨ مجلداً و«بذل المجهود» في ١٤ مجلداً].

القضاء، فسألني الشيخ: هل يمكن لك أن ترافقني في هذه الرحلة إلى «الحجاز»، وذلك لأنني كنت أسافر إلى الحجاز كل سنة مرة أو مرتين، للمشاركة في مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بصفتي عضواً فيها، فقلت له: ليس هناك في هذه الأيام أي مؤتمر للجامعة الإسلامية ولرابطة العالم الإسلامي. فسكت الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، لكن لما عدت إلى لكنو وجدت رسالة من نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تقول: يعقد المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة اجتماعاً عاجلاً بأمر من رئيس الجامعة سمو الأمير فهد بن عبد العزيز حفظه الله، فتوجه إليك الدعوة للمشاركة في هذا الاجتماع.

وكانت هذه الرسالة قد حملت لي بشرى سارة، فأخبرت الشيخ بذلك على الفور، وكان من الطبيعي أن يسر بهذا النبأ غاية السرور، وهكذا أمكن لي السفر معه، فصحبته من دلهي برفقة مع الشيخ معين الله الندوي والأخ سعيد الرحمٰن الأعظمي الندوي وسافرنا يوم الإثنين في (٢٩ أبريل ١٩٦٩م) من «دلهي» إلى «مومباي» على متن الطائرة، وكان الحاج أبو الحسن [هو خادم الشيخ محمد زكريا] يرافق الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان قد جاء بعض الإخوة العاملين بالحلوى، فقدمت منها قطعة إلى الشيخ، فقال: أنا صائم، فعرفت أنه صام شكراً لهذه النعمة التي أكرمه الله بها، وعلمت فيما بعد من خلال دراستي لسيرته الذاتية أنه كان قد نوى أن يقوم بهذه الرحلة صائماً وعلى وضوء، وتحقق ذلك والحمد لله.

غادرنا «مومباي» إلى «كراتشي» يوم الثلاثاء، كان في انتظارنا على مطار كراتشي حشد كبير، وكان الشيخ المفتي محمد شفيع أيضاً في المطار، صلينا الظهر، ودعونا دعاء الوداع، ثم توجهت بنا الطائرة إلى جدة، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد نوى في الرحلة كما قال: صيام شهرين متتابعين، وقد سافر إلى خيبر وهو صائم.

وكان من عادته خلال إقامته بالمدينة المنورة التي نوى فيها أن يصوم شهرين متتالين أن يدخل المسجد النبوي من باب جبريل، ويجلس إلى جهة

أقدام النبي ﷺ مستنداً إلى الجدار، ولا يقوم إلا عند الصلاة، حتى يجيء وقت الإفطار، فيتناول كوباً من ماء زمزم ثم يجلس في نفس المكان إلى صلاة العشاء دون أن يأكل شيئاً أو يشرب، وكان يثقل عليه في تلك الحالة أن يلتفت إلى أحد أو يتحدث معه أحد.

يخرج الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من المسجد النبوي بعد أن ينتهي من صلاة العشاء، ويجد على الباب سيارة تنتظره، ويستقلها ويشرب كأساً من الماء أو العصير، ثم يتوجه إلى مسجد النور حيث كان يقيم، وتبسط له المائدة فيتناول العشاء، وكلنا يستغرب من جلوسه الطويل الذي يستغرق نحو أربع ساعات متجهاً إلى أقدام النبي ﷺ بغاية من الأدب والاحترام رغم ما كان يشكو من كثرة البول، وطعام العشاء الذي كان ينوب عن الإفطار يتأخر عادة من موعده تأخراً بالغاً، فلا يستطيع أن نعلله بشيء إلا أن نقول: إنه يرجع إلى القوة الباطنية، والعلاقة الروحية، والعاطفة القلبية، التي يتميز بها.

وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يرغب في أن يعد طعامه من الحبوب والخضار التي تنبت في حقول مدينة الرسول ﷺ ومزارعها، وكان يفضل كل شيء ينتمي إلى المدينة المنورة، ويكون ذلك محبوباً له وأثيراً لديه:

وللناس فيما يعشقون مذاهب

وبعد هذه الرحلة التي قام بها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «الحجاز» في عام (١٣٨٩هـ) سنحت له الفرصة للرحلة إلى الحجاز في سنة (١٣٩٠هـ) المطابق سنة (١٩٧١م) من «سهارنفور»، وكانت هذه الزيارة للحجاز زيارة سادسة له[1]، وغادر الشيخ «دلهي» إلى جدة في (١٨ يناير) في الساعة التاسعة صباحاً.

◌ رحلاته داخل البلاد:

وقد سبق أن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كان يستوحش من الرحلات، وكان ينتابه قلق واضطراب إذا واجهته هذه المشكلة، ويمكن أن

---

(١) وقد حج شيخنا عشر حجات، وآخر حجة له في سنة ١٤٠١هـ. (تقي الدين الندوي).

يعود ذلك إلى الظروف التي عاشها، والتربية التي تلقاها من أيام طفولته إلى مرحلة شبابه، أو لعله يرجع إلى تلك الحكمة الإلٰهية التي اقتضت أن تختار هذا العبد لخدمة الدين ونشر العلم، وتأليف الكتب، وإلقاء الدروس، والتوجيه إلى الخير والدعوة إلى الله؛ لأن هذه الأعمال الجليلة تتطلب أن ينقطع صاحبها إليها كل الانقطاع انقطاعاً كلياً، ويبتعد عن كل ما يشغل الفهم ويشتت الفكر، ولكن رغم حبه للعزلة ورغبته في الانقطاع إلى التأليف والتدريس، يضطر في بعض الأحيان ليرافق الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ عبد القادر الرائي فوري والشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في رحلاتهم إلى المناطق المجاورة، كسهارنفور، ميرته، مظفر نجر، مراد آباد، بريلي، وميوات للمشاركة في الاجتماعات الدعوية وحفلات المدارس الكبيرة، وبالإضافة إلى هذه الرحلات التي يضطر لها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أكثر من مرة في السنة مع مشايخه، والذي لا يمكن سرد أحداثها بهذه المناسبة، قام برحلات عديدة إلى المديريات البعيدة، يجدر بالذكر هنا ثلاث رحلات منها بصفة خاصة:

الرحلة الأولى: قام بها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «لكنو» في رجب (١٣٦٢هـ) المطابق يوليو (١٩٤٣م)، بإيماء الشيخ محمد إلياس على دعوة من المسؤولين بجماعة الدعوة والتبليغ في لكنو، كان قد وصل الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي إلى «لكنو» في (٨ يوليو) وفي اليوم التالي (٩ يوليو) وصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «لكنو» من «سهارنفور» مباشرة، وكان يوجد هناك العلامة السيد سليمان الندوي والشيخ عبد الحق المدني، والشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، والحافظ فخر الدين، وعدد من قادة جماعة الدعوة والتبليغ، فأقام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في دار الضيافة في دار العلوم لندوة العلماء عدة أيام، وشارك خلالها في الجلسات والاجتماعات الدعوية.

وفي الأيام الأخيرة من إقامته بلكنو زار الشيخ محمد إلياس مع عدد من رفقائه «تكية كلان»، دائرة «شاه علم الله» ببلدة رائي بريلي، على بعد سبعين كيلو متراً من مدينة لكنو، حيث ولد الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد،

ونشأ بها وترعرع [وهو وطن الشيخ أبي الحسن الندوي أيضاً]، ففرح بهذه الزيارة فرحاً بالغاً.

والرحلة الثانية: هي الرحلة التي قام بها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى بلدة «رحيم آباد»، وهي تبعد عن مدينة «لكنو» بحوالي (٢٥) ميلاً، وذلك للمشاركة في اجتماع دعوي عقد في الفترة ما بين (٣ ـ ٥ جمادى الثانية ١٣٦٥هـ، المطابق ٦ ـ ٨ مايو ١٩٤٦م)، على دعوة أحد أثرياء هذه البلدة، وهو الحاج فياض علي الرحيم آبادي، وقد حضر هذا الاجتماع كبار العلماء في البلاد إلا الشيخ حسين أحمد المدني؛ لأنه كان وقتذاك في سجن «نيني تال»، وقد اعتقله الإنجليز بتهمة تمرده على الحكومة الإنجليزية، وكان من بين العلماء الكبار الذين حضروا هذا الاجتماع الشيخ عبد الشكور الفاروقي، والمقرئ محمد طيب رئيس دار العلوم ديوبند، والشيخ ظفر أحمد التهانوي، والشيخ عبد الحق المدني، والشيخ عبد الحليم الصديقي، والدكتور عبد العلي الحسني رئيس دار العلوم لندوة العلماء، والمحدث الجليل الشاه حليم عطاء، رئيس قسم الحديث في دار العلوم لندوة العلماء.

ومما يميز هذا الاجتماع عن الاجتماعات الدعوية الأخرى التي كانت شهدتها البلاد أنه لم يتم فيه توزيع المشاركين إلى طائفتين الخاصة والعامة، والعلماء وغير العلماء، كما جرت العادة في مثل هذه الاجتماعات، فكانت المائدة واحدة، والمنطقة السكنية واحدة، والطعام الذي يقدم إلى كل مشترك واحد، ولم يكن أي تمييز بينهم، حتى في اللقاءات ولا في الجولات، ولا في الاجتماعات ولا في حلقات التعليم والذكر، وقد ضم هذا الاجتماع عدداً كبيراً من أصحاب المناصب العليا والثروة والفضيلة، وأصحاب اتجاهات ومذاهب مختلفة، ولكن لم يشك أحد منهم رغم تباين اتجاهاتهم وميولهم في هذا الاجتماع الذي استغرق ثلاثة أيام، وقد سجل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي انطباعاته عن هذا الاجتماع بالكلمات الآتية:

«كانت الميزة الكبرى لهذا الاجتماع أنه لم يميز في الطعام والإقامة بين العامة والخاصة لمصلحة محلية، ولم يقدم إلى أي شخص إلا نوع واحد من

الطعام يشتمل على الخبز والعدس»[١].

وبالإضافة إلى هاتين الرحلتين للكنو ورحيم آباد قام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي **برحلته الثالثة**: إلى «لكنو» و«رائي بريلي» في شهر فبراير (١٩٤٧م)، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ عبد القادر الرائي فوري، والشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، والشيخ هاشم جان، وهو شيخ الطريقة المجددية بـ «سنده» بباكستان، والحاج السيد محمد خليل النهتوري، والشيخ ظهير الحسن الكاندهلوي، وصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مع الشيخ عبد القادر الرائي فوري وعدد من رفقائه إلى «لكنو» عن طريق «كانفور»، وأقام بلكنو يومين، ثم توجه إلى «رائي بريلي» بالسيارة مع المرافقين له، ونزلت هذه القافلة بهذه القرية على شاطئ نهر سيء على الجانب الآخر، وهو يقابل المسجد، ودخل إلى «دائرة شاه علم الله» بعدما عبرت النهر بالزوارق، وكان في استقبال هذه القافلة جميع أهالي هذه القرية، وعدد من أهالي البلد، فأقامت هذه القافلة يوماً وليلة، ولا يستطيع أحد أن يصف ذلك السرور الذي غمر قلوب أهالي القرية في تلك الليلة، وقال لي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وهو يتوضأ بصوت حزين: أخي، أشعر بحزن بالغ لمغادرتي هذه القرية.

حوادث مؤلمة:

واجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في حياته حوادث مؤلمة متتابعة، كانت تكفي أن تبعث في نفسه اليأس، وتحني له الظهر، وتملأ قلبه حزناً وكآبة، لكن الشيخ وقف أمام هذه الفجائع كالجبل الراسي الذي لا يتزحزح عن مكانه؛ لأنه كان يتمتع بالقوة والصلابة التي تدهش العقول، ويبدو ذلك في مثل هذه المواقف.

كان الحادث الأول الذي فجع به الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هو حادث وفاة والده الفاضل المشفق المربي الورع، وقد وقع له هذا الحادث في

(١) انظر: الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ومنهج حياته في الدعوة.

(١٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٤هـ)، وهو في التاسعة عشرة من عمره، وقد هز هذا الحادث مشاعر هذا الفتى اليافع، وأصابته صدمة عنيفة، وغيرت له مجرى الحياة، وألقى عليه مسؤوليات جسيمة كالجبال، وأثقل ظهره بالديون التي تراكمت عليه.

وبعد هذا الحادث بأقل من سنة، فجع هذا الفتى بحادث آخر لا يقل عن الحادث الأول حزناً وكآبة، وهو حادث وفاة والدته الحنونة، فتوفيت والدته في (٢٥ رمضان سنة ١٣٣٥هـ).

ثم لحق المرشد الروحي له وهو الشيخ خليل أحمد السهارنفوري بالرفيق الأعلى في (١٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٦هـ)، وكان الراحل أشد حناناً وأكثر حبّاً له من والده ووالدته.

وفي (٥ ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ) فارقته زوجته، وفي (٢١ رجب ١٣٦٣هـ) لبّى عمه المشفق الشيخ محمد إلياس دعوة ربه، ولا يصعب على أحد أن يقدر خطورة هذا الحادث وأهميته وآثاره البعيدة المدى، ليست بالنسبة لعائلته الكريمة فقط، وإنما بالنسبة لهذا الدين، وهذه الملة الإسلامية، فلا شك أنه كان خسارة عظيمة لنا ولديننا ولأمتنا، فتحمل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذا الحادث أيضاً بقوة إيمانه، وصلته بربه، وعلو همته، حتى جعل يخجل من الناس على ما بدا منهم من عواطف الكمد والأدناف، وأنا أتذكر جيداً أنني لم أستطع أن أبقى في هذا الجو الحزين الذي يسود مسجد «بنغله والي» في حي نظام الدين، وذهبت إلى مقبرة «همايون»، ولم أعد إلا بعد صلاة المغرب متأخراً، فقال لي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بغاية من الإشفاق والحنان: أنت إلى أين ذهبت؟ ألم تسمع ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب**»[(١)].

ثم أمر بإحضار الطعام وأشار إلي بالجلوس على المائدة، وأطعمني بإصرار بالغ وبغاية من الإشفاق.

---

(١) عمل اليوم والليلة، لابن السني ٣/١١٩.

فوجئ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بحادث وفاة أخيه الحبيب الشيخ محمد يوسف في (٢٩ ذي القعدة ١٣٨٤هـ، المطابق ٢ أبريل سنة ١٩٦٥م)، وكان له قرة عين، وعضده الأيمن، ونزل هذا النبأ على قلبه كالصاعقة، لكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لم يتحمل هذا الحادث، ولم يرض بما شاء له القدر فحسب، بل رأينا بذلك مشهداً من مشاهد الرضا بحكم الله، لم نره إلا في حياة الربانيين من القرون الأولى، فكتب هو نفسه في سيرته الذاتية:

«كان من المقرر أن يأتي الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي إلى «سهارنفور» يوم الجمعة القادم في (٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٨٤هـ، المطابق ٢ أبريل ١٩٦٥م)، فوصلتنا برقية تحمل نبأ مرضه، فلم أصدق هذا النبأ، وما أن اضطجعت لأستريح قليلاً بعد صلاة الجمعة، بعد تناول الغداء، حتى جاءني العزيز محمد طلحة في الساعة الرابعة وأيقظني، وقال: إن رجلاً جاء من الأخ صابر، يقول: إن أحداً اتصل به هاتفيّاً من «لاهور»، وأخبره بحادث وفاة الشيخ محمد يوسف، إن الموت ليس أمراً يستبعد، وله وقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، إذا جاء أجل الله لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فقمت وتوضأت، ووصلت إلى المسجد، ودخلت في الصلاة؛ لأن الأفكار تتلاطم في مخيلتي بعد تلقي هذا النبأ، وأنا أستوحش كثيراً في مثل هذا الوقت من مثل هذا الكلام، ماذا حدث؟ هل كان مريضاً؟ متى وقع الحادث؟ من أخبرك بذلك؟ لأن هذا الوقت الذي تدمع فيه العين، ويبكي فيه الفؤاد، وينقطع القلب عن الدنيا، ويبتهل إلى الآخرة، هو من أغلى الأوقات وأثمنها، وما يتلى فيه من القرآن هو غير ما يتلى منه في وقت آخر، وما تقام فيه من الصلاة هي غير ما تقام منها في ساعة أخرى. وكذلك شأن الذكر والتفكر والتسبيح في هذا الوقت، فليس من المعقول أن يضيع مثل هذا الوقت الغالي في الاستفسار.

فلم يزل يزداد الجمع حتى امتلأ المسجد والمدرسة والشارع، وكنت قائماً أصلي حتى كُبِّر لصلاة العصر، فسلمت، وصليت العصر مع الجماعة في

المسجد، ثم ذهبت إلى البيت، وكان الخبر قد وصل إلى أهل البيت، ووجدت الحزن بادياً على الوجوه.

فقلت بصوت فيه شيء من الذعر من وراء الباب: إن الحادث قد وقع، ولا راد لقضاء الله، فعليكن أن تشتغلن بالذكر والدعاء، والتلاوة والصلاة، وأما أنا فأتوجه إلى المسجد، وأعود إليكن بعد صلاة العشاء، ثم خرجت من الباب، وكان الطريق من المنزل إلى البيت مزدحماً، فقلت للإخوة الذين تجمعوا لانتشار الخبر: اجلسوا أنتم هنا، أنا أذهب إلى المسجد لأقوم بأعمال، تكون زاداً للراحل، فتفرق الجمع بكلامي في هذا، وجلست في المسجد أتلو القرآن الكريم وأدعو وأصلي».

ثم وقع حادث وفاة الشيخ محمد هارون الكاندهلوي في (٢٩ شعبان ١٣٩٣هـ) وكان هذا الحادث مفاجئاً، وكان الراحل من أحب الناس إليه وكان ممن تعقد عليه الآمال، ويكفي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نبأ وفاة سبطه هذا الشاب في مكة المكرمة، وكانت الأيام أيام رمضان المبارك، وأكد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على الجميع أن لا يصل هذا الخبر إلى البنات داخل البيت؛ لأنهن لا يستطعن أن يأكلن السحور بعد تلقي هذا النبأ، ثم دعا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي البنات بعدما استيقظن، وقال لهن: إن طبيعتي كما تعرفنني جيداً، ولا شك أن الحزن أمر طبيعي، ولكن البكاء لا ينفعكن ولا ينفع من تبكين عليه، فقد فارق هذه الحياة فكل ما تستطعن أن تفعلن له هو أن تدعون له وتتلون ما تيسر لَكُنَّ من القرآن الكريم، وتعتمرن عنه في الليل، وهذا ما قاله للذين جاؤوا ليتقدموا إليه بالتعازي فيقول الشيخ: أخبرني بعض الأخوة أنهم يعتمرون بأكثر من مئة عمرة، وكلها في شهر رمضان.

أقدم بهذه المناسبة قطعة من الرسالة التي تلقيتها من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ردّاً على رسالة عزاء وجهتها إليه:

أخي أبو الحسن:

أصبت بصدمات مؤلمة كثيرة، وأصبحت الآن لا أشعر بالفرحة، ولا الحزن، كأنهما شيئان مصطنعان، أجد نفسي في تفسير هذه الآية الكريمة:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أن قلبي قد صار كالحجر بعد تتابع الحوادث؛ كحادث وفاة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ثم حادث وفاة الشيخ محمد إلياس، وحادث وفاة الشيخ حسين أحمد المدني، وحادث وفاة الشيخ عبد القادر الرائي فوري، وآخر حادث وفاة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، فلا يتأثر إلا لوقت قصير، ويبدو كأن السرور والحزن شيئان مؤقتان، فلا يبقى أثرهما طويلاً، وإذا وصلتني رسالة عن «دلهي» أو «سهارنفور» تحمل نبأ مؤلماً انحدرت دمعة أو دمعتان ثم عادت العين إلى الجفاف، وعادت الطبيعة إلى ما كانت عليه».

من هذه الحوادث التي هزت مشاعر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حادث تقسيم البلاد، وما أسفر عن الاضطرابات الطائفية، والاشتباكات الدامية، وموجات الهجرة المتتالية، وحوادث السلب والنهب، واغتصاب النساء والاعتداء عليهن، وتابع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذه الحوادث وهو في «دلهي» عاصمة الهند، وإليكم تفاصيلها:

وصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى دلهي في (٢٩ شعبان ١٣٦٦هـ، المطابق ١٩ يوليو سنة ١٩٤٧م) ليقضي فيها أيام شهر رمضان على عادته، وأقام بها بنية الاعتكاف، لمدة شهر، في (٢٧ رمضان، المطابق ١٥ أغسطس) تم الإعلان بتقسيم البلاد في الثانية عشرة ليلاً، فأحدث هذا الإعلان ضجة، كأن القيامة وقعت، دماء، أشلاء، جثث، حطام، أنقاض، حريق.

اضطر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ليمكث نحو أربعة شهور في حي «نظام الدين» كأنه قد حبس فيه، وكان من المستحيل أن يعود من «دلهي» لخطورة الوضع، فعاش على اللحم بدون الخبز والأرز، كما يكون في عيد الأضحى، وكان الطريق المؤدي إلى «دلهي» مسدوداً ومحفوفاً بالأخطار، وإذا أتى أحد بمواد التموين بعدما خاطر بنفسه، فإنها لا تكفي إلا لخمس عشرة نسمة، وكان عدد الذين يقيمون في حي «نظام الدين» قد بلغ عددهم خمسمئة رجل، فتوزع هذه الأرزاق على الأطفال الصغار ويبقى الكبار جائعين.

وقد حدث أنه قد تم إجراء التفتيش في المسجد والمنزل، وكلما خضعنا

لإجراء التفتيش ازددنا إيماناً بقول الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس]، وسمعنا أكثر من مرة أن المتطرفين من الهنادك سيغيرون على مركز الدعوة والتبليغ بحي «نظام الدين»، ويُعِدُّون لها، ولكن الله ﷻ نصرنا كل مرة، ولم تنجح عملياتهم الإرهابية، وكان قد ذهب الشيخ إلى حي «نظام الدين» في أيام الصيف وليس عنده إلا قميص، وإزار، وسروال، فكان يلبس الإزار يوم الجمعة، ويعطي ملابسه لمن يقوم بغسلها، حتى حلّ الشتاء، وكان لا يمكن له أن يشترى الملابس الدافئة أو يتوجه إلى «سهارنفور» فاشترى له الشيخ صوفي محمد إقبال سوتير، وألبسه إياه، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: لبست هذا السوتير طول خمس عشرة سنة.

واجه الشيخ في أيام حبسه هذه محنة أخرى لا تقل عن المحن التي سبقتها، وهي أن زوجة الشيخ محمد يوسف قد داهمها مرض، وكانت زوجة الشيخ محمد يوسف بنت الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وأم الشيخ محمد هارون واشتد عليها المرض، وتدهورت صحتها للغاية، حتى كان يبدو كل يوم يأتي في حياته، كأنه هو اليوم الأخير.

فتوفيت في (٢٩ شوال ١٣٦٦هـ، المطابق ١٦ سبتمبر ١٩٤٧م)، ودفنت في مقبرة تقع خلف المنزل، وفي تلك الأيام التي كان البريد فيها معطلاً، ووسائل النقل والمواصلات فيها مقطوعة، توفي الشيخ سعيد الرحمٰن وهو في ريعان شبابه، ووصل نبأ حادث وفاته إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعد شهر من وقوع الحادثة، وكان الطريق بين «دلهي» و«سهارنفور» مسدوداً، وتمكن الشيخ حسين أحمد المدني من الوصول إلى «دهلي» بصعوبة بالغة في (٢٨ ذي الحجة ١٣٦٦هـ، المطابق ١٢ نوفمبر ١٩٤٧م) على شاحنة أتاحتها له الحكومة وأرسلت معها حرساً يحملون أسلحة لصيانته من المشاغبين.

وعاد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعائلته على تلك الشاحنة إلى «سهارنفور» في (١٧ نوفمبر ١٩٤٧م)، وواجهته مشكلات كثيرة في الطريق، تعطلت الشاحنة، وساد جو من الخوف، ولكنهم تمكنوا من الوصول إلى «سهارنفور» بفضل الله ورحمته.

تشاور المشايخ الثلاثة واتفاقهم على البقاء في البلاد:

في (١١ محرم ١٣٦٧هـ) قدم الشيخ حسين أحمد المدني من «ديوبند» والشيخ عبد القادر الرائي فوري من «رائي فور» إلى «سهارنفور» للتشاور، وقرر هؤلاء الثلاثة البقاء في البلاد، ولم يكن هذا القرار قراراً تاريخيّاً فحسب، بل إن هذا القرار الذي اتخذ في هذه اللحظات الحاسمة قد صنع التاريخ؛ لأنه أسفر عن بقاء أهالي مدينة «سهارنفور» و«ميرته» وأهالي المنطقة الغربية بولاية «أترابراديش» في الهند التي كانت تشهد حينذاك اضطرابات طائفية هائلة وبقاؤهم قد أثر على بقاء المسلمين في طول الهند.

خدمه المخلصون من أهالي مدينة سهارنفور:

كان من نعم الله ﷻ على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن أعطاه رجالاً يعرفون طبيعته، ويجدون لذة في خدمته، وإراحة نفسه، وتحقيق رغباته، والاهتمام بأمره، ولا يدخرون وسعاً في توفير أسباب الراحة له، ولمن ينتمي إليه، وكان من بين هؤلاء الرجال الشيخ عبد المجيد، وكان من أخص خدمه، قد وهب نفسه لخدمة الشيخ، وألقى بنفسه على عتبته، وكان الشيخ يحكي قصص بذله النفس، ومخاطرته، ومعرفته بطبيعة الشيخ، وتكبده المشاق في توفير أدنى ما يرغب فيه، وتهيئة أقل ما يحتاج إليه، فيحكي الشيخ هذه الوقائع كأنه يتلذذ بذلك، توفي الشيخ عبد المجيد قبل وفاة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعدة سنوات، وذلك في (١٤ شعبان سنة ١٣٧٠هـ).

وكان عمه الشيخ نصير الدين ناظر مكتبة يحيى، ورئيس أم المدارس يتولى الإشراف على الأمور الإدارية لزاوية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وتعود إليه المسؤولية في تجهيز وجبة الفطور وإعداد الغداء والعشاء، والعناية بالضيوف، وحل مشكلاتهم، وكان لا يهم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عدد الضيوف والإيرادات والمصروفات؛ لأن عوائده من المكتبة والتبرعات التي يتلقاها الشيخ من مسترشديه كانت تكفي للقيام بهذه الأمور، وكان قد يبلغ عدد الضيوف والزوار مئات في الأيام الأولى المباركة من شهر رمضان،

ويرتفع هذا العدد حتى يبلغ آلافاً في الأيام الأخيرة من هذا الشهر، فيقوم الشيخ نصير الدين أحمد برعاية هؤلاء الضيوف وتوفير أسباب الراحة لهم والاهتمام بطعامهم وإقامتهم بصبر وسخاء بالغين، وقد توفي الشيخ نصير الدين في (٤ جمادى الأولى ١٤٠١هـ، المطابق ١١ مارس ١٩٨٨م)، وحزن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على وفاته حزناً شديداً.

وغير هذين الرجلين أعطاه الله ﷻ رجلاً آخر يخلص له ويعرف طبيعته، ويراعي ذوقه، ونال هذا الرجل بجهده وكدحه وخدمته للشيخ منزلة لم ينلها كثير من خدمه الأقدمين، ولا أزال أذكر أن الشيخ كان يقيم في «بهت هاوس» بسهارنفور في سنة (١٣٧٨هـ) المطابق (١٩٥٩م)، وكان يزوره اثنان من الشباب في مقره، فاستأنس أحدهما بالشيخ أشد الاستئناس حتى لازمه، وسرعان ما تغيرت صورته وطبيعته وصفاته الخلقية، وأعجب الشيخ بذوقه الرفيع، وطبيعته السليمة، وفهمه العميق، فأحبه وقربه إليه، ووضعه موضع ثقته، فكان هذا الرجل هو الحاج أبو الحسن، وكان كاتباً مساعداً في الكلية الإسلامية بسهارنفور، وقد بلغ في حبه للشيخ وتحمسه له، أن قدم استقالته عن وظيفته في الكلية الإسلامية، ورافقه دائماً في رحلاته إلى الحجاز وباكستان، وأخيراً هاجر معه إلى المدينة المنورة، وارتمى على عتبته، ولازمه إلى آخر ساعة من ساعات حياته [توفي في المدينة المنورة ودفن في البقيع].



الباب الخامس

اهتمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بشهر رمضان، والأعمال التي يقوم بها عادة في هذا الشهر، والاجتماعات التي تعقد فيه

كيفية استقبال العلماء الربانيين والعارفين لشهر رمضان

اهتمام العلماء الربانيين بشهر رمضان:

لا شك أن الأرض تشرق بحلول شهر رمضان المبارك، هذا هو الشهر الذي تتحمس فيه القلوب للطاعة والعبادة، ويسود فيه جو من التنافس بين العباد في فعل الخيرات، وتنطلق فيه موجات من الجود والسخاء، ويحتفل فيه بعيد نزول كتاب الله العزيز بإحياء الليالي، وصلاة التراويح، والإكثار من السجود والابتهال، وتتحقق فيه تلك الأماني والأحلام التي كان يعيش لها عباد الله المخلصون من العشاق والعارفين، الذين يتمتعون بهمة عالية، ويحملون في صدورهم قلوباً مؤمنة خاشعة، وينتظرون هذا الشهر بفارغ الصبر، ومنتهى الشوق والهيام، ويظمؤون إليه كالظمآن إلى الماء، ويعدون له الساعات طول السنة، فهو ربيع قلوبهم وقرة عيونهم، وشفاء أرواحهم وأجسادهم.

خلِّ ذكر المتقدمين من العلماء والصالحين وعباد الله المخلصين، بل خذ من أحوال المشايخ المتأخرين من الذين عاشوا العصر الحديث، فقد سمعت عنهم أنهم كانوا في غاية من الشوق يبدؤون في انتظار شهر رمضان المقبل من اليوم الأول من شهر شوال، وتمتلئ قلوبهم حماساً ونشاطاً بقدوم هذا الشهر، ويتجدد إيمانهم، وتشتعل في قلوبهم الرغبات في العبادة والطاعة، فيقولون حيناً بلسان الحال:

هـذا الـذي كـانـت الأيـام تـنـتـظـر ... فَـلْـيُـوفِ لله أقـوام بـمـا نـذورا

ويقولون حيناً آخر:

«اسقني بيدك ذلك الخمر الذي يطرب النفس ويهز القلب؛ لأن هذه الأيام من فصل الربيع لا تتكرر».

وتتجلى أهمية هذا الشهر المبارك فيما رُوي عن النبي ﷺ:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة في رمضان، فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد وشد المئزر[٢].

كان الجو يتغير في المراكز الروحية بحلول شهر رمضان، وينجذب إليها الناس من المناطق البعيدة انجذاب القطع الحديدية إلى المغناطيس، ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النور، وتدوي هذه المراكز بالذكر والتسبيح والدعاء والاستغفار وغيرها من أساليب العبادة الأخرى، كأن لم يكن لهم شغل غيرها، ويبدو كأن هذا الشهر هو الأخير في حياتهم، فيحاول كل منهم أن يسبق صاحبه إلى الخير، ويجني ثمار هذا الشهر أكثر من غيره، ويعتبر كل يوم من أيام رمضان كأنه هو اليوم الأخير من أيام حياته.

إن من يدخل إلى هذا الجو الإيماني ويعيشه ينصرف قلبه عن الدنيا وملذاتها، وتنشأ الحرارة في طبيعته الباردة، وتعود الحياة إلى قلبه الميت، وتعلو همته التي فترت، وتنشط عزيمته التي وهنت، وتشتعل النار التي خَبَتْ وانطفأت، كأن تياراً كهربائيّاً انتقل إلى قلبه وجرى في عروقه، فأعاد الحياة إلى جسمه الذي طرأ عليه الموت، ويشهد كل رجل يرى هذا الجو الروحي الإيماني بأن الأرض لا تزال تنبت أعشابها، وتفتح أزهارها، وتحمل أثقالها،

---

(١) «الصحيح للبخاري» (رقم ٦).

(٢) «الصحيح لمسلم» (رقم ١١١٩).



ولا يطوى بساطها، ما شهد العالم مثل هذا الحنين إلى الامتثال لأوامر الله، وهذا الحشد الهائل من الظامئين إلى الدين والعبادة، وهذا العدد الكبير من عباد الله المخلصين المبتهلين والمتضرعين الذين يجتمعون في مكان واحد مترفعين عن كل نوع من المصالح والأغراض والأهواء، والرغبات والمقتضيات ليعبدوا ربهم، ويسبحوه ويستغفروه ويتوبوا إليه.

مما يدعو للأسف أنه لم يسجل أحد من المؤرخين ما شاهده في زاوية الشيخ نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني ثم الدهلوي (م٧٢٥هـ)[١] من الانقطاع إلى العبادة، والعكوف عليها في شهر رمضان في القرن الثامن، وما عاينه في زاوية الشيخ غلام علي الدهلوي (م١٢٤٠هـ) من التضرع والابتهال إلى الله، والتسابق في العبادة، والخشوع في القرن الثالث عشر، ولا يوجد كتاب يتناول ما كان يعقد في تلك الزوايا من مجالس الذكر، وحلقات التعليم، وما كان يلقى فيها من المواعظ والدروس، وما كان يختار فيها من المناهج لتربية النفوس، وتهذيب العقول، وزرع الإيمان في القلوب، غير كتابين أحدهما: «فوائد الفوائد»، والآخر: «سير الأولياء»، إن من يطلع على تلك الزوايا ونشاطاتها، وصباحها ومسائها، وطبيعة أولئك المشايخ وذوقهم ومشاعرهم وعواطفهم وحرقتهم وتضرعهم يستطيع أن يعدّ من هذه النقط مقالاً كاملاً، ويرسم من هذه الخطوط صورة متكاملة.

لكن الزوايا المعاصرة التي ورثت تلك الزوايا التي مرت عليها القرون وتبنّت فكرتها، وحملت رسالتها، واختارت نهجها، وكذلك المشايخ والعلماء المعاصرون الذين خلفوا أولئك المشايخ والعارفين الأقدمين، وحلوا محلهم وساروا على نهجهم، هم الذين جددوا تلك المشاهد، وأحيوها، وأعاد التاريخ نفسه في عصرهم.

---

(١) راجع لمعرفة أحوال الشيخ نظام الدين: كتاب «أدب أهل القلوب» للأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي [المترجم].

إن الذين شاهدوا رمضان في عصر الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي[١] في بلده «كنكوه» عددهم قليل، ولكن الذين شاهدوا رمضان في أيام الشيخ عبد الرحيم الرائي فوري[٢] في عصر الشيخ أشرف علي التهانوي[٣] عددهم كبير، وحين يتذكرون تلك الأيام تصيبهم ضربة موجعة في قلوبهم.

● الشيخ حسين أحمد المدني واهتمامه بشهر رمضان المبارك:

أقول في ضوء دراستي: إن الشخصية التي شاء لها القدر أن تُحيي هذه السُّنّة من سنن من مضى من العلماء الربانيين وعباد الله المخلصين في هذا العصر، وتنفخ فيها روحاً جديدة، هي شخصية العلامة حسين أحمد المدني[٤]، فقد قرر بناءً على طلب من مسترشديه وتلامذته المخلصين المقربين الإقامة في مكان واحد طول شهر رمضان، فانجذب إليه عدد كبير من مسترشديه والمنتمين إليه من المناطق المجاورة والبعيدة من أنحاء البلاد المختلفة، وقضى الشيخ حسين أحمد المدني شهر رمضان في بلدة «سلهت» إلى مدة، ثم أمضى رمضان في «بانس كندي» بولاية «بنغال» عدة سنوات، وقضى رمضان في «تاندة» بمديرية «فيض آباد» سنتين أو ثلاث سنوات، وكان يجتمع عنده في هذه الأماكن مئات من مسترشديه وتلامذته وعدد ممن يحمل لهذا الشهر تقديراً في قلبه، فيستضيف الشيخ حسين أحمد المدني هذا العدد الكبير من الضيوف.

وكان الشيخ حسين أحمد المدني بنفسه يصلي بالتراويح في هذه الأماكن، ويشتغل الجميع بالعبادات والتلاوة والتسبيح والدعاء والاستغفار،

---

(١) كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي من كبار العلماء المحدثين الربانيين، سكن بـ«كنكوه» وتوفي بها سنة (١٣٢٣هـ).

(٢) كان الشيخ عبد الرحيم الرائي فوري (م١٣٣٧هـ) من المشايخ الربانيين.

(٣) كان الشيخ أشرف علي التهانوي من حكماء الأمة الإسلامية ومن المشرفين على كثير من الجمعيات والحركات الإسلامية والمدارس والجامعات الدينية، توفي ببلده «رائي فور» بمديرية «سهارنفور» سنة (١٩١٩م).

(٤) توفي سنة (١٩٤٣م).

بهمة عالية وحماس بالغ، ويشعرون بالرقي في الأمور الروحية، ويذكرون تلك الأيام الجميلة الرائعة بلذة وسعادة إلى مدة طويلة.

ولو شاء القدر وامتد عمر الشيخ حسين أحمد المدني لاستمرت هذه السلسلة في «إله داد فور»، ولا يدري أحد، كم من الرجال تربوا على يده، وعلت منزلتهم وتمكنوا من الوصول إلى غاياتهم، ولكن انقطعت هذه السلسلة بوفاة الشيخ حسين أحمد المدني يوم الخميس (١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٧٧هـ، المطابق ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٧م)، وبقي الناس يعضّون الأيدي على فراقه.

رمضان في بلدة «رائي فور» وأماكن أخرى:

كان الشيخ عبد القادر الرائي فوري يهتم بشهر رمضان فوق العادة، وكان عدد كبير من العلماء الكبار والمسؤولين عن المدارس والمشايخ العظام الحائزين على الإجازة من أهالي ولاية «بنجاب» قبل تقسيم البلاد يتوجهون في الأيام الأخيرة من شهر شعبان إلى «رائي فور» لقضاء أيام رمضان في زاوية الشيخ عبد القادر الرائي فوري، ويشتغلون بالعبادة منقطعين عن كل ما يصرفهم عن الآجلة من أمور العاجلة، في هذه القرية التي لا يربطها بالمدينة طريق معبّد، ولا يوجد بمقربة منها محطة قطار، ولا يغادرونها عادة إلا بعد أداء صلاة عيد الفطر، ولا يستطيع أحد أن يقدر ما تشهده هذه الزاوية من الاشتغال بالعبادة، وما يسودها من جو الانقطاع إليها والتضرع إلى الله والإنابة إليه، إلا إذا قرأ كتابي عن الشيخ عبد القادر الرائي فوري، فهذا الكتاب يلقي بعض الضوء على ما تتميز به تلك الزاوية.

الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي واهتمامه بهذا الشهر:

ثم واصل هذا العمل وقام بتوسيع نطاقه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذي كان قد قدّر له أن يحافظ على تلك الثروة التي كان تركها له مشايخه وأساتذته، ويحتفظ بمآثرهم وأمجادهم، ويتبنى أفكارهم وآراءهم، ويقوم بإصدار كتبهم، ويتم من الأعمال ما لم يتمكنوا من إتمامه.

وكان مما يتميز به أهل القلوب هو انقطاعهم إلى العبادة والعكوف

عليها، والاهتمام بالتلاوة والذكر والتسبيح والدعاء وكل ما يتقرب به إلى الله، اهتماماً بالغاً في كل عصر، ومما يدل على مدى اشتغال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالعبادة، وانصرافه إليها، وتراجعه عن كل ما سواها، هو حادث طريف وقع له في شهر رمضان.. وهو:

كان لا يتاح للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي فرصة للتحدث مع أحد فضلاً عن اللقاء معه، وكان من عادته في شهر رمضان أن يختم القرآن الكريم بشكل يومي[1] بل كان يحاول أن يزيد على ذلك على وجه الحيطة خشية أن يهل عليه هلال عيد الفطر في التاسع والعشرين، وكان من الصعب عليه لالتزامه بإتمام القرآن الكريم أن يفرغ وقتاً ولو كان قصيراً ليقابل أحداً أو يكلمه طيباً لخاطره.

وكان للحكيم محمد طيب علاقة قرابة مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان الشيخ يراعيه كثيراً لصلته بالشيخ الحكيم محمد ضياء الدين من مشايخ هذه السلسلة، فزاره الحكيم الطيب يوماً في شهر رمضان، وكلما أبدى رغبته في اللقاء مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أمام مسترشديه يتلقى إجابة أنه يشتغل، وليس له وقت ليتحدث معك، فلما تمكن من اللقاء مع الشيخ محمد زكريا قال:

أخي لا أقول لك إلا كلمة واحدة؛ هي أن شهر رمضان يأتينا أيضاً، ولكنه لا يأتي كالحمى، وعاد من ساعته.

جدول أعماله في رمضان:

كان جدول أعماله يشهد تغييراً كبيراً في أيام رمضان، ويبلغ نشاطه، وكدحه، وحماسه، وعلو همته، وشغفه بالعبادة، واهتمامه بالتلاوة، وانقطاعه إليها ذروته.

---

(١) بدأ الشيخ في ختم القرآن يومياً في شهر رمضان سنة (١٣٣٨هـ)، واستمر في ذلك حتى عام (١٣٨٠هـ).

وقد أسعدني الله ﷻ في سنة (١٣٦٦هـ) المطابق (١٩٤٦م) بأن أقضي أيام رمضان كلها معه في حي نظام الدين، فرأيت الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يعتكف شهراً كاملاً، ووجدته يلتزم بإتمام القرآن الكريم من أوله إلى آخره كل يوم، ويتناول في الفطور تمرة واحدة من المدينة، ثم يشرب كوباً من الشاي، ثم يقوم للصلاة النافلة بعد أداء صلاة المغرب، ويقرأ فيها عدة أجزاء من القرآن الكريم، وبعدما ينتهي من تلك النافلة، وقبل أن يدخل في صلاة التراويح تعقد له جلسة يحضرها عدد من الأقارب، وعدد من أخص مسترشديه وتلامذته، ثم تقام جلسة أخرى بعد صلاة التراويح، ويقدم فيها أنواع من الفواكه والثمار والنقليات إلى الضيوف، وكانت هذه الأيام أيام الصيف، وكان الشيخ محمد يوسف يصلي بالتراويح، وكان من عادته أن لا يعجل بالقرآن، فتستغرق صلاة التراويح وقتاً طويلاً، وينصرف الجميع عن الجلسة التي تعقد بعد صلاة التراويح بعدما جلسوا فيها نحو ساعة ليستريحوا، ويقوم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي للصلاة، ولا ينام طول الليل حتى لدقيقة واحدة، ويتناول السحور في الوقت الأخير، ثم لا يتناول شيئاً من الطعام على مدار أربع وعشرين ساعة، ويصلي صلاة الفجر في الوقت الأول، ويضطجع بعد صلاة الفجر، ثم يستيقظ بعد طلوع الشمس، وهذا الوقت الذي ينام فيه كان هو الأول والآخر للنوم في يوم وليلة، ثم يشتغل بتلاوة القرآن الكريم طول النهار، وهذه هي عادته في شهر رمضان.

ولم يزل يزداد اشتغاله بالعبادة، وما زالت تعلو همته للقيام بما اعتاده من الأمور العظام رغم تدهور صحته، ومعاناته من الأمراض، فيذكر أحد مسترشديه وكان يلازمه كل وقت تفاصيل شهر رمضان (١٣٨٥هـ) وهي كما يلي:

إن الضيوف القادمين من خارج البلدة في الفترة ما بين (١٥ شعبان و٢٨ رمضان) يبلغ عددهم ثلاثمئة ونيفاً، وكان عدد منهم يعود بعد قضاء أيام في هذا الجو الروحي، وعدد منهم يقيم بهذا المكان ويقضي شهر رمضان كله.

وكان من عادة الشيخ في رمضان أنه يشتغل بالنافلة حين يستيقظ الناس

للسحور، ويتناول بيضة أو بيضتين قبل انتهاء السحور، ويشرب كوباً من الماء، ثم يراقب الحاضرين مستنداً إلى وسادة إلى صلاة الفجر، يستريح بعد صلاة الفجر إلى الساعة التاسعة، ويشتغل بأمور مختلفة بعد قضاء حاجاته إلى وقت الزوال، ثم تقدم إليه الرسائل الواردة فيقرؤها، ويملي الإجابات على عدد منها، ويستمر في ذلك حتى يؤذن لصلاة الظهر، فيصلي صلاة الظهر، ويجلس يتلو القرآن الكريم بعد صلاة العصر مباشرة.

وكان يسمع القرآن بعد صلاة العصر، وكان الضيوف إما يستمعون له وإما يتلونه بأنفسهم، حتى يجيء موعد الإفطار، فيشتغل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالذكر والدعاء، وكان على الضيوف أن يتوجهوا إلى فناء المسجد للإفطار، ويبقى الشيخ وحيداً وراء الستار، ويفطر بتمرة واحدة، ويشرب كوباً من ماء زمزم، ويجلس مستنداً، ثم يقدم الطعام إلى الضيوف بعدما ينتهون من صلاة المغرب، ويشتغل الشيخ نفسه بالنافلة لوقت طويل، ويتناول بيضة أو بيضتين قبل أن يقوم لصلاة العشاء بنصف ساعة، ويشرب كوباً من الشاي، وقد بدأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في شرب الشاي، وأكل البيضة على رغبة ملحة من مسترشديه، وكان لا يتناول شيئاً من الأرز والقمح طول شهر رمضان.

يزاح الستار قبل أن يرفع الأذان لصلاة العشاء بنصف ساعة ويجلس الشيخ مستنداً إلى الوسادة يراقب الضيوف، وينظر إليهم، ويكون المشهد مشهداً غريباً يستوقف الأنظار يدخل عليه الضيوف الجدد، يسلمون عليه ويصافحونه، ثم يقوم الشيخ بعد أن يؤذن للعشاء ويشتغل بالنافلة ثم يؤدي العشاء ويصلي التراويح.

في العشر الأول صلى المفتي يحيى بالتراويح، وأتم القرآن الكريم، وفي العشر الثاني صلى بالتراويح الحافظ فرقان، وأتم القرآن الكريم، وفي العشر الثالث صلى بالتراويح نجل المفتي محمد يحيى الأخ محمد سلمان وأتم القرآن الكريم، وقضى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رمضان هذا معتكفاً، واعتكف معه معظم الضيوف طول الشهر، حتى لا نجد في بعض الأحيان

أحداً نرسله إلى مكتب البريد، ويتفرغ اثنان أو ثلاثة من تلامذته لتوفير أسباب الراحة للضيوف فلا يعتكفون.

ويتناول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في بعض الأحيان في العشر الأخير من رمضان قطعة من الحلوى والكباب يأتي بها إليه بعض الإخوة بعد صلاة التراويح، لكنه كثيراً ما توزع هذه الأشياء على الحاضرين، وكان قد أعلن في الأيام الأولى من رمضان لقراءة كتاب بعد صلاة التراويح، فيقرأ الكتاب عادة على الحضور، وكان الشيخ يمتنع في هذا الشهر عن تناول ما كان يتناوله عادة في كل رمضان من الفواكه والثمار والنقليات حتى لا يضيع وقته في الأكل والشرب، ويأمر الحاضرين بالاشتغال بالعبادة والانقطاع إليها بعد قراءة الكتاب، ويقول لهم: إن هذا الوقت غال فلا تضيعوه في أمور عادية بسيطة، فيشتغل الناس بالتلاوة والذكر والدعاء خضوعاً لأمره، ويشتغل هو نفسه بالنوافل ثم يستريح لوقت قصير.

وبقي هذا الجدول للشيخ في رمضان المقبل سنة (١٣٨٦هـ)، ولم يشهد أي تغيير إلا في بعض الأمور، كتب الشيخ منور حسين في رسالته ما شاهده من الأحوال في رمضان وهو أحد المسؤولين الكبار بزاوية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

«رأيت الضيوف يضعون حقائبهم، ويبسطون فرشهم في الأماكن التي أرادوا الإقامة بها قبل صلاة الفجر من التاسع والعشرين من شعبان، ومن تأخر منهم في الوصول ووصل بعد صلاة الفجر، لا يجد مكاناً إلا في الصفوف المتخلفة، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد أعلن مسبقاً بأنه سينتقل من المسجد إلى المعتكف بعد صلاة العصر مباشرة في التاسع والعشرين من شعبان، وكان قد وصل نحو مئة ضيف إلى دار الطلبة الجديد بنية الإقامة والاعتكاف، وامتلأ المسجد بالضيوف والحقائب والأمتعة رغم سعته واستيعابه عدداً كبيراً من المصلين، فاضطر بعض الضيوف إلى الإقامة بأروقة دار الإقامة وبأروقة المسجد، لعدم تمكنهم من الإقامة داخل المسجد، وكان قد جلس على مائدة العشاء أكثر من مئة رجل، ثم تناول هذا العدد الهائل السحور ولم

يزل يأتي الضيوف، ويرتفع عددهم يوماً فيوماً، حتى اضطر المسؤولون بالزاوية أن يهيئوا لهم مكاناً داخل المسجد لعدم تواجد شبر فارغ في أروقة المسجد، وكان نصيب كل ضيف من المكان داخل المسجد قدم ونصف قدم في العشرين الأخيرين.

ثم أقيم سرادق في فناء المسجد المكشوف ليقيم به الضيوف، وسرعان ما امتلأ ذلك المكان أيضاً بالضيوف، وكان قد تم إخلاء ست غرف من دار الطلبة مسبقاً لإنزال كرام الضيوف، وكانت قد وضعت فيها السرر، فحددت لهم غرفتان، وقام المسؤولون بإخلاء أربع غرف وبسطوا فيها الحصر لتضم هذه الغرف أكبر عدد من الضيوف، وقد بلغ عدد الذين يتناولون على مائدة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي السحور والعشاء أكثر من ثلاثمئة في الفترة ما بين (٢٣ و٢٨ رمضان)، وقد حضر هذه المرة جماعات الدعوة والتبليغ العاملة في مناطق مختلفة وعدد من كبار العلماء والمدرسين.

وأجاز الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عدداً منهم بهذه المناسبة وكان معظم الذين تلقوا منه الإجازة ينتمي إلى «مومباي» و«غجرات» و«باني بت»، وكان عدد الذين جاؤوا من «ولاية أترابراديش» أكبر بالنسة لأهالي ولايات أخرى. وقد حضر بعض الضيوف من «إفريقية»، ومن ولايات الهند المختلفة، كولاية كرناتكا، وتامل نادو، وبهار، وإربسه، وبنغال.

وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يتلو القرآن الكريم إلى صلاة الظهر، ويشتغل الضيوف كلهم بالذكر، يشتغل معظمهم بالذكر جهراً، وبعضهم يشتغل بالذكر سرّاً، أو يشتغل بالتلاوة والمراقبة، وكان لا يسمح لهم بالكلام مطلقاً، وكان قد صدر من الشيخ تعليمات لجميع الحاضرين، أن لا يتكلم أحد هنا، ولا بأس بالنوم أو الصمت، وتقرأ الكتب عقب صلاة العصر، كـ«إمداد السلوك» رسالة الإمام السيوطي، ورسالة أخرى أيضاً، ثم «إتمام النعم»، ترجمة بـ«تنويب الحكم»، ثم «إكمال الشيم، شرح إتمام النعم»، في أيام رمضان كلها، ويغلق الكتاب قبل موعد الإفطار بخمس عشرة دقيقة، ويشتغل الجميع بالدعاء، ويفطر الشيخ بتمرة مدينة ويشرب من ماء زمزم،

وكان ليس من عادته أن يأكل شيئاً، ثم يشتغل إما بالعبادة، وإمّا بالنوافل بعد صلاة المغرب نحو ساعة، ثم يتناول بيضتين ويشرب كوباً من الشاي.

يرفع الستار، ويعقد مجلس عام في الساعة السابعة والربع، ويصافح فيه الشيخ القادمين الجدد ويستفسرهم عن مدة إقامتهم، ويحدد لهم مكان الإقامة، ثم يحكي قصص الأولياء إلى الساعة الثامنة، ويبايعه الناس أيضاً أثناء ذلك، ويستعد للصلاة بعد الأذان على الفور ويقضي حوائجه بنفسه، ويقوم لصلاة النافلة.

بعد الانتهاء من صلاة التراويح يقرأ سورة يسّ، ويقرأ معه الجميع، ثم يدعو طويلاً، وكان من بين الحضور عدد من المسؤولين عن جماعة الدعوة والتبليغ فيطلب منهم الشيخ الدعاء، ثم يقرأ الكتاب إلى الساعة الحادية عشرة، ثم يسمع تقريراً عن أعمال جماعة الدعوة والتبليغ، ويُسدل الستار في الساعة الثانية عشرة ليلاً حين ينتهي هذا المجلس الكتابي.

وكما سبق أن الشيخ كان لا يتناول في الإفطار إلا تمرة واحدة وكوباً من الماء واحداً، مما أدى إلى ازدياد بلل في المعدة وإصابته ببعض الأمراض لعدم تناول الطعام في أيام رمضان، وبلغ به الأمر أن فقد الشهية للطعام بعد شهر رمضان، إلى مدة طويلة، فخاف الأهل والإخوة على نفسه، وأكدوا عليه بتناول قدر من الفواكه والثمار وأنواع أخرى من المأكولات، بين وقت وآخر، فاضطر الشيخ بضغوط كانت تقع عليه من الإخوة والأهل بشأن الأكل إلى أن يتناول شيئاً مما يقدم إليه في الإفطار من الفواكه والثمار.

يستمر المجلس الخاص إلى الساعة الواحدة إلا الربع، ويبقى الشيخ صامتاً طول هذه الفترة، يتوجه إلى الله ﷻ بقلبه وقالبه، وينام بعد الساعة الواحدة، ويستيقظ في الساعة الرابعة، ويقضي حاجاته الطبيعية ويشتغل بالنوافل، ويتناول كوباً من الحليب وعدداً من البسكوت وكوباً من الحساء، ثم يقبل على عمله وهو النوافل، حتى يرفع الأذان لصلاة الفجر.

وإليكم جدول أعماله في رمضان سنة (١٣٩٥هـ) وقد سجله نفسه في سيرته الذاتية، وهو كما يلي:

جزآن من القرآن الكريم في النافلة بعد صلاة المغرب، ثم الشاي، ثم قضاء الحاجات ثم المجلس من الساعة الثامنة إلى الساعة العاشرة والنصف، ويضم هذا المجلس البيعة واللقاء مع الضيوف والتحدث إليهم، ثم صلاة العشاء والتراويح من الساعة التاسعة إلى الساعة العاشرة والنصف، ثم قراءة سورة يسٓ جماعياً والدعاء، ثم قراءة «كتاب فضائل الأعمال» إلى الساعة الحادية عشرة والربع، ثم توديع الضيوف إلى الساعة التاسعة عشرة، ثم إغلاق الباب، والباب يغلق إلى الساعة الثالثة، ثم يفتح في الساعة الثالثة، ثم يقدم السحور ثم يقرأ الشيخ الجزأين في صلاة التهجد، ثم يستريح بعد صلاة الفجر إلى الساعة التاسعة، ثم يقرأ الجزأين من القرآن الكريم إلى الساعة الحادية عشرة، ثم يقوم بأمور متفرقة إلى الساعة الواحدة، ثم الذكر والدعاء.

بدأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قضاء رمضان في مسجد دار الطلبة الجديد منذ (١٣٨٥هـ) وفي كل سنة مقبلة يرتفع عدد الزوار والضيوف المقيمين، وكان عدد المعتكفين في الأيام الأولى في رمضان من عام (١٣٨٥هـ) أربعين معتكفاً، وبلغ هذا العدد مئتين في الأيام الأخيرة، وفي سنة (١٣٨٦هـ) اضطر المسؤولون لإقامة سرادقات وإخلاء غرف الطلاب وإنزال الضيوف فيها، وقضى الشيخ محمد زكريا رحمه الله رمضان من سنة (١٣٩٤هـ) في سهارنفور، وكان قد تم بناء الطابق الأول لمسجد دار الطلبة الجديد، ولكنه كان لا يسع لهذا العدد من المعتكفين، وكان يقدر أن عدد الضيوف نحو تسعمئة في الأيام الأولى، ولكن بلغ هذا العدد كما أخبر الشيخ نصير الدين ألفاً وثمانمئة، وكان قد بلغ عدد الضيوف في نهاية العشر الأول ألف نسمة، وارتفع هذا العدد في (٢٧ رمضان) إلى ألفين.

جدول أعماله كما يلي:

إلقاء موعظة في الساعة الحادية عشرة، وهي تستغرق ساعة، ثم الاشتغال بالتلاوة والدعاء من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ثم الاشتغال بالذكر جهراً، وبعد صلاة العصر قراءة كتابي: إكمال الشيم، وإرشاد الملوك، وبعد صلاة المغرب الاشتغال بالنوافل، وتناول العشاء، ثم اللقاءات مع

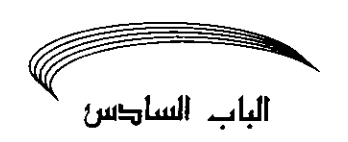
الضيوف المقيمين والقادمين الجدد إلى أن يؤذن لصلاة العشاء، واضطر الشيخ إلى الإقامة بمسجد دار الطلبة الجديد لكثرة عدد الضيوف، كتب الشيخ عن يوم العيد في سنة (١٣٩٤هـ) يقول:

«كنت أظن اليوم بالمصافحات التوديعية أن عدد الضيوف المقيمين قد تقلص، لكني أرى الذين سيمكثون إلى الغد لا يقل عددهم عن خمسمئة رغم اشتغال الضيوف المقيمين بالعبادة، والتلاوة، والنافلة، والأعمال الرمضانية الأخرى، وانقطاعهم إليها في رمضان «سهارنفور»، كان يقول لهم الشيخ: تنامون كما تشاؤون وتأكلون ما تشتهون، ولكن عليكم أن تلازموا الصمت.

أنقل هنا بعض أبيات من القصيدة التي تحمل عنوان «الوداع يا رمضان، الوداع» قالها الشيخ محمد الثاني الحسني ابن أخت الشيخ العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وكانت تنشد هذه القصيدة في اليوم الأخير من شهر رمضان في مجلس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي. وهي تعبّر عما يجيش في نفوس المسلمين من المشاعر والعواطف لهذا الشهر المبارك فيقول:

الوداع يا شهر رمضان، الوداع، القلب كمد على فراقك ومكلوم، فتهب نفحات رحمتك وفضلك كل عام، وتعود رياح رحمتك وتروح كل منزل، ومن يضمن أن نسعد بهذه النفحات مرة أخرى، ويعود عهد الارتواء من المنهل العذب الكوثر، فلنغتنم ما بقي من هذه الساعات المباركة، قبل أن ينتهي هذا الشهر ويغلق الساقي ديره، أيها الساقي لقد حان موعد الوداع، فدعني أرتشف مما بقي في كأسك من شراب.

❊ ❊ ❊



الباب السادس

الإقامة الدائمة بالمدينة المنورة، الرحلات العديدة إلى الهند وشهر رمضان المبارك، ورحلته الأخيرة والإقامة الدائمة

جدول أعماله في المدينة المنورة:

كان من أمنيته الوحيدة التي كانت تراوده منذ صغره هي أن تنتهي رحلته بمدينة الرسول ﷺ، ويقضي فيها ما بقي من أيام حياته على أقدام من تشبث بذيله مدى الحياة، ووهب نفسه لخدمة دينه، وشرح حديثه، والحفاظ على شريعته، وكانت هذه الأمنية تراود أيضاً شيخه ومرشده الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وحققها الله ﷻ وتمكن من الهجرة إلى المدينة المنورة، فاشتعلت هذه الأمنية في قلبه، وازدادت شدة لما كان يعانيه من أمراض وأعذار متنوعة، ولا سيما ضعف بصر، أعجزه عن إلقاء الدروس، ومطالعة الكتب، والخوض في مجال التأليف والتحقيق، فتوجه إلى الحجاز في (١٨ ربيع الأول ١٣٩٣هـ، المطابق إبريل سنة ١٩٧٣م) بنية الهجرة.

فهذه هي الرحلة التي أقام بعدها بالمدينة المنورة إقامة دائمة، وغادر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي «مومباي» يوم الثلاثاء (٢٦ ربيع الأول ١٣٩٣هـ)، وكان لا يمكن حصر الذين جاؤوا لتوديعه، وأنزله المسؤولون عن جماعة الدعوة والتبليغ على مطار «دبي»، فزاره الناس وبايعه عدد كبير، ووصل الشيخ إلى مكة المكرمة في اليوم الثاني (٢٧ ربيع الأول)، وأدى العمرة، وأقام بمنزل الأخ سعدي[١] في مكة المكرمة، وكان من المقرر أن

(١) هو الشيخ محمد سعيد رحمة الله ابن الشيخ محمد نعيم ابن الشيخ محمد سعيد الكيرانوي مؤسس المدرسة الصولتية، يشغل منصب كاتب العدل في مكة المكرمة، ويعد من أعيان مكة المكرمة ووجهائها، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي =

يتوجه إلى المدينة المنورة في اليوم التالي من وصوله إلى «مكة المكرمة»، لكن المرافقين له لم يوافقوا على هذا القرار نظراً لما أصابه من تعب، وداهمه من ضعف، فتمكن من السفر إلى المدينة المنورة في (١٩ مايو ١٩٧٣م) بالسيارة، ووصل إلى المدرسة الشرعية[1] بالمدينة المنورة في الساعة الثانية عشرة والنصف في اليوم التالي، وأقام بها إقامة دائمة، تقع هذه المدرسة على بعد خطوات من المسجد النبوي الشريف، وتقابل باب النساء، مما سهل له الحضور إلى المسجد النبوي وأداء الصلاة المفروضة في رحابها.

كان يعقد له مجلس بعد صلاة الصبح خلال إقامته بالمدينة المنورة، ثم يستريح الشيخ قليلاً، ويتناول المرافقون له الفطور أثناء ذلك، ويقبل الشيخ على أعماله العلمية والتأليفية بعد أن يستيقظ، ويملي الإجابات على الرسائل الواردة إليه، يؤدي الصلوات الخمسة في المسجد النبوي، ويقام مجلس عام في فناء المدرسة الشرعية يقرأ فيه كتاب، ويقابل الشيخ من يزوره ويدخل عليه أثناء قراءة الكتاب، وتبسط المائدة العامة عقب صلاة العشاء، وكان العشاء في المدينة المنورة يختلف عن العشاء في «سهارنفور» حيث كان يهتم بالغداء اهتماماً كبيراً، وتضم المائدة أنواعاً من الأطعمة ويشارك فيه الشيخ نفسه باهتمام بالغ إلا في بعض الأحيان.

وأما العَشَاء في المدينة المنورة فيلقى اهتماماً بالغاً، ويشعر الشيخ بغياب أحد الضيوف شعوراً كبيراً، وقد جربت ذلك أكثر من مرة، فلذلك لا أقبل دعوة توجّه إليّ خلال إقامتي بالمدينة المنورة؛ لأن طبيعة الشيخ تكون على غاية من النشاط، والسرور في هذه الساعة، وكان يراقب الضيوف ويهتم بهم على مائدة العشاء كما كان يهتم بهم على مائدة الغداء في سهارنفور.

كان الشيخ محمد إقبال يتولى مسؤولية إدارة المطبخ، وإعداد الطعام

= والمرافقون له ينزلون عليه ضيوفاً خلال إقامتهم بمكة المكرمة لما كان له من صلة قرابة مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

(١) وقد ضم هذا المعهد إلى المسجد النبوي الشريف.

بالتعاون مع الدكتور إسماعيل والإخوة الآخرين، وكان الشيخ يزور البقيع، ويشارك في حفلات جماعة الدعوة المختلفة التي كانت تعقد في مسجد نور.

الإخوة المحبون في الحجاز:

كان للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ولعائلته صلة بهذه الأرض الطيبة من نوع آخر فيها بالإضافة إلى علاقاته معها علاقة روحية قلبية، لا تعدِلُها علاقة أخرى، وهي أن هذه الأرض الطيبة كانت بمثابة موطنه الثاني من حيث إنه يسكن فيها أسرة الشيخ محمد سعيد الكيرانوي مؤسس المدرسة الصولتية بمكة المكرمة، وكان للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صلة قرابة بهذه الأسرة، وكان الشيخ محمد سليم مدير المدرسة أحد أقاربه، وكان قد أقام الشيخ طويلاً في دار الضيافة للمدرسة الصولتية، وكان قد قضى فيه الشيخ الحاج إمداد الله مدة طويلة، وكان الأخ مسعود شميم ابن الشيخ محمد سليم كأحد أبناء أسرته، وكان الشيخ الحكيم محمد يامين الذي هاجر إلى مكة المكرمة أحد أخواله، وكان الشيخ يشعر بعدما وصل مكة المكرمة كأنه سافر من «سهارنفور» أو إلى «كاندهلة» أو «دلهي».

وهنا في مكة المكرمة يوجد بيت لأخص مسترشديه وهو الشيخ عبد الحفيظ، وقد أجازه الشيخ بصفة خاصة لتمييزه عن غيره من تلامذته ومسترشديه، وقد نال عند الشيخ منزلة لم ينلها إلا عدد قليل من المسترشدين، وذلك لمعرفته لطبيعته واهتمامه بشؤونه، وخضوعه لأوامره، وكان قد أنشأ عند باب العمرة مكتبة تحمل اسم «المكتبة الإمدادية» ليقوم بإصدار كتب الشيخ كأوجز المسالك ورسائله الدينية الأخرى، وكتاب الشيخ خليل أحمد المدني السهارنفوري الشهير المسمى بـ «بذل المجهود» وكذلك أقام الأخ عبد الحفيظ في المدينة المنورة مطبعة تسمى «مطابع الرشيد» لطباعة كتب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ونال بذلك ما لا يناله المسترشدون إلا بعد تضحيات جسيمة، وجهود مضنية من الأدعية والسرور والبهجة التي أعرب عنها الشيخ له بمناسبات مختلفة.

كان الأخ عبد الحفيظ يرافق الشيخ في رحلاته للهند وإفريقية، وكثيراً ما يدعو نيابة عن الشيخ، ويصلى بصلاة الجمعة، ويلقي الخطبة، وكان هو المتحدث باسمه، هاجر والده الشيخ عبد الحق إلى مكة المكرمة، وأنشأ هناك شركة، وكلف أبناءه جميعاً بخدمة الشيخ، وتوفير كافة وسائل الراحة له، ثم اختار الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي منزل الأخ سعدي لإقامته بمكة المكرمة، وكان يسكن في ذلك الحي عدد كبير من الإخوة الباكستانيين، والهنود، أخص بالذكر هنا الأخ العزيز عبد الله عباس الندوي فهو لم يزل يستضيفني أنا والمرافقين في كل رحلة أقوم بها إلى مكة المكرمة منذ سنوات طويلة، وله أيضاً صلة وثيقة بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ويعطف الشيخ عليه وعلى أعضاء أسرته بصفة خاصة، ويقع بيته على بعد خطوات من منزل الأخ سعدي، ويقابله ذلك المسجد الذي بناه الأخ سعدي بعناية بالغة، ويعرف بمسجد الرحمة، ويقع على بعد منه «حي ظفائر»، حيث يوجد مركز الدعوة والتبليغ تقيم به الجماعات القادمة من باكستان والهند.

أما المدينة المنورة فللشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صلة عميقة بها، قضى فيها الشيخ مع شيخه ومرشده خليل أحمد السهارنفوري شهوراً، وتمتع بكرم وعناية شقيق الشيخ حسين أحمد المدني الأكبر وهو الشيخ سيد أحمد الفيض آبادي، وهو من أخص زملاء والده الشيخ محمد يحيى وأصدقائه في بلدة «كنكوه»، وعاش معه سنوات طويلة في تلك البلدة، يأكلان معاً، ويدرسان معاً.

وبعد وفاته قامت الصلة بين شقيقه الأصغر الشيخ السيد محمود والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، واتخذ الشيخ من المدرسة الشرعية مقرّاً لإقامته، وكان الشيخ السيد محمود قد بلغ في حبه للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أنه كان يرسل ثمار بستانه إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي باهتمام كبير، وإذا لم يتمكن من إرسال الأنبج فيرسل إليه عصيره، وكذلك كان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يحمل في قلبه حبّاً واحتراماً للشيخ السيد محمود، وهذا هو الحب الذي ساقه إلى أن يقوم بطبع رسالته بعنوان «الحظ الأوفر في الحج الأكبر» بعدما توفي وكلفني بأن أقدم لها وأعرف بها، ثم أخذ نجله الشيخ

حبيب مدير الأوقاف، وهو من أعيان المدينة المنورة، من مستشاري أمير المدينة مكان أبيه، ووفر كافة التسهيلات لإقامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالمدرسة الشرعية بمنتهى الحب والتقدير.

كانت مسؤولية إعداد برامج الرحلات وترتيب اللقاءات، واتخاذ الإجراءات اللازمة، وتوفير وسائل الراحة خلال إقامته بالمدينة المنورة تعود إلى الشيخ القاضي عبد القادر، وكان قد قدم إلى المدينة المنورة من موطنه «جهاوران» بباكستان، ومكث بالمدينة شهراً كاملاً لمجرد خدمة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وإراحته، وكان لا يخرج من المدينة المنورة إلا للمشاركة في الاجتماعات الدعوية المهمة بصورة مؤقتة، وكذلك كان للشيخ سعيد أحمد خان أمير جماعة الدعوة في «الحجاز» علاقة وثيقة مخلصة مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان يعتبر نفسه مضيفاً له، ومسؤولاً عن أموره، ويجد لذة في خدمته.

وكذلك كان من ثقات الشيخ في المدينة المنورة الحاج أنيس أحمد نجل الحاج الشيخ رشيد أحمد الميرتهي، والشيخ آفتاب عالم نجل الشيخ السيد بدر عالم الميرتهي، والمقرئ عباس البخاري، والأخ سيد حسن عسكري طارق.

مما يدعو للأسف أن إخواننا العرب وشباب الكليات والجامعات والحجاج القادمين من الدول العربية لم ينتهزوا هذه الفرصة التي أتاحها الله ﷻ لهم كما ينبغي، وذلك لتغير الطبيعة والذوق ووجهة النظر، وإثارة بعض المنظمات والحركات الشكوك والشبهات، ونشر سوء الظن وسوء التفاهم ضد التصوف (الإحسان).

ولم يشعروا أن عالماً ربانيّاً ومحدثاً جليلاً، ومتبعاً لسُنَّة رسول الله ﷺ، ومتمتعاً بنسبة عالية يرتمي تحت أقدام النبي ﷺ في ظل المسجد النبوي الشريف لخدمة الدين، وتربية النفوس بعدما أحرق السفن كلها يقيم تحت ظل المسجد النبوي.

ولكني ما رأيت إلا عدداً ضئيلاً من إخواننا العرب الذين أبدوا رغبتهم في اللقاء معه حين عرفتهم عليه، وزاروه في مقره، وأعربوا عن إعجابهم بعلمه

وزهده، أخص بالذكر منهم الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر، والأستاذ محمد المبارك، عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقاً، والعلامة الحبيب بلخوجه المحدث ومفتي تونس، وعدد من العلماء العرب الأفاضل، وهؤلاء هم العلماء الذين كانوا يزورون المدينة المنورة للمشاركة في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وتسنح لي فرصة بصفتي عضواً للمجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للاجتماع بهؤلاء الإخوة الأفاضل خلال جلسات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

كان الحاج محمد سعيد رَحِمَهُ اللهُ (الأخ سعدي)، مضيف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في مكة المكرمة، يتولى مسؤولية اتخاذ الإجراءات اللازمة لسفر الشيخ من استخراج التأشيرة، وإرسال التذاكر، وحجز المقاعد بشكل دائم، وحاول هذه المرة بعد قدوم الشيخ تمديد مدة صلاحية التأشيرة عن طريق الشيخ محمد صالح القزاز، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وشاركه في هذا الجهد العالم المكي الشهير السيد علوي المالكي، وكانت هذه الجهود تبذل إذ نبأٌ بلغنا في (١٦ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ، المطابق ١٧ يوليو ١٩٧٣م) أن تصريح الإقامة قد صرف للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وأبدى الإخوة استغرابهم الشديد، ولم يتأكدوا من ذلك، وقالوا: هناك عدد كبير مضت عليه سنوات، ولم يتمكنوا من الحصول على الإقامة رغم شفاعة أعيان البلد لهم، ورأى بعض منا أن هذه الإقامة قد تم إصدارها بأمر من الملك فيصل مباشرة.

وعلى كل، يرجع فضل إصدار الإقامة إلى جهود بذلها العالم المكي الكبير علوي المالكي، ثم غادر الشيخ إلى مكة المكرمة، وكان ينوي أن يسافر إلى «باكستان»، ليشارك في اجتماع دعوي كبير يعقد في «رائي وند»، لكنه لم يستطع أن يقوم بهذه الرحلة لحلول شهر رمضان المبارك، وتوجَّه الشيخ إلى «تنعيم» مباشرة بعد تناول الطعام في منزل الشيخ محمد سليم، وهناك لبس الإحرام للعمرة، وذهب إلى منزل الأخ سعدي بعد أن انتهى من الطواف

والسعي، واستراح هناك قليلاً، وغادر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى المدينة المنورة في (١٥ رمضان) بعد صلاة التراويح ليقضي النصف الأخير من رمضان في المسجد النبوي بالمدينة المنورة معتكفاً كما أمضى النصف الأول من رمضان في مكة المكرمة معتمراً، اعتكف الشيخ هذه المرة في مكان [عند باب عمر] يتقدم باب ملك سعود، وفي ليلة السادس والعشرين أذيعت الأنباء عن اندلاع نيران الحرب بين مصر وإسرائيل، فاهتم الشيخ بختم الجامع الصحيح للبخاري في تلك الليلة بصفة خاصة، وأعلنت الإذاعة وقف إطلاق النار.

○ رحلاته إلى الهند وباكستان:

لم يتمكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من السفر إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج في هذه السنة، لإصابته بالحمى بعد شهر رمضان، فحج الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي مع عدد من رفقائه في هذا العام وكان قد اعتبر الشيخ المدينة المنورة موطنه الأصلي بعد حصوله على التأشيرة بالإقامة؛ لأنه كان لا يسمح لمن يحمل التأشيرة والإقامة أكثر من ستة أشهر خارج البلد، وكان يخشى أن تلغى له الإقامة في حالة مخالفة القانون، ولحادث وفاة الشيخ محمد هارون في ريعان شبابه، وحدوث بعض المشاكل ألحّ عليه بعض الإخوة بالقدوم إلى الهند، بينما أبدى بعض الإخوة المحبين رغبتهم في أن يقضي الشيخ أيام رمضان في مدينة سهارنفور في حالة مجيئه إلى الهند، ليستفيد الإخوة الهنود خلال إقامته بسهارنفور، استفادة اجتماعية بعيدة المدى، ونجحت محاولات المسؤولين عن جماعة الدعوة لاستخراج التأشيرة للسفر إلى باكستان، فغادر الشيخ المدينة إلى مكة المكرمة في (٣ جمادى الأولى سنة ١٣٩٤هـ)، وكنت أيضاً من المرافقين له في هذه الرحلة، فغادر بعد صلاة المغرب، ومكثنا في «بدر» عشرين ساعة على دعوة من الدكتور إسماعيل، وكان يعمل طبيباً في المستشفى هناك، بتنا الليلة في ساحة مسجد عريش، غادرنا بدراً إلى مكة المكرمة عقب صلاة العصر، ووصلنا إلى المدرسة الصولتية ليلاً.

● عودته إلى الهند بطريق باكستان:

في الثاني والعشرين من يوليو سنة (١٩٧٤م) غادر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي جدة إلى كراتشي، وهبطت الطائرة به على مطار كراتشي في الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة، وكان المطار مزدحماً، ويقدر عدد الذين وصلوا إلى المطار للترحيب به بنحو ثلاثة آلاف، صلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صلاة الظهر في مسجد مكي، وزار مدرسة الشيخ المفتي محمد شفيع [المعروفة بدار العلوم كراتشي] ومدرسة الشيخ محمد يوسف البنوري [المعروفة جامعة العلوم الإسلامية]، لقي خلال إقامته مع الشيخ ظفر أحمد العثماني، ثم توجه الشيخ يوم الجمعة إلى «رائي وند» [مركز الدعوة والتبليغ لمسلمي باكستان] حيث كان ينتظره حشد كبير من الإخوة المحبين بفارغ الصبر، ومن هنا اتجه الشيخ إلى بلدة «دهديان»، وكان هناك أيضاً قد تجمع عدد كبير من محبيه ومسترشديه، واضطر الشيخ إلى الذهاب إلى كراتشي؛ لأن المقاعد قد تم حجزها من «كراتشي» إلى «دلهي»، فوصل إلى دلهي في (١٤ يوليو) وأقام بها يوماً ثم توجه إلى سهارنفور في (١٦ يوليو) وتهافت عليه تلامذته ومسترشدوه من مناطق بعيدة.

سافر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي خلال إقامته بالهند إلى منطقة ميوات، وشارك في اجتماع دعوي عقد في سهارنفور في شهر أغسطس، وقضى رمضان سنة (١٣٩٣هـ) في مسجد دار الجديد باهتمام بالغ، وكان الناس يعتقدون أن هذه الأيام من رمضان تشهد حشداً كبيراً، وهكذا حدث فبلغ عدد الضيوف في الأيام الأولى من رمضان نحو تسعمئة، وبلغ هذا العدد في الأيام الأخيرة ما يقارب ألفاً وثمانمئة، وصلى بالتراويح هذه السنة الأخ خالد شقيق الأخ الأصغر سلمان، وكان يقرأ ثلاثة أجزاء كل ليلة ليتم القرآن الكريم في كل عشرة أيام، وقد حضرت أيضاً على عادتي ليومين، وكان الشيخ يهتم بالفطور بعد صلاة التراويح اهتماماً كبيراً حين أحضر إليه.

مما يدعو للقلق أن صحة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في تدهور مستمر خلال رمضان، وقد داهمته أمراض مختلفة، فأراد أن يعود إلى الحجاز

في (١٥ ذي القعدة ١٣٩٤هـ، المطابق ٣٠ نوفمبر ١٩٧٤م)، وانتشر الخبر، فتدفق إليه الناس، حتى امتلأ الطريق بين منزله ودار الطلبة الجديد بالزوار والمودعين، وسافر الشيخ إلى «دلهي»، ثم غادر إلى «مومباي» بالطائرة في (١٨ ذي القعدة ١٣٩٤هـ، المطابق ٣ ديسمبر ١٩٧٤م)، وتوجه إلى كراتشي في (٦ ديسمبر)، ووصل إلى «مكة المكرمة» في اليوم التالي سالماً، وكانت «مكة المكرمة» مزدحمة لدنو أيام الحج، فأقام بالمدرسة الصولتية خمسة عشر يوماً، ثم انتقل إلى منزل الأخ سعدي بصورة دائمة، وبعدما انتهى من أداء مناسك الحج توجه إلى المدينة المنورة بعد مبيت ليلة في بدر، في (١٥ ذي الحجة)، وأقام في المدينة المنورة بالمدرسة الشرعية حسب عادته.

ثم رحل الشيخ إلى الهند في عام (١٣٩٥هـ)، وكان ينوي أن يقضي بعض أيام رمضان في الهند، فغادر مكة المكرمة في (٢٨ رجب ١٣٩٥هـ، المطابق ٦ أغسطس ١٩٧٥م)، ووصل إلى مومباي في نفس اليوم، وبقي هناك يومين، ثم توجه إلى دلهي في (٨ أغسطس ١٩٧٥م، المطابق ١ شعبان ١٣٩٥هـ) وتم ختم البخاري في (٢ أغسطس ١٩٧٥م، المطابق ٣ شعبان ١٣٩٥هـ)، وقرأ الحديث المسلسل بالأولية، وقرأ الشيخ محمد يونس الحديث الأخير من صحيح البخاري، وقرأ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نص الحديث، ثم وصل الشيخ إلى دار الطلبة الجديد يوم الإِثنين في (١ رمضان، المطابق ٨ سبتمبر) بعد صلاة العصر على عادته.

أتم القرآن الكريم في العشر الأول الأخ محمد زبير بن إنعام الحسن الكاندهلوي، وفي العشر الثاني الأخ السيد محمد خالد السهارنفوري، وفي العشر الأخير الأخ السيد سلمان السهارنفوري [مدير جامعة مظاهر علوم بسهارنفور]، وصل الشيخ إلى «رائي وند» بالسيارة مارّاً ببلدة «باني بت»، وشارك في الاجتماع الذي عقد فيها، ثم توجه إلى بلدة «دهديان»، ومدينة «راولبندي»، ومن هناك غادر إلى «كراتشي»، على متن الطائرة، ومن «كراتشي» غادر إلى «جدة» مباشرة، واعتمر بعد وصوله إلى مكة المكرمة، وأقام وأدى مناسك الحج، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ إنعام الحسن ثم عاد إلى المدينة المنورة بعد فراغه من شؤون الحج.

وفي سنة (١٣٩٣هـ) سافر إلى الهند، وذلك في (١٢ جمادى الثانية ١٣٩٦هـ، المطابق ١٢ يوليو ١٩٧٦م)، وقضى أيام رمضان في مسجد دار الطلبة الجديد، وأتم القرآن الكريم في العشر الأول الأخ السيد سلمان السهارنفوري، وفي العشر الثاني والثالث الأخ زبير الكاندهلوي، نجل الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، وكان قد قدم عدد كبير من الشخصيات البارزة ممن كان لهم صلة بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من خارج البلاد، وحضرت أنا والمرافقون لي لمدة ثلاثة أيام، ثم غادر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى جدة عن طريق كراتشي، بعدما انقضى شهر رمضان، وكان من الصعب عليه أن يعتمر لإصابته بالحمى ومواجهته للزحام، فاضطر ليغادر جدة إلى المدينة المنورة مباشرة.

وفي (٢٤ مايو ١٩٧٧م) تلقى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رسالة وجهها إليه الأخ سعدي أخبره فيها أن الطلب الذي كان قد رفع إلى الملك فيصل بشأن التأشيرة للإقامة قد نال موافقة من الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وتمت الإجراءات اللازمة لها بعد أيام، ووصلت هذه التابعية إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في (٢١ يوليو ١٩٧٧م)، فنوى الهجرة بناء على ذلك، ووجه إليّ رسالة بعد وصول التابعية إليه وكتب فيها:

«أصابني همٌّ بعدما تلقيت هذه التابعية بدلاً من السرور والبهجة، وذلك لأنني لست واثقاً بنفسي، فلا أدري هل أتمكن من الالتزام بشروط الإقامة في هذه الأرض المقدسة، ومراعاة آدابها أم لا، فَادْعُ الله لي أن يجعلني من الذين رعوا آداب هذه المدينة المباركة حق رعايتها، وكان قد كتب على هذه الرسالة محمد زكريا المهاجر المدني.

سافر الشيخ إلى الهند في جمادى الأولى عام (١٣٩٧هـ) بعد تلقي التابعية، ووصل إلى سهارنفور وشارك في ختم «صحيح البخاري» في (١٠ شعبان) في العشر الأول والثالث، وكان الزحام في هذه السنة أكثر من السنة الماضية، وأتم القرآن الكريم الأخ السيد محمد سلمان السهارنفوري، وكان العشر الثاني للأخ السيد محمد خالد السهارنفوري، وعاد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الحجاز في شهر أكتوبر سنة (١٩٧٧م)، المطابق سنة

(١٣٩٧هـ) وغادر جدة إلى المدينة المنورة، وألغيت هذه السنة الإقامة بمدينة سهارنفور خلال شهر رمضان، وأخبر الجميع بذلك، وقيل لهم: أن يقضوا رمضان في أماكنهم.

قضى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رمضان سنتي (١٣٩٨هـ) و(١٣٩٩هـ) في مسجد دار الطلبة الجديد بسهارنفور، بنفس الاهتمام المعتاد الذي شهدته السنوات الماضية، وقد بلغ عدد المعتكفين في رمضان سنة (١٣٩٨هـ) أكثر من ألف، وضاق بهم المكان، ولم يسمح لأحد من المعتكفين أن يعتكف أكثر من عشرة أيام حتى تتاح الفرصة للآخرين، وقرأ الأخ سلمان وحده القرآن في صلاة التراويح على خلاف العادة.

وكان من المقرر أن يقضي الشيخ رمضان سنة (١٤٠٠هـ) في مدينة «فيصل آباد»، (لائل نبور سابقاً) بناء على دعوة من الإخوة الباكستانيين، وكان الشيخ المفتي زين العابدين من أشد الناس دعوة إلى ذلك، وكان من المسؤولين الكبار عن جماعة الدعوة والتبليغ، ولم يغتنم الإخوة الباكستانيون والمشتغلون بالدعوة هذه الفرصة فحسب وإنما اعتبروها نعمة إلٰهية، وحاولوا أن يستفيدوا منها كل الاستفادة، أقام الشيخ في دار العلوم فيصل آباد، وقضى شهر رمضان بما فيه من الاشتغال بالعبادة والتلاوة والبركات الدينية والأعمال الروحية، وإليكم تفاصيل يوم واحد من أيام رمضان المبارك هذه.

كان يعقد مجلس قبل أن يؤذن لصلاة العشاء بنصف ساعة، ويحضر العلماء ويجلس فيه الشيخ متجهاً إلى الله بقلبه، ويجلس الحاضرون له ثم يبايع الشيخ القادمين الجدد، يتراوح عددهم بين الثلاثين والأربعين، ويعلن الشيخ محمد إحسان ببعض الأمور قبل البيعة، وينطق الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بكلمات البيعة بصوت خافت، ويعيدها الشيخ محمد إحسان بصوت رفيع، ثم يردد الحاضرون هذه الكلمات مجتمعين تبعاً له، وقد قرأ من القرآن الكريم في صلاة التراويح هذه المرة جزءاً وربعاً، وبعد انتهاء من صلاة التراويح يجلس الجميع لقراءة سورة يسٓ، ثم يدعو الشيخ ثم يقرأ كتاب على الحضور، ثم تغلق غرفة الشيخ، ويشتغل الآخرون بالعبادة، وبعد صلاة الظهر يعقد مجلس

للذكر والدعاء، وبعد صلاة العصر يقام مجلس يقرأ فيه الشيخ معين تلك الكتب والرسائل التي كانت تقرأ عادة في رمضان، ويستمر ذلك إلى موعد الإفطار.

أنقل هنا تلك الرسالة التي وجهها إليّ الشيخ بعدما وصل إلى «سهارنفور» من «فيصل آباد» في (١٩ شوال سنة ١٤٠٠هـ).

أخي أبو الحسن الحسني الندوي

بعد التحية المسنونة

أنتظر دائماً رسالتك رغم ما لك من أعذار، كانت صحتي جيدة حين كنت في فيصل آباد، ووصلت إلى «دلهي» سالماً معافًى، لكن الأمراض قد ألزمتني الفراش بعدما وصلت إلى «سهارنفور»، وأصبحت الآن ألازم الفراش على مدار أربع وعشرين ساعة، لا لقاءَ، ولا تنقل، ولا زيارة، ولا كلام، حتى لا أستطيع أن أذهب إلى المسجد، فأصلي في البيت مكرهاً ويخطر ببالي في بعض الأحيان لعل الموت ساقني إلى الهند، تلقيت خمسين نسخة من «الكوكب»، ووصلني الجزء الرابع من «رجال الفكر والدعوة»، لكن لم أستطع أن أسمع منه رغم ما في قلبي من رغبة شديدة في الاستماع له، لم أزل أعاني من تدهور الصحة مما جعلني لا يسوغ لي الطعام والشراب، وكل ما أتناوله في يوم وليلة لا يعد أن يكون ملعقة أو ملعقتين من الدواء، وينتابني قلق بالغ حين يخبرني الإخوة بأنك أيضاً تواجه أعذاراً، وقد أشار عليّ الكثير، بما أشرته عليّ أن لا أستعجل في العودة، وكان من رأي الشيخ إنعام الحسن أيضاً أن أنتظر بداية القرن، ولكن القلق لا يزال يساورني وأنا أعرف أنكم أشد رغبة في وصولي إلى «سهارنفور» مني، لكنني أجد نفسي تعجز عن تحقيق هذه الرغبة، وكلنا يخضع لما يشاء له القدر، أملي هذه الرسالة وأنا مضطجع على السرير لكي لا يطول بك الانتظار، نقابلكم إذا بقيت على قيد الحياة.

محمد زكريا الكاندهلوي

١٩ شوال ١٤٠٠هـ



الباب السابع

رحلاته الدعوية والتربوية لبريطانيا وجنوب إفريقية

◙ رحلته الأولى إلى بريطانيا:

سافر الشيخ إلى بريطانيا في شهر يونيو سنة (١٩٧٩م) لأول مرة على دعوة من أحد مسترشديه، وهو الشيخ يوسف متالا[1]، وكان قد أنشأ في مدينة «هولكب بري» (Holcomb bury) «لنكاشاير» مدرسة دينية عربية كبيرة تسمى بدار العلوم، قبل عدة سنوات، وسرعان ما تحولت هذه المدرسة إلى مركز دعوي وتربوي وإصلاحي في «بريطانيا»، وتقع هذه المدرسة على بعد (١٠٠٨) كيلو متر من مدينة «بوستن»، في منطقة سياحية، وكان مبنى هذه المدرسة يستخدم من قبل لإقامة الاحتفالات، ولكن تخلى عنه المسؤولون لسبب ما وعرضوه للبيع، فتم شراؤه على يد الشيخ محمد يوسف متالا بمبلغ مئة ألف وخمسة عشر جنيهاً.

نزل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على مطار «مانجستر» في الساعة العاشرة والنصف ليلاً في (١٤ يوليو سنة ١٩٧٩م)، وكان قد وصل إلى المطار قبل هبوط الطائرة مئات من الإخوة المحبين له من مناطق مختلفة ليسعدوا برؤيته، ووقف المحبون له في طابورين على جانبي الطريق حيث كان من المقرر أن ينزل من السيارة ويجلس على كرسي المعاقين، ويتوجه إلى الغرفة المخصصة لإقامته، فتمركز هؤلاء الرجال في الطريق لتسنح لهم فرصة لإلقاء

(١) مؤسس هذه الجامعة الشيخ يوسف متالا وشقيقه الأكبر الشيخ عبد الرحيم متالا كلاهما من أحب مسترشديه، وقد زرت هذه الجامعة في مايو سنة (١٩٧٦م) في سفري إلى إنكلترا، وأسس الشيخ عبد الرحيم جامعة دينية في جباتا بزامبيا بأمر من شيخه.

نظرة على هذه الشخصية التي يحملون لها في قلوبهم حبّاً وتقديراً، ولقي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هؤلاء الزوار وصافحهم بعد صلاة العشاء في منتصف الليل، واستغرقت هذه العملية ساعة، ثم لجأ إلى الفراش ليستريح قليلاً، وكانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع، ثم استيقظ في الساعة الرابعة ليصلي الفجر، وبدأ بعد ذلك برامجه اليومي وهو كما يلي:

بعد صلاة الفجر يجلس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ويتلو من القرآن الكريم ما تيسر له، ثم يشتغل بالذكر والتسبيح والدعاء، يتناول وجبة الفطور في الساعة الثامنة والنصف، ثم يقرأ أحد من الإخوة كتاباً من كتبه التي تعالج تزكية النفس وتهذيبها، وذلك من الساعة العاشرة والنصف إلى الساعة الحادية عشرة والنصف، يتناول الغداء في الساعة الواحدة، ويصلي الظهر في الساعة الثالثة والنصف، وبعد صلاة الظهر يقرأ الجميع بعض سور من القرآن الكريم كسورة «يسٓ» مجتمعين، ثم يكون الدعاء، ثم يشتغل عدد منهم بالذكر جهراً، بينما يجلس عدد منهم يصلي على النبي ﷺ ويستغفر الله ويتوب إليه، ويشرب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كوباً أو كوبين من الشاي في الساعة السادسة، ثم يلقي الشيخ محمود حسن الكنكوهي (أحد كبار مسترشديه وتلامذته) كلمة تستغرق ساعة، يصلي الشيخ العصر في الساعة الثامنة، ويتناول العشاء عقب صلاة العصر، يصلي المغرب في الساعة العاشرة إلا الربع، ويعقد في المكان الذي كان يصلي فيه مجلس عام لمدة ساعة، ثم يصلي العشاء في الساعة الحادية عشرة والنصف.

وكان الناس يتوجهون إلى المدرسة ويجتمعون فيها بعدما أغلقت مكاتبهم، ومصانعهم ومحلاتهم التجارية، وكان يبلغ هذا العدد في أكثر الأحيان آلافاً، وكان للقادمين أن يصلُّوا على النبي ﷺ ألف مرة على الأقل، وكان قد أمرهم الشيخ بذلك قائلاً:

إن اجتماعكم لدي لا يجديكم وإنما يجديكم العمل فقط، فعليكم أن تصلُّوا على النبي ﷺ، وتحترزوا عن الوقوع فيما لا يَعْني كل الاحتراز، واشغلوا أنفسكم وألسنتكم بذكر الله ﷻ أكثر ما يمكن لكم.

وبعدما يفرغ الناس من الصلاة على النبي ﷺ يتقدم كل من يريد أن يبايع على يد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ويردد ما يلقنه الشيخ من تجديد الإيمان، والاجتناب من المعاصي، والوعد بالطاعة، والخضوع لأوامر الله، والامتناع عن كل ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية، فيقول الشيخ بصوت خافت ويعيدها الشيخ عبد الحفيظ المكي على مكبر الصوت.

أقام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في بريطانيا نحو عشرة أيام، وحدد يوم الإِثنين (٢٨ يوليو) من بين تلك الأيام لزيارة مركز جماعة الدعوة في «ديوزبري» ببريطانيا، فغادر الشيخ في الساعة العاشرة والنصف، واستجم قليلاً بعدما وصل إلى «باتلي» حيث كان من المقرر أن تبايعه النساء، ثم توجه إلى «ديوزبري»، ولما عاد من «ديوزبري» تبعه حشد كبير من أهالي تلك المدينة كما يتبع الفراش الشمعة، وتدفق إليه الناس من المناطق المجاورة لهذه المدينة، وامتلأت الشوارع والساحات بالسيارات.

كان قد تقرر من قبل أن تعقد حفلة في المسجد الذي يسمى باسم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يوم الأحد (١ يوليو) في الساعة الثانية عشرة خلال زيارته لـ«ديوزبري»، وكان يقع هذا المسجد في «بولتن» على بعد عشرة أميال من دار العلوم، فألقى الشيخ محمود حسن الكنكوهي كلمته في هذا الاجتماع، وبايعت النساء على يد الشيخ، وتناول الشيخ الغداء هناك، وغادر الشيخ إنكلترا في الخامس من يوليو وعاد إلى الهند[١].

● رمضان جنوب إفريقية التاريخي:

نظراً إلى ما كان يعتري الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من النقاهة، وما كان يصيبه من الأمراض التي أعجزته حتى عن القيام والقعود فضلاً عن المشي والتنقل، كان يبدو من المستحيل أن يتمكن الشيخ من السفر في الأيام

(١) راجع للتفصيل: مجلة «الفرقان» الصادرة من لكنو الهند عدد رمضان المبارك ١٣٩٩هـ.

المقبلة، لكن الأمور تجري وفق ما هو مرسوم لها من التقديرات والأحوال، ولا يستطيع أحد أن يعلل هذه الرحلة التي قام بها الشيخ إلى جنوب إفريقية إلا بأن الله ﷻ قد أراد أن ينعم بها على مجموعة من المسلمين الذين يعيشون في هذه المنطقة النائية التي تشهد صراعاً بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية منذ أمد بعيد، معتزين بدينهم، متثبتين بعقيدتهم، متضلعين بثقافتهم رغم مواجهتهم العواصف الهوجاء وتعرضهم لأنواع من المحن والشدائد، ولم يزل ينتقل فيهم الاحترام للدين، والتقدير للعلماء جيلاً بعد جيل، فساق إليهم البئر ليلقي فيه الظامئون الدلاء، ويسقون بمائه العذب الصافي أرواحهم الظامئة، وقلوبهم المتعطشة بدلاً من أن يتحملوا المشاق في سبيل الوصول إلى هذا النبع الصافي لينهلوا منه.

فوصل الشيخ إلى جنوب إفريقية وكان ذلك اليوم الذي وصل فيه الشيخ كيوم عيد لأهالي تلك المنطقة، فتدفقوا إليه كالسيل، وانجذبوا إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس، وأعربوا عن حبهم له وإعجابهم به، جدد ذلك ذكريات رحلة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد للحج، وزيارته لـ«دوآبه»، سجل الشيخ انطباعاته عن هذه الرحلة في رسالة وجهها إلى أحد مسترشديه، فإليكم نص هذه الرسالة:

لم يزل يلحّ عليّ الإخوة المحبون بأن أقضي رمضان هذه السنة في جنوب إفريقية، لكن لا أتشجع أن أعدهم بذلك لتدهور صحتي، ومعاناتي من الأمراض، وتعرضي للوهن، والضعف، ولكني أبديت موافقتي على القيام بهذه الرحلة إلى تلك البلاد تقديراً لرغبات أهاليها المسلمين في زيارتي لهم.

وضع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لهذه الزيارة شروطاً أمام الشيخ يوسف متالا (أحد مسترشدي الشيخ وخلفائه ودعاة تلك الرحلة) منها: أن أشتري التذاكر لنفسي ولمن يرافقني في هذه الرحلة.

لا يسمح لأحد أن يقبل هدية إلا من الذين يقدمون له الهدايا عادة.

لا يطلب مني أحد أن أذهب معه إلى منزله أو مدرسته أو مركزه لأن صحتي لا تسمح لي بذلك.

لا يهتم بالطعام أي اهتمام، ولا تضم المائدة أنواعاً من الأطعمة، يكفي نوع أو نوعان من الطعام البسيط، ولا حاجة إلى أكثر من ذلك، ولكن عليك أن تجمع عدداً من الذاكرين الذين يشتغلون بالذكر بغاية من الاهتمام.

وبمجرد انتشار خبر رحلة الشيخ إلى إفريقية عرض عليه بعض أثرياء «إفريقية» أن يتحملوا تكاليف هذه الرحلة والمصروفات الأخرى، لكن الشيخ رفض هذا العرض بقوة، ودفع بنفسه سعر تذكرته وتذاكر المرافقين له في هذه الرحلة، وكلفته هذه الرحلة مئتي ألف روبية باكستانية.

وعلى طلب من الشيخ محمد سعيد أنغار مدير المركز الإسلامي بـ «ري يونين» (Reunion) وافق الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على الزيارة لـ «ري يونين» (Reunion)، معرجاً على (Stinger) وأكد على الشيخ محمد سعيد أن يسعى لإقامة الزوايا الروحية، وعقد مجالس الذكر في منطقته، غادر الشيخ المدينة المنورة يوم السبت في (٤ شعبان ١٤٠١هـ، المطابق ٦ يوليو ١٩٨١م)، واعتمر ومكث عشرة أيام، ثم توجه من جدة إلى (Reunion) في (١٦ يوليو ١٩٨١م) وأقبل على أمور كان يمارسها عادة في رمضان فور وصوله إلى تلك المدينة، وأقام بها أربعة أيام، ثم سافر من (Sand Denis) إلى (Saend Riere) صباح يوم الإثنين في (٢٠ يوليو)، وتوجه في اليوم التالي إلى دربن (Durban) ولقي هناك حفاوة بالغة، وجعل الناس يطلقون لحاهم قبل وصوله إليهم، ونشأ فيهم الحماس للدين بصورة مدهشة، انتقل الشيخ إلى جامع (Satanger) في (٢٩ شعبان)، وانتقل معه جميع الضيوف، ونوى الاعتكاف لشهر كامل، وكانت هذه الأيام من أشد الأيام برودة في هذه المنطقة لوقوعها على خط الاستواء على عكس الهند، لكن استينكر (Stanger) تقع في منطقة منخفضة، ولذلك يكون مناخها معتدلاً، واختير جامع استينكر (Stanger) كمقر إقامته لاستيعابه أكبر عدد من القادمين، وهو يتكوّن من ثلاثة طوابق يسع الطابق الثالث لألف ومئتي رجل، بينما يستوعب الطابق الأول والثاني ألف نسمة، وهو يشتمل على عدد من دورات المياه وعلى ساحة كبيرة لوقوف السيارات، ويتوفر فيه الماء البارد والساخن على مدار أربع وعشرين ساعة، ويتمتع بموقع هادئ جميل رائع.

وقد أخبرني أحد الإخوة أن عدد الحاضرين كان يبلغ ستة آلاف يومي السبت والأحد، حتى اضطر المسؤولون لإقامة أربعة سرادقات حول المسجد لكي لا يشعر أحد بضيق المكان، واضطروا لاستخدام الجهاز اللاسلكي للسيطرة على الحشد الذي يشهده يوم السبت والأحد.

وأقيم بجانب المسجد مكتب الاستعلامات بصورة مؤقتة، وتم تشكيل جماعة مكونة من مئة رجل لخدمة الضيوف، خصص خمسون منهم للسحور، وخمسون آخرون للإفطار.

ساد هذه المنطقة كلها جو إيماني بسبب قضاء الشيخ رمضان في هذه المنطقة وتعالت الهمم، وأنشئت المدارس، وشيدت المساجد، وأقيمت مجالس الذكر، وأسست كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وأقيمت حلقات التعليم، ومال رجال الأعمال وأصحاب الثراء إلى الدين، وأبدوا رغبتهم في تلقي العلوم الإسلامية، وقرروا إرسال أبنائهم إلى المدارس الدينية الواقعة بمناطق بعيدة.

ومن جانب، عاد النشاط إلى الجهود الذي كانت تبذلها جماعات الدعوة والتبليغ منذ سنوات، ووفد إليه الناس من مناطق بعيدة، حتى وصل إليه عدد كبير من الدول الإفريقية الأخرى، ليزوروه وينهلوا منه ويتبركوا به، وكانت عيونهم تدمع عندما يفارقونه.

نوى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن يعتكف طوال الشهر، ووضع له جدول للأعمال اليومية: بعد صلاة الظهر تلاوة القرآن والدعاء، ثم يعقد مجلس الذكر، وبعد صلاة العصر يُقرأ كتاب ثم يكون الإفطار، وبعد صلاة المغرب الاشتغال بالنوافل، وبعد العشاء يعقد مجلس ويبايعه الناس، وبعد صلاة التراويح تقرأ سورة يسٓ، ثم يكون الدعاء، ثم يقرأ كتاب فضائل الصلاة على النبي ﷺ، ثم يجلس الشيخ ليصافح الزوار والضيوف، ويستغرق هذا العمل ساعة أو أكثر، ويسهر بعض المعتكفين والزوار إلى ساعات متأخرة من الليل مشتغلين بالنوافل، وبعض منهم يستريح، وبعضهم يشتغل بالتسبيح والتهليل، وينام معظمهم بعد صلاة الفجر والإشراق، بينما يشتغل عدد منهم بالتلاوة، وتلقي الموعظة يومياً.

يلقي الشيخ المفتي محمود حسن الكنكوهي موعظته يوماً، بينما يلقي

الشيخ عبد الحليم الجونبوري (مؤسس جامعة رياض العلوم في غوريني بجونبور الهند) موعظته يوماً آخر، وأما الكتاب فيقرأ على الحاضرين الشيخ معين الدين المراد آبادي، والشيخ شاهد السهارنفوري (سبط الشيخ الكاندهلوي) بالتناوب، وصلى الشيخ السيد سلمان السارنفوري (ختن الشيخ محمد زكريا) بالتراويح، ويدعو الشيخ عبد الحفيظ المكي في معظم الأحيان نيابة عن الشيخ، ويكون دعاؤه طويلاً يشمل جميع القضايا التي يواجهها المسلمون في العالم، ويدعو فيه لإعلاء كلمة الإسلام وانتشار الدين في العالم كله بصفة خاصة.

وكان قد بلغ عدد المعتكفين في الأيام الأولى من شهر رمضان مئات، ثم ارتفع هذا العدد، وتجاوز الآلاف في الأيام الأخيرة، يعتكف الإخوة الذين كانوا من داخل المدينة في الدور الأرضي للمسجد، وأما الضيوف الذين جاؤوا من خارجها فهم يعتكفون في الدور العلوي، وهذا الجزء يعتبر من أصل المسجد، ولم يزل يزداد عدد الزوار، ويبلغ في بعض الأحيان ولا سيما يومي السبت والأحد خمسمئة ألف نسمة.

وفي (٤ أغسطس سنة ١٩٨١م، المطابق ٣ شوال ١٤٠١هـ) يوم الثلاثاء، دعا الشيخ عبد الحفيظ المكي بعد ختم سورة يسّ دعاء مودّع، أجهش الناس بالبكاء، وركب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على السيارة في الساعة الثانية، وغادر مسجد إستينكر إلى سيلفركلين (Silver Glin) معرجاً على مناطق عديدة، دعا فيها استجابة لرغبة من تجمع من المحبين والمسترشدين، وتوجه من هناك إلى (Richmond) ومن هناك إلى (Martoz bury) حيث صافحه أكثر من ثلاثة آلاف رجل، ومن هنا اتجه إلى (Ispingo Beach) حيث اجتمع ألف رجل، وأدى صلاة الجمعة هناك، وكان من المقرر أن يغادر دربن (Durban) إلى (Whit River) بالطائرة المستأجرة حيث كانت تقف الطائرتان المستأجرتان تنقلان الشيخ والمرافقين له إلى الهند، وقد استأجرهما الشيخ محمد قادري، وكان المطار مزدحماً، لكن رجال الشرطة وأجهزة الأمن يتولون المسؤولية كلها، وكان عدد السود من المسلمين الجدد كبيراً يبلغ نحو ثمانية آلاف، وكان يتلو الجميع القرآن الكريم.

وصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من هنا إلى جوهانسبرك (Johannesburg) بالخط الجوي، وكان له في هذه المدينة مثل ما كان له في المدن الأخرى من الأشغال اليومية، وتوجه من جوهانسبرك (Johannesburg) إلى كيب تاون (Cape Town)، ورحّب به هناك عدد من العلماء المواظبين المتخرجين من جامعة الأزهر، وجامعات المملكة العربية السعودية، فتوجه أولاً إلى المقبرة، وقرأ الفاتحة(١).

وألقى رئيس منظمة العلماء الشيخ نظيم محمد بـ«كيب تاون» (Cape Town) وهو جاوي الأصل، ومكي الدراسة، كلمة ترحيب بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وعاد الشيخ من «كيب تاون» إلى «جوهانسبرك» مرة ثانية، ثم قدم من «جوهانسبرك» إلى (Leanasia)، وكان في استقباله لدى وصوله إلى (Leanasia) ثلاثة آلاف من الإخوان المحبين، واستغرقت عملية المصافحة وقتاً طويلاً، واعتنق أحد من الإنجليز الإسلام بهذه المناسبة، وأقام الشيخ بـ «لينسيا» يومي (١٥ ـ ١٦ أغسطس، المطابق ١٤ ـ ١٥ شوال)، وأسلم على يده عدد من المواطنين أيضاً، وكان قد بلغ عدد الحاضرين ثلاثة آلاف وخمسمئة لدى مغادرته، وصافحه الجميع، وغادر الشيخ في (١٨ أغسطس ١٧ شوال) إلى «زامبيا» (Zambia) وأرسل أهالي زامبيا طائرة مستأجرة إلى «جوهانسبرك»، ودفعوا لها مئة ألف وخمساً وعشرين روبية هندية، وكان في هذه الطائرة أحد عشر مقعداً، وقد تجمع آلاف من المودعين لدى مغادرته جوهانسبرك، وبلغ عدد السيارات التي كانت تجري وراء سيارته أكثر من مئة، وتدفق إليه الناس من مناطق مختلفة من جنوب إفريقية، فودعوا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعيون دامعة وقلوب باكية، وهبطت الطائرة في قرية صغيرة على رغبة ملحة من أهالي القرية خصيصاً، وهي (Chisata) واجتمع في هذه القرية لدى هبوط

(١) أخبرني الأخ علي آدم الندوي أن هذه المقبرة تضم قبور عدد كبير من العلماء الذين تم نفيهم من إندونيسيا، وكان من بينهم عدد من كبار العلماء والمشايخ الذين كانت لهم نسبة عالية، وظهرت على أيديهم خوارق للعادة.

الطائرة عدد كبير من الإخوة المحبين للشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وكانت الطائرة قد تعرضت لخطر عند هبوطها، لكن الله ﷻ أنقذها وسلّمها من أن يلحق بها أي ضرر من الوقوع، وعاد الشيخ بسلام، وقد حدثت في هذه الرحلة من الوقائع الغريبة ما لا يحدث عادة، إلا مع من يذكرهم الله فيمن عنده، ففي تجنب الطائرة من هذا الخطر الداهم، وفي البركة التي شاهدها الجميع في الطعام رغم هذا العدد الهائل دلالة على ذلك، أدىٰ الشيخ صلاة الجمعة في (Chipata) ووضع حجر الأساس لمدرسة دينية.

في (٢٢ أغسطس ٢١ شوال) غادر (Chipata) إلى «لوساكا» (Lusaka) وكان المطار كله ممتلئاً بمحبي الشيخ ومسترشديه، وقد بلغ عددهم آلافاً وكان المطار يدوي بهتافات التكبير، وكانت قد أقيمت حوله سرادقات تسع لآلاف من الرجال، وكان الشيخ إبراهيم حسن لمبات والا مضيف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وقد أقام مأدبة عامة بمناسبة قدوم الشيخ، ودعا إليها جميع مسلمي «لوساكا»، فبلغ عدد الذين أكلوا الطعام على مائدته ألفين وخمسمئة، وقام الشيخ بجولة تفقدية لدار العلوم في (٢٤ أغسطس)، وسماه على طلب من المسؤولين عنه باسم المدرسة الرحمانية.

⬩ رحلته الثانية إلى بريطانيا:

في (٢٥ أغسطس ١٩٨١م، المطابق ٢٤ شوال ١٤٠٢هـ) غادر الشيخ «لوساكا» إلى «بريطانيا»، وكانت هذه الرحلة هي الرحلة الثانية لبريطانيا، وكانت تسير مئة وخمسون سيارة خلف السيارة التي كانت تقل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى المطار، وتتقدمها سيارات رجال الشرطة وأجهزة الأمن، وهبطت الطائرة على مطار «لندن» الدولي بسلامة معرجة على مطار «تونس»، حيث أدى المرافقون له في هذه الرحلة الصلاة مع الجماعة، وكان من المقرر أن يتوجه الشيخ من هنا إلى «مانجستير» بالطائرة، وكان قد استأجر الإخوة طائرة تضم خمسين مقعداً للقيام بهذه الرحلة مقابل مبلغ (١٨٠٠) جنيهاً.

وهبطت الطائرة على مطار مانجستر (Manchester)، وتوجه الشيخ من



المطار مباشرة إلى دار العلوم بـ «بولتن» (Bolton) في الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة ظهراً، وتم تحديد الأمور التي كان ينبغي القيام بها بجانب تحديد الأوقات لها، ولم تزل تعقد الاجتماعات لختم القرآن الكريم وبدئه، ولم يزل يبايعه الناس، وكان يوم الإثنين (٢٩ أغسطس) يوم عطلة، فبلغ عدد الزوار في ذلك اليوم نحو أربعة آلاف.

توجه الشيخ في (٢٩ شوال) إلى مركز جماعة الدعوة والتبليغ بـ«ديوزبري» (Duesbury)، ومكث ساعة في (Batley) وفي طريقه إلى ديوزبري قد بلغ عدد النساء اللاتي اجتمعن في المسجد والغرف المجاورة ليبايعن الشيخ ألفين، وصل الشيخ إلى «ديوزبري» في الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة، حيث كان مبنى المدرسة تحت البناء، وتم هناك تشكيل خمس وثلاثين جماعة للعمل خارج البلاد، وجرت المصافحة، وبلغ عدد الزوار خمسة آلاف جاؤوا من أرجاء البلاد كلها، ثم توجه الشيخ من «ديوزبري» إلى (Blac Bury) ليقرأ الفاتحة على قبور ثلاثة شهداء من المدرسة، وكانوا قد استشهدوا في حادث في السنة الماضية.

في (٥ سبتمبر/ ٥ ذي القعدة) عقد اجتماع جمعية علماء «بريطانيا» في ساحة دار العلوم، ولم يتمكن الشيخ من المشاركة في هذا الاجتماع لإصابته بالمرض، وفي (٦ سبتمبر/ ٦ ذي القعدة) يوم الأحد أقيم احتفال بختم البخاري بينما تم بدء كتاب «مشكاة المصابيح»، وجرى تكريم اثنين وخمسين طالباً بوضع العمامة على رأس كل واحد منهم بهذه المناسبة، وكان الزحام شديداً، وامتلأت مباني المدرسة، والسرادقات التي أقيمت بهذه المناسبة بالضيوف والزوار، وصعد الشيخ على المنصة، وأخذ مكانه فيها، وكان الطلبة جالسين على جانبيه، وقد وضعوا كتبهم على المناضد التي نسقت أمامهم، وقرأ أولاً الحديث المسلسل بالأولية، وأجاز الشيخ السامعين له، وقرأ شيخ الحديث إسلام الحق الحديث الأخير للجامع الصحيح للبخاري، وثم افتتح الجامع الصحيح للبخاري للسنة الدراسية القادمة بقراءة الحديث الأول، ثم جاء دور الطلبة الذين كانوا يدرسون المشكاة، وأعطى الشيخ ثلاثة مدرسين

قلانس وعمائم، ورأى المسلمون في «بريطانيا» هذا المشهد لأول مرة، تخرج اثنان وخمسون عالماً، من بينهم عدد من الحفاظ، ثم رفع الأذان للصلاة، وأديت الصلاة بالجماعة، وكان قد بلغ عدد المصلين سبعة آلاف، واضطر الشيخ ليمكث في المستشفى عدة أيام لاشتداد مرضه بمشورة من الأطباء المعالجين له، وبقي في المستشفى إلى (١٤ سبتمبر).

وكان قد تقرر من قبل أن يغادر الشيخ إلى «الحجاز» في (١٦ سبتمبر/ ١٦ ذي القعدة)، وكان هذا اليوم هو يوم الوداع، فبلغ الزحام غايته، وامتلأت مباني المدرسة، والشوارع كلها بالزوار والمودعين، وصل الشيخ إلى مطار مانجستر في الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، وهبطت به الطائرة على مطار (Hethron) بلندن في الساعة الثانية عشرة بسلام، وتوجه من هناك إلى المطار الدولي، وأقلعت الطائرة به في الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة، ولبس المرافقون له الإحرام داخل الطائرة، وكان الشيخ قد نوى «جدة» من قبل لما أصابه من المرضى، ووصل إلى جدة في الساعة الثامنة بسلام.



الباب الثامن

مرضه ووفاته

إصابته بالمرض ورحلته إلى الهند:

كان الشيخ يعاني من تدهور صحته منذ سنوات طويلة، ومر بظروف وأحوال أثارت القلق في قلوب المسترشدين، والمحبين له عدة مرات، وكادت تبعث في قلوبهم اليأس في بعض الأحيان، لكن الله ﷻ لم يزل يزيل هذا الخطر العاجل ويؤجل هذا القلق الداهم، ويبعث في قلوبهم الأمل؛ لأنه كان قد كتب له أن يقوم بتربية النفوس، وتوجيه العقول، ويتولى العناية بجماعة الدعوة والتبليغ والإشراف على شؤونها، ويحتفظ بما خلفه له المشايخ والمربون من الثروة العلمية، ويقوم بطبع كتبهم وإصدارها تعميماً للنفع.

قدم الشيخ من المدينة إلى الهند وهو في مثل هذه الحالة من المرض والنقاهة في (١٥ محرم سنة ١٤٠٢هـ، المطابق ١٢ نوفمبر ١٩٨١م)، وأقام بدلهي عشرين يوماً، واشتد عليه المرض خلال هذه الأيام، وداهمته النقاهة بشدة، وتدهورت صحته للغاية، حتى جعل الإخوة يخافون على نفسه، فجرت المشورة، واتفق الجميع على أن ينقل إلى المستشفى الذي يقدم خدمات طبية بغاية من الاهتمام، ويتلقى فيه المريض عناية تامة، فتم نقله إلى مستشفى هولي فيملي (Holly family)، وخضع هناك لفحص طبي كامل واختبارات مختلفة لازمة له.

كان يخشى المعالجون له إصابته بالسرطان، واضطروا أكثر من مرة إلى اختبار الدم وكان يتأرجحون بين يأس ورجاء، يلمع بريق من الأمل حيناً، ويختفي حيناً آخر، فذهبت أنا والشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ معين الندوي الإندوري نائب الأمين العام لندوة العلماء، وبعض أفراد أسرتي

كالعزيز السيد محمد الثاني الحسني والسيد العزيز محمد طاهر الحسيني المنصور بوري وغيرهم من محبيه ومسترشديه إلى دهلي لنعوده، فوجدنا المرض قد اشتد عليه، والنقاهة قد بلغته كل مبلغ، وقطعت كل رجاء فرأينا من اللازم في مثل هذه الظروف أن يتم ترحيله إلى المدينة المنورة خشية أن يقع له حادث يسبب لنا الخجل مدى الحياة، ويجد الأعداء فرصة ليشمتوا به، وكان الشيخ أسعد المدني (رئيس جمعية علماء الهند) من الذين وافقوا على هذا القرار، بل كان أشد منا رأياً في هذا الأمر، وكان هو يتابع الأوضاع باستمرار، ويحضر إلى الشيخ من حين لآخر، وأخيراً أبديت أنا والشيخ أسعد المدني رأينا بكل جرأة وصراحة، أمام الممرضين المسؤولين عن المعاجلة؛ لأن الظروف كانت تقتضي أن لا نتأخر في إبداء هذا الرأي يوماً واحداً، ولكن لم يوافق عليه الممرضون والمسؤولون، كان على رأسهم الحاج أبو الحسن وهو من أقرب أتباعه وأخص مسترشديه، وقال: بقي الآن أن نذهب بالشيخ إلى سهارنفور وننزله فيها؛ لأن الشيخ أشار إلى ذلك مراراً، وأعرب عن رغبته في الذهاب إلى سهارنفور أكثر من مرة، كنا لا نستطيع أن نلح عليه أكثر من ذلك، فلازمنا الصمت تقديراً لهؤلاء، متوكلين على الله، عاد الشيخ من المستشفى إلى منزل الحافظ كرامة الله بدهلي، حيث كانت تتوفر كافة وسائل الراحة والمعالجة، وتوجه إلى سهارنفور في (٤ صفر، المطابق ٢ ديسمبر ١٩٨١م)، فزرناه مرة ثانية خلال هذه الفترة، ورأينا صحته تتحسن، لكننا لم نطمئن عليها.

◘ العودة إلى المدينة المنورة:

وأخيراً حقق الله أمنية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، واستجاب أدعية الإخوة المحبين له، وغادر الشيخ مع عدد من مسترشديه، ورفقته إلى «جدة» عن طريق «كراتشي» في (١٨ ربيع الأول ١٤٠٢هـ، المطابق ١٦ يناير ١٩٨٢م)، ووصل من هناك إلى المدينة المنورة بسلام، وبقي على حالة من المرض، وجرت له المعالجة بصورة مستمرة، ولم تزل ترد إلى المسترشدين في الهند أنباء تبعث فيهم الأمل حيناً، وتقطع عنه الرجاء حيناً آخر.

◘ اللقاء الأخير:

سافرت خلال هذه الفترة في (٢٩ ربيع الأول سنة ١٤٠٢هـ، المطابق يناير سنة ١٩٨٢م) إلى مكة المكرمة للمشاركة في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي، وكان يرافقني في هذه الرحلة الشيخ معين الندوي نائب الأمين العام لندوة العلماء، وكان الشيخ يقيم بمنزل الأخ سعدي في مكة المكرمة في تلك الأيام، ونزلنا نحن في منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي، وهو يقع على بعد عشرة أقدام من منزل الأخ سعدي، فزرنا الشيخ فقابلنا بعطف وحنان بالغين حسب عادته، وأعرب عن ارتياحه على قدومنا إليه، لكن النقاهة كانت بادية عليه، ولكن ذهنه كان متيقظاً كما كان، وعاملني نفس المعاملة التي كان يقوم بها خلال إقامته بالمدينة المنورة، قال للأخ أبي الحسن: عليك أن تطعمه يومياً ذلك المعجون الذي كنت تقدمه إليه في المدينة المنورة، ويستفسره عن الماء البارد الذي كنت أعتاده، فيسأل عنه مرة بعد مرة، ويأمره بإحضاره، والأمر الذي كان يستولي على مشاعره في تلك الأيام، هو قضية دار العلوم بديوبند، كلما حضرت إليه يسألني عن ذلك، ويعرب عن قلقه وحزنه على الخلافات التي تشهدها تلك الفترة بين العلماء، وقدمت إليه رسالة كتبها بإحضاره العزيز محمد الثاني الحسني، وعرضت عليه أن يسمعها إذا سنحت له الفرصة، فقال لي: لا، أنا أسمعها الآن، فقرأ عليه تلك الرسالة نجله الكريم محمد طلحة، فقال: سأجيب على هذه الرسالة، وكان لا يدري أحد أن المرسِل والمرسَل إليه كليهما ينتقلان إلى رحمة الله ﷺ بفارق شهرين.

◘ رسالة عزاء تذكارية:

عدنا إلى «مومباي» في شهر فبراير، وتعرضنا فور وصولنا إلى الهند لفاجعة مؤلمة أدمت القلوب، وهزت المشاعر والأعصاب، وهي حادث وفاة ابن أختي العزيز محمد الثاني الحسني، ومن المدهش أن نبأ وفاته قد بلغ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عبر الهاتف قبل صلاة العصر من نفس اليوم، وكان قد وقع ذلك الحادث في (١٦ فبراير) ما بين الساعة الحادية عشرة

والساعة الثانية عشرة، فكتب الشيخ إليّ رسالة عزاء، وهي تُعَدُّ من الرسائل التذكارية التاريخية، وتدل على تيقظ ذهنه، وقوة ذاكرته، وصلته العميقة بالراحل، أنقل هنا نص الرسالة بكاملها.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أخي الحبيب أبو الحسن علي الحسني الندوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخبرني الأخ حبيب الله بالأمس (١٦ فبراير ١٩٨٢م) بعد صلاة الظهر بأن موظفاً للشيخ نور ولي قد جاء إليك حين كنت نائماً قبل صلاة الظهر، فأبلغني أن الشيخ محمد الثاني الحسني قد فارق الحياة في الساعة الحادية عشرة صباحاً.

إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أوجرنا في مصيبتنا وعوّضنا خيراً منها، لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار.

إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا محمد لمحزونون..

أخي أبو الحسن:

تذكرت بهذه المناسبة ذلك البيت الذي كتبه الإمام الشافعي رحمه الله إلى الإمام عبد الرحمٰن بن المهدي وهو يعزيه عن نجله، يقول:

إني معزّيك لا أني على ثقة ... من الحياة ولكن سُنَّة الدين
فما المعزِّي بباقٍ بعد ميِّته ... ولا المعزَّى ولو عاشا إلى حين

أخي: لا أستطيع أن أشرح لك ما أصابني من الهم بعدما أخبرت بهذه الفاجعة، إن كبر سنك ووقوع الحوادث المتتابعة لك من الأمور التي زادتني قلقاً واضطراباً، لكن إبداء القلق والحزن لا يجدي الراحل ولا ينفع الساكن، فلذلك طلبت من الإخوة حسب عادتي أن يدعوا للراحل ويستغفروا له، ويقرؤوا له ما تيسر لهم من القرآن الكريم، وهذا هو العزاء في الواقع، فأدعو الله تعالى أن يتغمده برحمته ويدخله فسيح جناته، ويحشره مع الأبرار

والأتقياء، ويجزيه أحسن الجزاء، ويعطيه أجزل العطاء، ويلهم أهله الصبر والسلوان.

أتذكر اليوم أحاديث الراحل وحسناته، ولا يخفى عليّ ما ألم بقلبك من كمد وأدناف، لكن نبينا محمداً ﷺ قد بيَّن لنا ما يجب علينا في مثل هذه الظروف، وقدم لنا أنموذجاً في كل ما يحل بنا من المصائب والكوارث، وجزى الله عنا أصحابه البررة والمحدثين العظام، الذين حافظوا على كل ما روي عن النبي ﷺ، وعضوا عليها بالنواجذ، فأنقل إليك بهذه المناسبة رسالة عزاء، وجهها النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل حين توفي له ولد، فكتب النبي ﷺ:

«من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام الله عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد! فعظّم الله لك الأجر وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم إن أنفسنا وأموالنا وأهالينا وأولادنا من مواهب الله ﷻ الهنيئة وعواريه المستودعة، متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير، الصلاة والرحمة والهدي إن احتسبته.

يا معاذ! فاخبر ولا يحبط جزعك فتندم على ما فاتك واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يرفع حزناً، فليذهب أسفك على ما هو نازل بك فكأن قد.

والسلام».

وقد روي أيضاً عن النبي ﷺ: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»**، ومما روي عنه أيضاً: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة»**.

وهذا أيضاً ينطبق عليك وعلى عائلتك.

أمليت لك هذه الرسالة الوجيزة رغم ما أعاني من العجز والمرض في هذه الأيام، وأرجو أن تقرأ هذه الرسالة على والدة العزيز محمد الثاني

الحسني رَحِمَهُ اللهُ، وزوجته، وأبنائه وأقاربه الآخرين لأنه يصعب عليَّ في مثل هذه الحالة أن أكتب رسالة عزاء إلى كل واحد منهم، وأخيراً أنهي كلامي بما أنشده الشاعر البدوي أمام عبد الله بن عباس حين توفي والده عباس رَحِمَهُ اللهُ، فقال له وهو يعزيه عن والده.

اصبر نكُنْ بك صابرين فإنما ... صبر الرعية بعد صبر الراس

خيرٌ من العباس أجرك بعده ... واللَّه خيرٌ منك للعباس

بلّغ تحيتي إلى العزيز محمد حمزة نجل العزيز محمد الثاني، ووالدته، والعزيز محمد الرابع الحسني، والعزيز محمد واضح رشيد الحسني، والشيخ محمد معين الندوي، والأخ سعيد الأعظمي الندوي وإلى أقاربه الآخرين.

والسلام
محمد زكريا الكاندهلوي
المدينة المنورة
١٧ فبراير ١٩٨٢م

◌ اشتداد مرضه والأيام الأخيرة لحياته:

لم تزل ترد إلينا الأنباء المتناقضة عن مرض الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وصحته، وضعف قوته، حتى شهر مارس وأبريل ومنتصف مايو، كما كانت ترد عادة منذ شهور، وفي أوائل شهر مايو (١٩٨٢م) سافرت إلى «سري لنكا»، وكان يرافقني في هذه الرحلة العزيز سلمان الحسيني الندوي، ورأيت هناك في المنام قبل العودة بيوم أن الشيخ جالس، وقال لي حين وقع بصره علي: لم يبلغك يا أبا الحسن ما حل بي من المرض، ولم تأت إلي لتعودني، فقلت له: لم أتلق رسالة منك في هذه الفترة، ولم يخبرني أحد بذلك، وقلت له أيضاً: إن حادث وفاة العزيز محمد الثاني الحسني قد ترك في نفسي أثراً بالغاً، ولا سيما على والدته، ثم نظرت إلى الشيخ فوجدت المكان فارغاً، فدهشت وأحدقت بي المخاوف وجعلت أخشى ذلك الحادث الذي سيقع، فاستفسرت عن حال الشيخ فور وصولي إلى دهلي.

هل وصلت برقية أو جاء خبر؟ فقال لي الأخ الحافظ كرامة: إن الأخ سعدي أبلغه بالأمس في اتصال هاتفي أن حالة الشيخ لا يطمئن عليها، وهو يصاب بإغماء في بعض الأحيان، ولا يطمئن على صحته المعالجون له، ثم أجرى بعض الإخوة من «مكة المكرمة» اتصالاً هاتفياً مع بعض مسترشدي الشيخ في «دلهي»، وأعربوا عن قلقهم بشأن صحته وأفادوا بأن صحته لا تتحسن.

◘ نبأ نزل كالصاعقة:

عدنا إلى لكنو في (١٨ مايو) واتصل بي أحد الإخوة من دلهي هاتفيّاً في (٢٤ مايو ١٩٨٢م، المطابق ٢ شعبان ١٤٠٢هـ) وفاجأني بهذه الفاجعة، وفي اليوم نفسه وصلتني برقية بعث بها إليَّ الأخ الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي (رئيس التحرير لمجلة البعث الإسلامي) من المدينة المنورة وهي تحمل هذا النبأ المؤلم.

أيتها النفس أجملي جزعاً ... إن الذي تحذرين قد وقعا

◘ الأيام والساعات الأخيرة لحياته:

أنقل هنا رسالة الدكتور إسماعيل المدني الذي كان من أقرب مسترشدي الشيخ الكاندهلوي، ومن الأطباء الذين كانوا من معالجيه، ويلازم صحبته، ويراعي صحته، وكان بجنبه في آخر أيام مرضه، حتى الساعة الأخيرة، وهو يصف هذه الظروف في رسالة وجهها إلى محبيه يقول:

كانت صحة الشيخ نوَّر الله مرقده قد تدهورت قبل سنوات ومرت بظروف وأحوال سببت قلق محبيه عدة مرات، لكنه كان قبل الأربعاء (١٤ مايو) يميل إلى تحسن، فكان يتناول الطعام، ويتحدث إلى الناس بطريق عادي، وإذا استشاره أحد كان يرد على سؤال كعادته، وكان الشيخ عاقل الذي كان يقوم بإعداد تقرير الجامع الصحيح لمسلم يأتي كل يوم بعد العشاء، ويقرأ عليه ما كتبه من النهار، وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفيد برأيه، وتوجيهه حيث أراد، فكان يقوم بسائر أعماله اليومية حسب العادة، كأنه في صحة طيبة إلا أن النقاهة كانت بادية، ولذلك كان لا يتوجه إلى الحرم المدني الشريف، إلا بصلاة واحدة،

أولاً عند الظهر، ثم عند اشتداد الحر كان يفضل صلاة العشاء فيؤديها في الحرم الشريف.

أصيب الشيخ في الأربعاء (١٤ مايو) بحمى، واتخذت الإجراءات فانخفضت درجة الحرارة، التي كانت بلغت (١٠٢ درجة)، ثم أفاق من الحمى، لكن النقاهة ازدادت، وترك التوجه إلى الصلاة إلى الحرم الشريف، وقد أدى صلاة الجمعة يوم (١٤ مايو) مع جماعة الحرم على الباب الرئيس لمدرسة العلوم الشرعية، حيث تصل صفوف الحرم الشريف، وبعد الحمى ترك تناول الطعام تقريباً، إلا المشروبات، ولإزالة الضعف والنقاهة كان يستعمل الكلوكوز، واستمر ذلك إلى آخر أيام حياته.

وفي (١٥ مايو) يوم السبت شعر المعالجون بأثر اليرقان في عينيه، والبول، وجرى اختبار الدم، الذي أفاد بتأثر كبده، وكليته بالمرض، وتعطلهما عن العمل العادي، وأصيب في (١٦ مايو) بإغماء جزئي وازداد هذا الإغماء في اليوم التالي، وطرأت حالة غيبوبة، فلم يكن ينظر أو يتكلم، أو يجيب على كلام إلا أن ضغط الدم والتنفس على الحالة العادية، فكان ذلك يبعث على التفاؤل بأن لا خطر عليه، واتخذت سائر التدابير الممكنة للعلاج، والاهتمام بالدعاء، كختم «صحيح البخاري» يوم الأحد، الذي اكتمل في يومين، كما اهتم الشيخ علوي المالكي في «مكة المكرمة» بالدعاء وختم سورة يسٓ.

وخفّت حالة الإغماء يوم الإثنين (١٧ مايو) نوعاً ما، لكن ازداد الاضطراب، فكان يردد «الله الله»، و«يا كريم يا كريم»، وأحياناً يقول: «يا حليم يا حليم»، واستمرت هذه الحالة إلى آخر وقته.

وكنت أستشير كبار الأطباء كالدكتور أشرف الدين، والدكتور أيوب، والدكتور سلطان، والدكتور منصور، والدكتور عبد الأحد، وجميعهم كانوا يشتركون في العلاج، واختبار الدم أيضاً كان يجري حيناً بعد حين عند الدكتور انصرام، وجميعهم يحرصون على صحته، إلا أن الكبد والكلية لم تتحسن حالتهما، انقطع الغذاء كليّاً، إلا ما كان يصل إليه عن طريق الكلوكوز، والتلقيح.

أدى صلاة الجمعة في (٢١ مايو) عند باب مدرسة العلوم الشرعية

واستمرت هذه الحالة إلى الأحد (٢٣ مايو)، وتدهورت مزيداً بعد الظهر من ذلك اليوم عندما وجد صعوبة في التنفس، واتخذت سائر الإجراءات لتخفيف هذه الحالة، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطراب، وشعر بتخفيف في هذه الحالة بعد التحقيق في الوريد وعاد النفس إلى حالته الطبيعية.

ولوحظ تحسين الحالة مزيداً يوم (٢٤ مايو) وبدأ الشيخ يتكلم ولكن بصعوبة، إلا أن حبس البول كان يسبب القلق، وزالت هذه الحالة بعد تدابير اتخذت له، ولكن تعرض لسوء التنفس مرة أخرى، واستخدمت وسائل لمعالجة هذه الوضع باستخدام الأوكسيجين والحقنة، وازداد الاضطراب وعاد يردد «يا كريم يا كريم» بصوت عال، واستمر على هذه الحالة إلى الظهر، وكنت بجانبه، ونجله الكريم الشيخ محمد طلحة، ثم ساد السكون فقال الشيخ طلحة: لعل الوقت الأخير قد حان، فقلت: يبدو كذلك، فقال بصوت عالٍ: «الله الله»، وفي هذه الأثناء تحركت شفتاه قليلاً ولفظ أنفاسه الأخيرة ولحق بالرفيق الأعلى، وكان ذلك في الساعة الخامسة، و(٤٠) دقيقة؛ أي: قبل المغرب بساعة ونصف ساعة، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أوجرنا في مصيبتنا وعوضنا خيراً منها وإنا لفراقك يا شيخ لمحزونون.

ثم تحقق اتباعه للسُّنَّة في الوفاة كذلك، فقد كان الشيخ مهتمّاً للغاية باتباع السُّنَّة فكانت وفاته يوم الإثنين بين العصر والمغرب، ويصعب بيان الحزن والأسى الذي ساد على من حضر هذه الحادثة الفاجعة، وقد كان من بين الذين شاهدوا هذا المنظر المحزن نجله الشيخ طلحة وختنه الشيخ عاقل، وسبطه جعفر بن الشيخ محمد عاقل، ومساعده الحاج أبو الحسن، والشيخ نجيب الله، والشيخ محمد إقبال والشيخ يوسف متالا والطبيب عبد القدوس، والشيخ إسماعيل والشيخ نذير، والدكتور أيوب والحاج دلدار أسعد والعزيز عبد القدير وكاتب هذه السطور.

وبدأت إجراءات التجهيز والتكفين وأرسل الدكتور أيوب إلى المستشفى للحصول على الورقة وتشاورنا حول وقت الدَّفن، فتقرر بيننا أن يتم ذلك العمل بعد صلاة العشاء، وقال بعضهم: إن بعض محبي الشيخ وأقاربه لا

يستطيعون أن يصلوا حتى العشاء ولذلك أبدوا رغبتهم في أن تشيع الجنازة بعد صلاة الفجر.

وتم غسل الميت بعد صلاة المغرب، وكان كل من حضر حريصاً على الاشتراك في هذا العمل، ولكن الذين اشتركوا في غسل الميت كان الشيخ يوسف متالا، الحاج أبو الحسن، والشيخ نجيب الله، والطبيب عبد القدوس، والأخ جعفر بن الشيخ محمد عاقل، والشيخ عطاء المهيمن بن الشيخ عطاء الله البخاري، والشيخ أسلم، والأستاذ صديق، والعزيز إحسان، والقاضي أبرار الكاندهلوي، وعبد الحميد وغيرهم.

وتوجه الدكتور محمد أيوب للحصول على الورقة لكنه عاد بعد ساعتين وقال: إن هناك صعوبة قانونية في الحصول على الورقة، ولا بد من حضور نجله الشيخ طلحة، فذهب الشيخ طلحه معه؛ لأن الذين يحفرون القبر لا يحفرون إلا بإذن رسمي، أو تصريح من المستشفى، وكان قد بقيت ساعتان لصلاة العشاء، لذلك تقرر أن تجري عملية الدفن بعد صلاة الفجر، ولكن تدخل الشيخ حبيب أحمد المدني، وقال: انتهت الإجراءات واستلمنا الورقة وتم حفر القبر، وقبل صلاة العشاء بخمس عشرة دقيقة، نقلت الجنازة إلى باب السلام، وأدى إمام الحرم المدني الشريف الشيخ عبد الله الزاحم صلاة الميت، وكان الازدحام شديداً ولا نظير له في التاريخ القريب.

تم حفر القبر حسب رغبة الشيخ رحمه الله بالقرب من قبور أهل البيت، وقبر شيخه ومربيه الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ونزل نجله الشيخ طلحة وختنه الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي في القبر، فتحققت أمنية الشيخ القديمة.

الجدير بالذكر هنا أن الشيخ في أواخر أوقات حياته عندما كان شعوره لم يتأثر، يسأل عن سائر أصحابه ما هي أشغالهم اليومية، وذلك يدل على اهتمامه بأحوال أتباعه إلى آخر وقت شعوره.

وبعد التدفين رأى أحد مسترشديه أن قائلاً يقول: فتحت أبواب الجنة الثمانية، وشعر أحدهم عند الصلاة والسلام على قبر النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ يقول: شيخك في أعلى عليين.

قصيدة في رثاء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

أنشد الشاعر الشهير من شعراء كاندهلة الشاعر شبير الجذبي الكاندهلوي قصيدة في رثاء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وهذه القصيدة تصور ما ألمَّ به من الوجد بهذا الحادث الجلل، وتعبر عن عواطف المحبين للشيخ وأحزانهم.

يقول فيها ما ترجمته:

تسير جنازة على كتف العظمة، وتمطر رحمة الخالق عليها الزهور، يعبر كل خيط من كفنه عن غيرة قمر العالم الذي يكمن فيه الدر الثمين.

تنوح له المدارس والتكايا الحزينة، فقد اختفت شمس العلم واختفى تحت التراب، ما أعظم شوقه على قدوم شهر رمضان.

كان دائم التلاوة لكلام الله ومواظباً على الذكر والتسبيح صباحاً ومساءً.

في هذا الشهر المبارك يزدحم ألوف من أهل الذكر في فناء مسجد، ويقبلون على كأس الماء عند الإفطار والسحور.

لقد انطفأت شمعة هذا الحفل الكريم، وبقيت أفواج الفراش تضطرب وتحزن على هذا الفراق.

وقد انفض هذا الحفل، وانقضى عهد لقاء الأحباب إلى غير رجعة، لقد قضى عمره في خدمة دين الرسول ﷺ، وكان قلبه عامراً بحب دين الرسول ﷺ.

لقد حصل العشق بعد الفناء على مقامات عالية، والعاشق الفاني، فإنه يفوز وينمو في الدارين.

ما أسعد حظه، فقد تحققت أمنيته للهجرة، وسينام إلى الأبد هذا العاشق بجوار قبر الرسول ﷺ.

إن مثواه مثوى العشق بجوار الخضراء، وسيخلد إلى الراحة بقرب أصحاب محمد ﷺ، وكلما تهب الريح في مدينة الرسول ﷺ سيشم رائحة المصطفى في قبره.

إن العشق لحبيب الله هو علاج القلوب الحزينة، يا ليت رزقني الله حب نور محمد ﷺ ويكون هذا النور علاج القلب والذهن.

وأشعر بنور هذا الحب في صدري ليلاً ونهاراً، أبكي لذكرى جد أمير كربلاء، ويسيل دمع قلبي، ويغرقني سيل من هذه الدموع، يا مالك العرش العظيم ورب العالمين. يا أيها الكريم، وقاضي الحاجات والرحمٰن الرحيم.

أمطر علي شآبيب رحمتك وفضلك، وأكرم جذبي بحبك قدراً من الحزن والهيام والوجد.

◘ صفاته الخلقية وأولاده:

وكان الشيخ وسيماً وضيء الوجه، بهي الطلعة، وردي اللون، قوي البنية، متوسط القامة، ممتلئ اللحم ولكنه لم يكن بديناً، وأعطاه الله ﷻ من المهابة حظّاً وافراً بجانب ما كان له من البهاء والنضارة، وجهه كوردة متفتحة، إذا لبس العمامة والمثلج يتميز عن آلاف من الرجال، أتذكر جيداً أن الدكتور ذاكر حسين خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ رئيس الهند الأسبق حين رآه لأول مرة في حفلة عقدت في بلدة «ميوات»، قال لي: إن هذا الرجل وسيم للغاية، ولكن الأمراض قد أنهكته في آخر حياته، ولكن وجهه لا يزال يتلألأ، وذهنه لا يزال يتيقظ، وقلبه لا يزال ينشط.

خلف الشيخ زوجته ونجله الشيخ محمد طلحة وخمس بنات وإليكم تفاصيل عائلته:

إحداهُن: زوجة الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، ولدت في شهر سبتمبر (١٩٢٠م/ ذي الحجة ١٣٣٨هـ) وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في الحجاز في تلك الأيام، وتم عقد قرانها مع الشيخ إنعام الحسن في (٧ أبريل ١٩٣٥م، المطابق ٣ محرم سنة ١٣٥٤هـ)، ورزق منها ولداً اسمه محمد زبير الحسن الكاندهلوي.

البنت الثانية: وهي زوجة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، وولدت في عام (١٣٤٧هـ)، وتزوجها الشيخ سعيد الرحمٰن بن الشيخ لطيف الرحمٰن الكاندهلوي في (١٩ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ، المطابق ٢٢ أبريل ١٩٤٦م)، وبعدما توفي الشيخ سعيد الرحمٰن في (١٩ شوال ١٣٦٦هـ) تزوجها الشيخ

محمد يوسف في (١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٦٩هـ، المطابق ٩ فبراير ١٩٥٠م)، ولم يرزق ولداً منها.

البنت الثالثة: وهي زوجة الطبيب السيد محمد إلياس بن الشيخ السيد محمد أيوب السهارنفوري، ولدت في (٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٢هـ، المطابق ١٩ مارس ١٩٣٤م)، وعقد عليها القران الشيخ حسين أحمد المدني، مع الطبيب محمد إلياس، ولها أربعة أبناء، وهم الشيخ السيد محمد شاهد السهارنفوري (وهو الآن الأمين العام بجامعة مظاهر علوم بسهارنفور) ومن أخص تلامذة جده ومسترشديه، وأمين مكتبة (صاحب المؤلفات والداعية أيضاً) والحافظ محمد راشد، والحافظ محمد سهيل، والحافظ محمد ساجد.

رزق الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من زوجته الثانية ولداً اسمه **محمد طلحة**، ولد هذا الابن في (٢ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠هـ، المطابق ٢٨ مايو سنة ١٩٤١م)، يوم الإثنين، حفظ القرآن الكريم وهو دون الخامسة عشرة، ثم بدأ دراسته الفارسية في «سهارنفور» في (٢ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ، المطابق ٥ ديسمبر ١٩٥٦م)، وبعدما أتم دراسته الفارسية في (١ شعبان ١٣٧٦هـ) توجه إلى دلهي، والتحق بمدرسة «كاشف العلوم»، في حي نظام الدين، لتلقي دراسته العربية الأولى، وبعد تخرجه من تلك المدرسة عاد إلى «سهارنفور» في سنة (١٣٨١هـ) والتحق بمدرسة مظاهر علوم لتلقي الدراسة العالية، فدرس كتاب «شرح جامي»، و«الهداية»، الجزأين الأولين، و«المقامات» للحريري، وغيرها من الكتب، قرأ «الجامع الصحيح» للبخاري على الشيخ إنعام الحسن، والطحاوي على الشيخ محمد يوسف، والترمذي والجامع الصحيح لمسلم، على الشيخ عبيد الله، وأبا داود على الشيخ إظهار الحسن.

بعدما انتهى من الدراسة بايع على يد الشيخ عبد القادر الرائي فوري، وتلقى من أبيه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي تربية دينية روحية، وطوى مراحلها تحت رعايته، وقد أجازه والده بالتلقين والتربية والبيعة والإرشاد في ربيع الأول سنة (١٣٩١هـ) وتولى الإشراف على مدرسة مظاهر علوم سنة (١٤٠٢هـ) بعدما توفي والده.

البنت الرابعة: وهي زوجة الشيخ محمد عاقل بن الحكيم الشيخ محمد أيوب، وهي أولى البنتين اللتين رزقتا للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من زوجته الثانية، ولدت هذه البنت في (٦ رمضان سنة ١٣٦٦هـ، المطابق ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٧م)، وتم زواجها في (٨ ربيع الثاني ١٣٨١هـ، المطابق ١٩ سبتمبر ١٩٦١م)، وعقد عليها القران الشيخ محمد يوسف في بلدة رائي فور، وتم اختيار بلدة رائي فور لعقد القران رجاء أن يشارك الشيخ عبد القادر الرائي فوري في حفل الزفاف، ورزق منها أربعة أولاد، وهم الحافظ محمد جعفر، والحافظ محمد عمير، والأخ محمد عادل، والأخ محمد عاصم.

البنت الخامسة: وهي زوجة الشيخ السيد محمد سلمان بن المفتي محمد يحيى، قد ولدت في (٢٩ صفر سنة ١٣٧٠هـ) وعقد عليها القران الشيخ إنعام الحسن في (٢ ذي القعدة ١٣٨٦هـ، المطابق ١٣ فبراير ١٩٦٧م) ولها ولدان، وهما الحافظ محمد نعمان، والحافظ محمد عثمان.

كان **جميع أَخْتَانِ** الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ وهم: الشيخ محمد يوسف، والشيخ إنعام الحسن، والحكيم محمد إلياس، والشيخ محمد عاقل، والشيخ محمد سلمان ـ من العلماء البازرين، والكُتَّاب المعروفين والمدرسين البارعين، نحن لسنا بحاجة إلى التعريف بالشيخ محمد يوسف، والشيخ إنعام الحسن؛ لأن صيتهما قد طبق الآفاق بكفاءتهما النادرة الموهوبة، وجهودها المبذولة في سبيل الدعوة:

أما **الشيخ محمد يوسف** فقد صدر بقلم الشيخ محمد الثاني كتاب ضخم يتناول جميع جوانب حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي[١].

أما **الشيخ محمد إنعام الحسن** فهو أمير جماعة الدعوة والتبليغ والمشرف الأعلى على هذه الحركة الدعوية العالمية.

---

(١) وطبع هذا الكتاب باللغة العربية باسم «حياة الشيخ محمد يوسف ونهجة في الدعوة» نقله إلى العربية مترجم هذا الكتاب.

والشيخ محمد السيد إلياس هو من خريجي مدرسة مظاهر علوم البارزين، تخرج منها سنة (١٣٧١هـ) قرأ الجامع الصحيح للبخاري على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وبعدما أتم دراسته أقام مكتبة علمية دينية وسماها مكتبة إشاعة العلوم، وقام عن طريقها بإصدار كثير من الكتب الدينية، ويرجع إليه الفضل في إتيان عدد من الكتب النادرة للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى حيز الوجود، وصدرت الطبعة الأولى لأهم كتب الشيخ كـ«أوجز المسالك» و«لامع الدراري»، و«الكوكب الدري» عن دلهي بجهوده وتحت رعايته.

والشيخ السيد محمد عاقل هو أيضاً ممن تخرج من مدرسة مظاهر علوم، تخرج فيها سنة (١٣٨٠هـ) درس الجامع الصحيح للبخاري عن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان يتمتع بذكاء حاد، وفطانة نادرة، وكان له كعب عال في مختلف العلوم والفنون، عين مدرساً في مدرسة مظاهر علوم سنة (١٣٨١هـ) ثم اختير كمدرس لكتب الحديث العالية في سنة (١٣٨٧هـ)، ودرس كتاب أبي داود لأول مرة، ومنذ ذلك اليوم لا يزال يدرس هذا الكتاب، وقد نال الإجازة من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وقد أعان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في كثير من أعماله التأليفية، وقدم للكوكب الدري على جامع الترمذي تقديماً مفصلاً، وتم طبعه في سنة (١٣٩٤هـ).

تخرج **الشيخ السيد محمد سلمان** في مدرسة مظاهر علوم سنة (١٣٨٦هـ) وكان متفوقاً في الدراسة، وكثيراً ما يقرأ نص الجامع الصحيح للبخاري في الحصة التي كان يلقي فيها الشيخ الدرس، تم تعيينه كمدرس في مدرسة مظاهر علوم سنة (١٣٨٧هـ) ثم انضم إلى هيئة مدرسي كتب الحديث في عام (١٣٩٦هـ) بتدريس كتاب «مشكاة المصابيح»، وكان له مساهمة بارزة مع مساهمة الشيخ محمد عاقل في ترتيب كتب الشيخ العربية وتنقيحها وتكميلها، وإعدادها للنشر، وهو الذي كان يصلي بالتراويح في المسجد الذي كان يعتكف فيه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ويعجب الجميع بحسن صوته[1].

(١) وهو الآن رئيس جامعة مظاهر علوم بسهارنفور الهند (المترجم).

إن **جميع أسباط الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي** قد بلغوا أشدهم وأتموا دراستهم، ونالوا شهادات عالية من العالمية والفضيلة، ويشتغلون الآن بنشر العلم وخدمة الدين، وكان من بينهم **الشيخ محمد شاهد**، وهو من خريجي مدرسة مظاهر علوم، وله مكانة علمية بارزة، وقدرة فائقة على الكتابة، وذوق كبير للتحقيق، وشغف بالغ بالعلم، ويدل على شغفه بالتأليف وقدرته على الكتابة ما صدر بقلمه من كتب علمية ضخمة، كرسائل علمية، و«علماء مظاهر علوم وخدماتهم في مجال العلم والتأليف»، و«تاريخ مدرسة مظاهر علوم» (في جزأين)[1]، ونال عطفاً من الشيخ كبيراً وبجهوده تم طبع كثير من مجموعات رسائل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والكتب المخطوطة له.

والسبط الثاني للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، هو **الشيخ محمد زبير الكاندهلوي**، هو نجل الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، تخرج من مدرسة مظاهر علوم حسب عادة أبناء أسرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وتلقى تربية روحية من جده من الأم، وقضى فترة التعلم والتربية الدينية تحت رعايته وحسب توجيهه وقد أجازه الشيخ خلال إقامته بالمدينة المنورة، وهو يعمل الآن مدرِّساً في مدرسة كاشف العلوم تحت إشراف أبيه بجانب اشتغاله بالدعوة[2].

أما الأسباط الآخرون فهم صغار، ولا يزالون تحت الدراسة، وقد أتموا حفظ القرآن الكريم، ويجدر بالذكر منهم بصفة خاصة الحافظ محمد جعفر، وقد رافقه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في رحلته الأخيرة للحجاز، وكان بجنبه في أيامه الأخيرة بالمدينة المنورة.

أما أولاد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذين جعلهم الله له ذخيرة في الآخرة؛ لأنه فقدهم في سنين مبكرة فهم كما يلي:

---

(١) طبع هذا الكتاب حديثاً في ثلاثة مجلدات باللغة العربية (المترجم).

(٢) أما السبط الأكبر وهو الداعية الشيخ محمد هارون بن الداعية الشيخ محمد يوسف ابن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، فقد توفي في حياة جده الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وخلّف وراءه ابناً واحداً، وهو الشيخ محمد سعد الكاندهلوي الذي يرأس حركة الدعوة والتبليغ مع عمه الشيخ زبير الحسن الكاندهلوي (المترجم).

السيدة ذكية: ولدت يوم الإثنين في (٤ شعبان ١٣٣٧هـ، المطابق ٥ مايو ١٩١٩م)، وهي أول بنت له عقد عليها القران الشيخ محمد يوسف في الحفلة السنوية لمدرسة مظاهر علوم في (٣ محرم ١٣٥٤هـ، المطابق ١٧ أبريل ١٩٣٥م)، وتم زفافها في (١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ، المطابق ٣ يوليو ١٩٣٧م)، وتوفيت يوم الإثنين في (٢٩ شوال ١٣٦٦هـ، المطابق ١٥ سبتمبر ١٩٤٧م)، وهي تصلي صلاة المغرب، بعد معاناة طويلة من مرض السل، وكان لها ولد، وهو الشيخ محمد هارون.

السيد موسى: ولد في شهر رمضان المبارك سنة (١٣٤٣هـ)، وتوفي في ربيع الأول سنة (١٣٤٤هـ)، وعمره سبعة أو ثمانية شهور.

السيدة شاكرة: ولدت السيدة شاكرة وهي البنت الثالثة للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في (شهر صفر سنة ١٣٤٥هـ، المطابق ٢٢ أبريل ١٩٢٦م)، وعقد عليها القران الشيخ حسين أحمد المدني، وفارقت الحياة يوم الإثنين (١٤ رجب سنة ١٣٩٦هـ، المطابق ١ مايو سنة ١٩٥٠م)، وقد سجل الشيخ انطباعاته على حادث وفاتها بالسطور الآتية:

كان من باب الصدف أن الشيخ محمد يوسف كان في زيارة لمدينة سهارنفور، ودخلت معه البيت، فطلبت السيدة المرحومة من الشيخ محمد يوسف أن يقرأ عليها سورة يسّ، فجعل يتلو عليها فلما بلغ هذه الآية ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ تملكته عاطفة لا نعرف لها سبباً، فقرأ هذه الآية ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة صعدت روح ابنتي إلى بارئها.

ولد **الشيخ محمد هارون** في شهر رجب سنة (١٣٤٩هـ)، وانتقل إلى رحمة الله وهو في ريعان شبابه.

ولدت **السيدة خالدة** في (٢٨ ذي الحجة) وتوفيت وهي طفلة.

ولد **الشيخ محمد يحيى** في (٦ جمادى الثانية سنة ١٣٥٦هـ)، ومات في صباه.

ولدت **السيدة صفية**، وهي البنت الأخيرة للشيخ محمد زكريا

الكاندهلوي، من زوجته الأولى في شهر ذي الحجة (١٣٥٥هـ)، ولم تعش إلا سنة واحدة، فتوفيت في (٢١ محرم الحرام ١٣٥٦هـ).

ولد **الشيخ عبد الحي** في (١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٥٨هـ) في دلهي من زوجته الثانية، ولم يشأ له القدر أن يعيش إلا شهراً واحداً، فمات في (٢١ جمادى الأولى) من السنة نفسها، ولم يتمكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من رؤيته لرحلاته المتتابعة.

كان للشيخ أخت واحدة اسمها السيدة عائشة، تزوج منها أحد أقاربها، وهو الشيخ شعيب، وتوفيت السيدة عائشة في (١٦ ذي الحجة ١٣٦١هـ، المطابق ٢٥ ديسمبر ١٩٤٤م)، في بلدة «كاندهلة»، وقد عاشت أربعين سنة، ورزق منها بنتاً، وهي كريمة المفتي محمد يحيى، ووالدة الشيخ محمد سلمان، والشيخ محمد خالد.

○ نجله الشيخ محمد طلحة:

أكرمه الله بنعم كثيرة وآلاء جسيمة، فقد حفظ القرآن الكريم في صباه، وتلقى من العلوم المتداولة ما يليق بشأنه، ونال تربية روحية من والده الجليل، وتميز بها عن أقرانه، وكان له شغف بالذكر واهتمام بالغ بالدعاء، ونظراً لهذه المواصفات أجازه والده، فكلفه بأمور لا يكلف بها عادة من هو في مثل سنه، وكان الشيخ عبد القادر الرائي فوري يعطف عليه غاية العطف من بداية أمره، وكثيراً ما حدث أنه ألغى رحلته طيباً لخاطره، وقال: أوقفني طلحة، وكذلك لقي الشيخ محمد طلحة عناية خاصة من المشايخ المعاصرين، والعلماء الربانيين الذين كانوا يترددون إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

وكان يمتاز بكفاءته الإدارية، وفكره المتزن، ورأيه المعتدل، وقوله السديد، وطبيعته المتواضعة، وتحمسه لخدمة الآخرين، وكان قد ورث هذه الأمور عن أبيه، وكان يرجع إليه الفضل في قضاء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي شهر رمضان في «سهارنفور» في آخر أيام حياته، وكان يعرف رتب الذين كانوا على صلة بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ويراعي مكانتهم،

ويعاملهم معاملة تليق بشأنهم، عني الشيخ بتربيته عناية خاصة، وحاول كل المحاولة أن لا يصيبه داء الاستعلاء لاهتمام الضيوف والزوار به، ولذلك كان يكره دائماً أن يقوم بجولات في الأوساط التي كانت لها صلة مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وهو يحترز أيضاً من ذلك، وقد ساقه القدر إلى الشيخ في الفترة الأخيرة من إقامته بالمدينة المنورة، وكانت والدته ترافقه في هذه الرحلة، فأتيح له فرصة لخدمة أبيه في آخر أيام حياته، وتحمل حادث وفاة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بغاية من الصبر ومنتهى الهدوء، وحتى أصبح مسلاة للآخرين، كما كان يصبح الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مسلاة لمن يأتي إليه معزياً عن أقرب الناس إليه. أطال الله حياته ونفع به المسلمين.



الباب التاسع

فضائله الموهوبة، خصائصه الطبيعية النادرة

◌ علو الاستعداد وعلو الهمة:

ليس من الصعب فحسب أن يستوعب أحد فضائل ومميزات رجل اختاره الله لإنجاز خدمات جليلة متنوعة، وأعطاه الله من المنازل الرفيعة، ما لا يعطيها إلا عباده المخلصين المقربين إليه، بل هو أمر مستحيل لأن الفضائل الروحية والأحوال الباطنية، والعلاقة القائمة بين العبد وربه، هي من الأمور التي لا يعلم حقيقتها إلا الله.

لكن جوانب الحياة البارزة التي تتراءى لقصار النظر، فلا بأس بذكرها، فأسجل هنا هذه السطور بغاية من الإيجاز:

ميزه الله ﷻ عن المعاصرين له بعلو الهمة وعلو الاستعداد، وهذه هي الميزة التي لا يوجد له نظير فيها، وقد شهد بها كبار المحللين وذوو الرأي، ولا يمكن بدونها لرجل أن ينال مثل هذا الرقي ويتبوأ هذه المكانة التي بوّأها الله ﷻ له، وقد أشار الشيخ عبد القادر الرائي فوري مراراً إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف قائلاً: «أنتما تبدأان من المكان الذي ننتهي به، أو بدايتكما نهايتنا»، ويقول في بعض الأحيان: إن أمر العم وابن أخيه (الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف)، يختلف عنا تماماً.

وقال عنه مرة: انتقلت نسبة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان الشيخ محمد إلياس يعامله معاملة التلميذ لأستاذه والمسترشد لمرشده، ويقدر ذلك بتلك الرسالة التي كتبها إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وهي محفوظة لدي، كتب فيها:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أعقد بما في قلبك من حسن الظن بالنسبة لي آمالاً عند الله، وأعتقد أن ذلك يسبب لي الفوز والنجاح في الآخرة، وأدعو الله ﷻ أن لا يمسّك شيء يؤذيك ويؤلمك، وينقل إليك نسبة نبينا محمد ﷺ، ويغرس في قلبك الحب والإخلاص له، ويجعل قلبك منقطعاً إليه، مطمئنّاً به، وراضياً عنه، وصافياً له، اللهم آمين.

كانت نفسي تتوق إلى أن أقضي رمضان بجنبك، وأنهل من منهلك وأسقي نفسي بماء نبعك، لكن من المناسب أن تلتزم بكل ما يدخل في قلبك الطمأنينة، ولا أرضى أن تعرقل العائلة من سبيل مثلك من ذوي الهمم العالية، وتحول دون تحقيق ما تريد، فأنا متأكد أن يكون لك خير فيما يميل إليه قلبك مهما كانت الأسباب.

أرجوك أن تدعو لي في هذا الشهر المبارك فلا تنساني في دعواتك، أعتبرك لنفسي ثروة للدنيا وللآخرة، فلذلك لا بد أن أدعو لك وأدعو لدوام صحتك وامتداد عمرك، لكن مما يؤسف له أنني فقدت قلبي لا أعرف أين هو، اللهم ارحم اللهم ارحم.

بلّغ تحيتي إلى الحكيم أيوب وقل له أن يستجمع قوته ولا يهمل أي إهمال، واكتب إلي أشغالك اليومية الرمضانية.

والسلام عليكم
محمد إلياس
١٤ فبراير ١٩٢٩م

الهمة العالية هي النقطة المركزية والمحور الرئيس الذي تدور حوله حياة الشيخ كلها، كان قد طبع على علو الهمة، وارتفاع الروح المعنوية، تراه عالي الهمة في كل مجال سواء كان مجال العلم والتأليف، أو كان مجال العبادة والتقرب إلى الله، أو كان مجال الخدمة والاستضافة، أو كان مجال الزهد والتوكل، لم يكترث الشيخ بالمال والثروة أي اكتراث، رفض الرواتب الضخمة، تنازل عن المناصب العالية، تراجع عن الفرص الذهبية، وقد سبق له في الصفحات الماضية من أحداث تشهد له بذلك.

إن عقاراً موروثيّاً كبيراً في بلدة «جهنجهانة» كان يستطيع أن يحصل عليه بجهد بسيط لكنه صرف عنه النظر قائلاً: ليس لدي وقت للحصول على مثل هذه العقارات، وتناساه إلى الأبد، وهذه هي الهمة العالية التي تدفعه إلى أن يقترض بسهولة لسد حاجات الآخرين، مرة هيأ مبلغ أربعين ألفاً لرحلة الشيخ محمد يوسف للحج مع عائلته وعدد من أقاربه بعد وفاة الشيخ محمد إلياس، وكانت النتيجة أن تراكمت عليه الديون في بعض الأحيان حتى بلغت أكثر من ستين ألفاً، لكن الله ﷻ لم يزل يخفف عنه هذا الثقل ويوفر له غيبيّاً ما يسدّ به الديون.

ومن الوقائع التي تدل على علو همته هو الحادث الغريب الذي وقع له بمناسبة حادث وفاة أحد المتعلقين به، حين اجتمع لديه ورثته لتوزيع الإرث وتصفية الدين، رفضوا دفع ما كان على الراحل من الدين وكان قدره خمسة آلاف، فتعهد الشيخ بدفعه وأدى ذلك.

إن تكاثر الضيوف، وازدياد المصروفات، وازدحام الزوار، وتدفق السيل من الأفكار، ووقوع الحوادث المؤلمة المتتالية، ووفاة من هو أحب الناس إليه كعمه الحنون الشيخ محمد إلياس وأخيه وختنه الحبيب الشيخ محمد يوسف أمور تغير مجرى الحياة، وتثبط الهمم، وتحدث القلق والاضطراب، وتبعث في القلوب اليأس والقنوط وتؤدي إلى السآمة عن الحياة، لكن الشيخ محمد زكريا تحمل كل ذلك، ولم يقصّر في أداء ما يجب عليه من الحقوق تجاه الضيوف، ولم يشعر أحد بأي تغير في أشغاله وبشاشته ودماثة خلقه، كل ذلك يدل على أنه كان يتمتع بهمة عالية فوق العادة، وقوة موهوبة من الله ﷻ.

وكان زهده في الحياة وتوكله على الله هما أيضاً من نتائج علو همته، إنه لم يهتم قط بتوفير أسباب العيش والراحة لنفسه، استأجر منزلاً شاع عنه أن من يسكن فيه يموت.

ومات فيه ثلاثة من أقرب الناس إليه متتابعين، توفي والده، ثم انتقلت والدته إلى رحمة الله، ثم فارق أخوه الصغير الحياة، لكن الشيخ بقي في ذلك المنزل بكل ما أوتي من قوة وصلابة، ولم يبرح عنه، وكان لم يخطر له ببال في يوم من الأيام أن يشتري ذلك المنزل، لكن توفر له الأسباب لشرائه بدون

أية محاولة منه، فاشتراه مضطراً وكان المنزل متواضعاً يتكوّن من غرفتين صغيرتين لا تسعان لا للجلوس ولا للنوم، فأشار إليه بعض الإخوة بتوسعة المنزل، وطلبوا منه أن يقوم فيه بشيء من التعديل والترميم، فاعتذر الشيخ إليهم عن ذلك قائلاً: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان سقف الغرفة الخارجية التي يسكن فيها الشيخ يكاد يتهدم، وكان قد نصب له عمود حتى لا يقع على الأرض، أخيراً انتهز أحد الإخوة وهو السيد نصير الدين فرصة أيام إقامة الشيخ ببلده رائي فور، فكتب إلى الشيخ عبد القادر الرائي فوري، أن يمنع الشيخ عن العودة إلى «سهارنفور» بأي طريق ممكن حتى أتمكن من تشييد غرفته وبناء شرفة تقيها من المطر، فلما عاد الشيخ انفجر غاضباً على بناء الشرفة، وهدمها بيده قائلاً: إنها عبث وإسراف، وأعاد إلى مكانه تلك المظلة التي كانت عليها من قبل، ولما ضاق المكان بالزوار والضيوف اضطر الإخوة إلى تسقيف ذلك الجزء الذي يقابل غرفته، وهذا الجزء الذي كان يتناول فيه الضيوف الطعام.

كان الشيخ يعيش حياة التقشف والقناعة، والزهد وعدم المبالاة بوسائل الراحة وكان يضرب به المثل في البساطة في المأكل والمشرب، والملبس، وكان يمارس أموره الشخصية والمنزلية كرجل عادي، ولا يجد أحد مهما بذل من جهد في البحث عن شيء من الترف والبذخ والإسراف والتبذير في حياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يدل على اهتمامه بأمور الدنيا أي اهتمام.

◆ الجامعية:

وكان مما يتميز به الشيخ عن معاصريه هو جامعيته، فقد تمكن من الجمع بين القطن والنار، والحديد والزجاج، ورغم حبه للعزلة، وميله إلى الانقطاع، واستيحاشه من السفر، وعكوفه على الدراسة، وشغفه بالتأليف؛ كان يضيِّف رجالاً يحملون طبائع مختلفة، واتجاهات متضاربة وإنه يجمع بين مقتضيات العلم والعمل، وكانت علاقته مع أناس ينتمون إلى حركات متناقضة ومذاهب متحاربة، علاقة حب وتقدير، واعتراف وإقرار، وتأييد ودفاع، وكان

موضع ثقة هؤلاء العلماء والمشايخ في وقت واحد، هي ميزته التي لا يساويه فيها أحد من المعاصرين له، نال حبّاً وتقديراً من حزب المؤتمر الوطني، والرابطة الإسلامية في الفترة التي كانت تشهد خلافات عنيفة بين هذين الحزبين السياسيين، وكذلك لقي قبولاً واحتراماً من المنتسبين إلى ديوبند والمنتمين «تهانه بهون» رغم ما بينهما من بعد شاسع وخلافات عنيفة؛ لأنه كان قد أبعد نفسه عن الصراعات والخلافات التي كانت تشهدها الهند في تلك الفترة كل البعد، وكان الشيخ عبد القادر الرائي فوري ومسترشدوه والشيخ عطاء الله شاه البخاري وأتباعه، والشيخ حبيب الرحمٰن اللدهيانوي، وزملاؤه هم كانوا يضعونه دائماً موضع الثقة والحب، كما كان يجله الشيخ عاشق إلٰهي ميرتهي، والشيخ أشرف علي التهانوي، ومسترشدوه محل الإعجاب والتقدير.

ولا يخفى على أحد ما يحمل في قلبه من حب وتقدير للشيخ حسين أحمد المدني بجانب ما يحمل في قلبه من الشعور بالعظمة للشيخ أشرف علي التهانوي، في فترة الخلافات بينهما، وكتابه الشهير المسمى بـ«الاعتدال في مراتب الرجال» يدل على ما يتمتع به الشيخ من الجامعية والاعتدال، والاتزان والوسطية دلالة واضحة، وقد رأينا في كثير من الأحيان أن هذه الأمور قد لعبت دوراً هامّاً في نزع الخلافات وتوحيد الصفوف المتحاربة والجمع بين المسؤولين عن جماعات دينية كانت ترتبط بمركز واحد، وتعتنق مذهباً واحداً، وكانت النتيجة أن يلجأ إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي كثير من الذين يحملون ميولاً مختلفة لحل مشاكلهم العلمية والدينية ويتلقون منه ردّاً شافياً وحلّاً مقنعاً، ويعودون إلى أماكنهم مطمئنين ومستبشرين.

الحب والتواضع والحرقة:

وكان في فانوس علم الشيخ وعمله وكرامته وهدوئه وصلابته وسكينته وانهماكه في التأليف شعلة ملتهبة، للحب والهِيام، يراها كل من يزوره، وكان قد عجنت طبيعته بالحب والهيام، والعشق والحنان، ولعل نسبة هذا الجوهر كانت أكثر من جميع عناصر وأجزاء كيانه، وهو كما قال الشاعر الهندي الشهير سودا في بيتٍ معناه:

«خلق آدم من مزيج من عناصر مختلفة من الماء والتراب والنار، لكن قلب العاشق خلق مما بقي من النار وحدها».

ويمكن لك أن تقدر هذا الحب والهيام، وترى شرر هذه النار الملتهبة في نفسه، حين يتطرق الحديث إلى الحب لله، والحب لنبيه ﷺ، وعندما يتناول حياة الأتقياء والصلحاء والصديقين والشهداء، فلا يتمالك الشيخ نفسه عند ذلك.

كتبتُ إليه رسالة من المدينة المنورة خلال رحلتي الأولى لهذه الأرض الطيبة ووصفت فيها ما شاهدته في الطريق عن الصحارى والجبال والنخل والجمال، وكتبت بعض أبيات في مدح النبي ﷺ، فلما وصلته هذه الرسالة اعتراه الوجد وطلب من أحد مسترشديه وكان له صوت جميل أن ينشد هذه الأبيات، وكان الفصل فصل الصيف، والشهر شهر رمضان، وكان الشيخ معتكفاً، وكان بعض الإخوة يكبس جسمه، فأخذته رعدة حين بدأ يغنِّي تلك الأبيات وبدا كأن تياراً كهربائيّاً قد جرى في جسمه فجأة، وكان لا يستطيع أن يخفي ما اعترته من الحالة في ذلك الوقت.

وقد رأيته بنفسي وأنا أقرأ على الشيخ عبد القادر الرائي فوري ما كتبته عن الشيخ نظام الدين أولياء في كتابي «رجال الفكر والدعوة»، وكان الشيخ جالساً على السرير، فرأيته لم يستطع أن يتمالك نفسه، وأجهش بالبكاء، وكذلك رأيته في مناسبة عودته من «الحجاز» بعد أداء مناسك الحج مع الشيخ محمد يوسف، يبكي كما يبكي الطفل الذي نزع من يد أمه الحنونة، فلا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال.

ونحن نستطيع أن نقدر ما ألم به لدى مغادرته تلك الأرض الطيبة والمدينة الحبيبة التي كان له علاقة معها قلبيّاً وروحيّاً، بتلك الرسالة التي وجهها إلى أحد مسترشديه فكتب:

غادرنا إلى «جدة» في اليوم التالي بعدما اعتمرنا في العودة من الطائف، وصلينا صلاة المغرب عند بئر تنتهي به حدود الحرم.. وبكى الشيخ بكاء شديداً عند ركوبه السيارة بعد صلاة المغرب، حتى وصلنا إلى «جدة»، وبتنا الليلة في منزل محمد علي خان بقلق واضطراب.

ولم يكن أحد في غرفة الشيخ إلا أنا والأخ أبو الحسن، وكان الإخوة الآخرون في غرف أخرى مع الشيخ إنعام الحسن، وكان الشيخ مضطرباً للغاية، يجلس حيناً ويضطجع آخر، ونحن نجلس أيضاً عندما نراه جالساً، وفي بعض الأحيان نتناوم ونراه مضطجعين، أرافقه منذ عشرين سنة، رأيته في الظعن والإقامة، وفي الأفراح والأحزان، وفي ليالي رمضان المباركة، وفي رحلاته للحج والعمرة، وفي منى وعرفات، وفي رحاب البيت العتيق وجوار القبة الخضراء، ولكنني ما رأيته قلقاً مضطرباً مثلما رأيته في تلك الليلة، ورأيته ينظر إلى الشارع من نافذة الغرفة، ويقول مخاطباً لأبي الحسن: انظر إلى هذه الأرض الطيبة لأنك لا تسنح لك فرصة لإلقاء النظرة عليها بعد اليوم، فنحن نغادرها غداً، وفي اليوم التالي اضطررنا للجلوس طويلاً في غرفة الانتظار على مطار «جدة» الدولي، وكان معنا حشد من المودعين وعدد كبير من المرافقين لنا في هذه الرحلة لباكستان.

وقد رأيته باكياً أكثر من مرة، رأيته باكياً وكان لا يشعر أحد ببكائه، ووجدته يبكي في الصلاة والدعاء والتلاوة، لكن لا تسيل دموعه بغزارة، وكان من عادته أنه إذا جاء أحد ليقابله أو وقع أمر يقتضي منه أن يشارك فيه بإبداء رأي أو سرور أو سخط أو كراهية، وهو في حالة بكائه وتضرعه إلى الله، يتمالك نفسه من ساعته، ويبدو كأن لم يكن به عهد بالبكاء، ويصوغ نفسه حسبما دعت الحاجة، لكن حالته في اليوم الذي كان يغادر فيه تلك الأرض المباركة غريبة، كان جالساً على الكرسي وكان حوله زحام كبير لكنه كان يجلس كأنه وحيد، لا يتكلم ولا يلتفت إلى أحد، تسيل الدموع من عينيه باستمرار، يبتل قميصه ويحمر وجهه، ويرتعد جسمه، ويضع يديه على فخذيه، ويأتي إليه الناس ويصافحونه، وكان قد ساد صمت رهيب هناك، في هذه الحالة غادر الشيخ «جدة» إلى «كراتشي»، ولو لم أر بنفسي هذه الحالة الغريبة لما صدقتها لأنه كان من عادة الشيخ أن يخفي دائماً مثل هذه الأحوال، وإذا أخبرني أحد الإخوة بذلك أعتبر أنه يبالغ في الوصف، لكنني أرى الآن أن ما شرحته لك من أحواله أقل بكثير مما رأيته.

ولا شك أن هذا التأثير الذي تحمله دروسه، وكتبه، وأحاديثه، ومجالسه يرجع إلى ذلك الحب والإخلاص اللذين أودعهما الله في قلبه.

رغم هذه الفضائل التي أكرمه الله بها ورغم هذا الحب الذي صبّ جامه عليه بين المشايخ ورغم هذه العناية التي لقيها من الأساتذة وكبار العلماء كيف هو يرى نفسه حقيراً وصغيراً كيف يصدق عليه دعاء نبينا محمد ﷺ: «اللهم اجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً» تدل على ذلك مقتطفات من تلك الرسائل التي وجهها إليّ من «الحجاز».

○ الرسائل التي وجّهها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى كاتب هذه السطور:

وصلتني رسالتك من «رائي بريلي»، كان من أمنيتي أن أقابلك قبل أن تغادر إلى «الحجاز» لكن الوقت لا يسمح لي بذلك، إن قدومك إليَّ في مثل هذا الوقت الضيق أمر صعب لك، وقد دعاني الأخ محمد يوسف ومن الصعب عليّ أن أزوره اليوم، ثم أذهب إليه بعد يوم أو يومين، كما تطلب مني، فكتبت إليه بالأمس أن يؤجل دعوته لذلك اليوم، إنك لم تكتب متى تغادر «دلهي»، وهل تغادر عن طريق «سهارنفور»؟ استفسرت الإخوة في «دلهي» عن ذلك لكن لم أتلق منهم ردّاً حتى الآن، على كل حال، أطلب منك العفو أولاً عن كل تقصير وقع مني، وثانياً: أقول لك ما قاله الشاعر ـ معناه ـ: «إن أردت أن تذهب فاذهب، ولكن عليك أن تدعو لي بالموت (على حبه) إذا ذكرتني».

وإذا أتيحت لك فرصة لتطوف بالبيت العتيق من جانبي فافعل، وأنا أعتقد أن ذلك لا يثقل عليك، وهذه هي الأشياء التي أراها طرفاً من تلك الأرض الطيبة، فلا تأتني بهدية منها، إن العلاقة التي تقوم بيني وبينك هي أرفع من كل هدية، إن سروري بالدعاء والطواف أكثر بالنسبة لسروري بالتمر وماء زمزم؛ لأنني أحتاج إلى الدعاء والأعمال الصالحة أكثر من هذه الأشياء.

والسلام عليكم
محمد زكريا الكاندهلوي
٢٢ رجب ١٣٦٦هـ

أخي أبو الحسن

بعد التحية المسنونة

تلقيت رسالتك المؤرخة بثلاثة عشر رمضان في العشرين من شهر رمضان، وكان من عادتي أن لا أكتب رسالة في شهر رمضان، لكنني اضطررت لأكتب إليك عدة سطور حبّاً لك.

إن رسالتك ألهبت في جسمي شعلة في رمضان الصيف، فلا أستطيع أن أقول لك إلا «هنيئاً لأرباب النعم نعيمهم» إنك أعدت إلى ذهني تلك الرحلات التي قمت بها إلى هذه المنطقة المباركة بوصف ما شاهدت في الطريق وعاينت، لكنك لم تذكر لي إلى متى تقيم بالمدينة المنورة؟.

يكاد ينقضي هذا الشهر المبارك، وأرى أنني لا أتمكن من توجيه رسالة أخرى إليك لكثرة ما لي من الأشغال في هذا الشهر، وتقررت رحلات مختلفة إلى «سهارنفور» وغيرها من المدن في العشر الأول من شهر شوال من قبل، فأطلب منك أن تتكرم عليّ بتبليغ سلامي على النبي محمد ﷺ.

محمد زكريا
٢٣ رمضان ١٣٦٦هـ

أخي أبو الحسن

بعد التحية المسنونة

كنت نويتُ أن أودعك في «دلهي»، وأطلب منك أن تدعو لي، وكان هدفي برحلتي إلى «دلهي» أن أزورك ولكنني اضطررت أخيراً إلى إلغاء هذه الرحلة، وأخبرتك عن طريق الشيخ محمد منظور النعماني، أن تتجه مباشرة، لكنني شعرت بقلق بالغ لعدم اللقاء معك، تستطيع أن تقدر حرماني، إن الرجل الذي ترافقه أنت والشيخ الرانفوري في رحلته وتكاليف السفر متاحة له، ثم هو لا يتمكن من القيام بهذه الرحلة، ألا يدل ذلك على أن هذا الآثم المذنب لا يليق بأن يزور هذه الأرض الطيبة، فأطلب

منك بمنتهى التذلل والاستكانة، أن تدعو الله لهذا المذنب العاصي عند الملتزم والمواجهة الشريفة، فالله يجزيك أحسن الجزاء، وماذا أقول لك عن مسلمي الهند؟ إنك أدرى بهم مني.

محمد زكريا الكاندهلوي
١٤ ذي القعدة ١٣٦٦هـ

لِيُمْكِن لك أن تقدر علاقة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالأرض الطيبة، وحنينه إليها، والحب الذي يحمله لها في قلبه، أقدم هنا مقتبسات من رسائله التي كتبها إليّ خلال إقامتي بالحجاز للحج سنتي (١٩٤٧م) و(١٩٥٠م) تكرماً منه عليّ:

أخي أبو الحسن

بعد التحية المسنونة

تلقيت رسالتين لك من «كراتشي»، وأبديت فيهما رغبتك في أن أرافقك في هذه الرحلة، لكن هذا المذنب الآثم لا يليق بأن يضع أقدامه على هذه الأرض الطيبة المباركة، من الواقع أن القدر ساقني إليها مرتين، لكنني كنت كل مرة خلف شخصية طاهرة مطهرة، ألازمه ملازمة الكلب لأصحاب الرقيم، ولا أرى الآن شخصية تعمل عمل البحر، وتطهّر كل ما يلقى فيها من القذارة، فيا حسرتاه! أنت تحسن بي الظن رغم أنني كما وصفه الشاعر.

أناشدك تلك العلاقة التي تقوم بيني وبينك، وذلك الحب الذي ألقاه الله لهذا المذنب في قلبك، أن تدعو الله في ليالي رمضان المباركة في الأرض المباركة، أن يأخذ بيدي ويرشدني إلى الصواب لأنه لا يصعب على القادر المطلق، ومقلب القلوب الذي جعل من الجليح عمر الفاروق أن يحوّل الشقي سعيداً والآثم تقياً، صالحاً، إلى متى أبكي على نفسي؟ وإلى متى أضيع وقتك الثمين بترديد هذه العبارات التي تمتلئ بالنفاق؟ أكتب إليك هذه الرسالة رجاء أن تصيب قلبك ضربة، فتفتح قلبك لتدعو لي كما تدعو لنفسك؛ لأنك من الذين قال عنهم لسان النبوة: «**لو أقسم على الله لأبره**».

وأخيراً أطلب منك أن تتكرم عليّ بتبليغ سلام هذا المذنب إلى ذات النبي ﷺ رغم أنه لا يستحق أن يقرأ سلامه عليه ﷺ، وادعُ لي على الملتزم.

محمد زكريا

٢٢ شعبان سنة ١٣٦٦هـ

بعد التحية المسنونة

ليس من المستبعد أن يغفر الله لمذنب بدعاء صالح له، وليس عندي شيء أعتز به أو أعقد به الأمل إلا ما لقيته من العناية والعطف من المشايخ وكبار العلماء في كل فترة من فترات حياتي.

ذلك ثروة لي وزاد لي في الآخرة، لكن يتملكني الخوف حين أقرأ هذه الآية الكريمة ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يسٓ: ٥٩].

زكريا الكاندهلوي

١٤ ذي القعدة ١٣٦٩هـ

حميته للدين، واهتمامه بالحفاظ على المذهب الصحيح:

كان يتميز الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بحميته للدين، وتحمسه لنشره، وحبه للسلف واحترامه لعلماء الشرع، ويرجع ذلك إلى طبيعته التي عجنت بحب الدين والعلماء، وبيئته التي نشأ فيها وترعرع، فكان يصيبه قلق بالغ كلما يتعرض المسلمون في الهند للخطر، ويواجه الدين الهجمات، ويتجاسر الأعداء على الطعن في تعاليم الإسلام، وترتفع الأصوات للتدخل في الأحوال الشخصية الإسلامية، فيتصدى لمقاومة هذه الأخطار، ويلفت أنظار العلماء وأصحاب النفوذ إليها.

لما سَنَّت الحكومة الإنجليزية لأول مرة في عهدها قانوناً للتعليم الإجباري، ونفذته بقوة في «دلهي»، أدرك الشيخ بفراسته الإيمانية ونظره الثاقب، ما يحمله من خطر عظيم للأمة الإسلامية، فعارضه أشد المعارضة، وكتب رسالة «القرآن العظيم والتعليم الإجباري» في الرد عليه، نُشرت هذه الرسالة في (١٣ محرم ١٣٥٠هـ، أول يونيو ١٩٣١م) ووقَّع عليها بـ«جريح القلب» مع اسمه، مما ينبئ عما يحمله في قلبه من همّ إسلامي، وحمية دينية، وغيرة إيمانية.

ثم أطل هذا القانون برأسه مرة ثانية من نافذة الحكومة عقب استقلال البلاد (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩م) فاستعظمه الشيخ، وتفطن إلى أبعاده الخطيرة، وآثاره بعيدة المدى، ونوايا الحكومة من وراء فرض التعليم الإجباري، فيقول في رسالة بعث بها إليَّ في (٣ جمادى الآخرة، ٦ أبريل ١٩٤٩م):

«تقلقني الأوضاع المتفاقمة، والظروف المتدهورة، أنه كيف يمكن لمسلم أن يبقى مسلماً إذا أراد التمسك بتعاليم دينه في مثل هذه الأوضاع، ولا أرى سبيلاً إلى حل هذه المشكلة، ومما ملك عليَّ فكري وقلبي ومشاعري قضيةُ الكتاتيب الدينية التي تواجه الضغوط بشأن قبول التعليم الإجباري، وعقباتٍ في تعليم النشء المسلم مبادئ دينه، ولا أرى أحداً يستطيع فعل شيء في هذا الصدد، أو أقول له وماذا أقول، وإن الذين أتوسَّم فيهم خيراً وأعقد بهم أملاً، هم يحاولون إقناعي بخطبهم الرنانة الطنانة وأحاديثهم المعسولة الفارغة، ويتشدقون بشقشقتهم أن هذه الكتاتيب إضاعة للوقت والمال، لا تجدي نفعاً في مجال التعليم، ويؤكدون على ضرورة الضم إلى تيار التعليم القومي، وخاصة تعليم اللغة الهندية إلى درجة لم تخطر ببال السير السيد أحمد خان بصدد تعليم الإنجليزية، والله المستعان».

وكان الشيخ جد متمسك ومحافظ على ذلك المنهج والمسلك للتوحيد واتباع السُّنَّة النبوية، ومقت البدع، الذي ورثه عن سلفه الصالح وأساتذته ومشايخه، وأشرب في قلبه حب التوحيد الخالص، ورضع لبانه، وتربى في أحضانه، وكان قد أجاز بعض العلماء الذين يفضلون وحدة كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، وبقاءهم في الهند على كل مسألة، بعقد اجتماعات وحفلات لا تتطابق مع روح الدين، نظراً إلى المصالح السياسية والإدارية عقب تحرير البلاد وتقسيمها، بل اشتركوا بأنفسهم فيها، حتى أجاز بعض العلماء بإقامة الاحتفلات لدى الأضرحة وقبور العلماء والصلحاء، يحضرها المسلمون في أعداد هائلة رجالاً ونساءً، وقد كانت هذه الاحتفالات موقوفة أو فترت بعد تقسيم البلاد، ولما بلغ الشيخ بدء هذه الحفلات المخالفة لروح الدين والشريعة الإسلامية من جديد، أصيب بصدمة عنيفة، وتألم قلبه وتأذى، يقول في رسالة له إليَّ وهو يبدي ألمه وحزنه البالغين:

«سبحان الله، يا لها من تقلبات الزمان، وحوادث الدهر، ويا له من سوء حظنا، ونتائج أعمالنا السيئة، إن الجماعة الديوبندية التي تعارض منذ نشأتها إقامة الاحتفالات عند الأضرحة، أصبحت تدعو إلى إقامتها وتروج لها، وإن الخلف الذي كان يغادر مشايخُه الكبارُ حيّ نظام الدين زمن عقد المواسم والأعراس، يستعدون لحضورها ليلتقوا أقاربهم الوافدين من باكستان الذين ينالون تأشيرة الهند باسم الحضور في مثل هذه الخرافات والحفلات الشركية».

وقع مرة بصرُ الشيخ على إعلان في صحيفة «الجمعية» عام (١٩٤٩م) عن إصدار تقويم باسم شيخ الهند، (شيخ الهند جنتري) وقد نشرت الصحيفة في بعض أعدادها تعليقاً عليه، جاء فيه:

ومما يزيد في أهميته وقيمته وجودُ صورة نادرة لشيخ الإسلام المدني، وتكفي هذه الصورة وحدها لتحمُّل الثمن الباهظ للتقويم، فلم يتمالك الشيخ نفسه، وثارت ثائرته وحميته الدينية، ولم يكترث أي اكتراث بانتماء الجريدة إلى علماء ديوبند، وقيادة جمعية علماء الهند بيد أحب الناس إليه وأعزهم عنده، فكتب معقباً على هذا التعليق في رسالة موجهة إليّ يقول فيها:

«أريد أن ألفت نظركم ونظر الشيخ منظور أحمد النعماني إلى أمر مهم خطير، وهو طبع ونشر تقويم باسم تقويم شيخ الهند، ولم أره حتى الآن، ولكن جاء إعلانه في جريدة «الجمعية» في عددها الممتاز عن الجمعية، وإن لم يصل إليكم إلى الآن فلتقرأ إعلانه في العدد الممتاز، وقد نشرت جريدة «الجمعية» في عددها الصادر في (١٩ أبريل، ص:٣) تعليقاً عليه، وذكرت من محاسنه وخصائصه الممتازة، أنه يضم صورة نادرة للشيخ المدني وورد في التعليق: إنه ليس من المبالغة أن يقال: «الصورة وحدها تكافئ ثمن التقويم» هذا لا يليق بأي حال من الأحوال بجريدة ناطقة باسم العلماء، والمشايخ، عليهم أن لا يستحسنوا (الصورة) على الأقل إذا لم يقبحوها وينكروها، وإنني أرى أن تقوموا بتوجيه النقد إلى هذه الخطوة الشنيعة في مجلتيكم «الفرقان» و«تعمير حياة».

وكذلك سمع الشيخ عن عالم جليل ذي صيت وسمعة لدى الناس وهو ينتسب إلى ديوبند أنه يشترك في احتفال يقام بمناسبة عيد ميلاد النبي ﷺ (١٢ ربيع الأول) فكتب إليّ الشيخ:

«قرأت في الصحف قبل عدة أيام أنه وعد عالم جليل بالحضور في حفلة تقام بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد النبي ﷺ، فيقلقني هذا الخبر ويقض مضجعي منذ نشره أن «الجمعية» التي قدم كبار أسلافها تضحيات عظيمة في مكافحة العادات والرسوم الجاهلية، أصبحت جريدتها اليوم تركز جهودها على الترويج لها والدعاية» (١١ ربيع الأول).

وكان من نتيجة هذه الحمية الدينية والعاطفة الإسلامية، أن شرح الله صدره لترجمة كتاب «تقوية الإيمان» للإمام المجاهد الداعي إلى الله الشهيد في سبيل الله الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن أحمد ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي، إلى العربية (إنه كتاب أصبح شعاراً للدعوة إلى التوحيد، وبياناً الحق الصريح، وفيه دعوة صريحة قوية للتوحيد الخالص يندر نظيرها) وحينما كنت موجوداً بالمدينة المنورة عام (١٩٧٣م) كلفني الشيخ بنقل هذا الكتاب إلى العربية، ووعدته بذلك، ولكن لم يطمئن قلبه عليه، بل أرسل إليّ بواسطة العزيز محمد واضح رشيد الحسني الندوي الذي كان يرافقني في هذه الرحلة المباركة، وطلب مني أن تكون بداية هذا العمل في مسجد الرسول ﷺ قبل مغادرتي المدينة المنورة، فتحقيقاً لرغبة الشيخ بدأت العمل في سلخ ذي الحجة (١٣٩٣هـ) في ساعة مباركة قبل زوال الشمس يوم الأربعاء، فكتبت السطور الأولى من المقدمة في مكان يقع بين باب الرحمة وباب جبريل مكتظ بالحجاج الوافدين والمشتغلين بالذكر والتسبيح والصلاة على النبي محمد ﷺ، وفي جو من السكينة والخشوع والحب، وفي الحال أخبر العزيز واضح رشيد سلمه الله الشيخ وهو يجلس بقرب باب العمرة ببداية العمل، ففرح الشيخ بذلك فرحاً كثيراً، ودعا لي كثيراً، وأكملت الترجمة في آخر (١٣٩٤هـ)، وأضفت إليه حواشي مفيدة، وكتبت مقدمة مفصلة، وترجمة ضافية لمؤلف الكتاب، واشترى الشيخ نسخاً كثيرة بعد طبعه ووزعها على الإخوة المحبين له

والمتصلين به. ونفع الله بالكتاب خلائق لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج وحصى البطحاء، وقد بلغ عددهم إلى الملايين من غير شك.

وكانت نتيجة هذه الحمية الدينية والغيرة الإيمانية والتمسك الكامل القوي بالشريعة الإسلامية أنه ثارت ثائرته ضد مسألة حلق اللحية، التي عمت وشاعت في المدينة المنورة، ونالت درجة الجواز لعموم البلوى، فكتب رسالة قوية دامغة في وجوب إعفاء اللحية، وترجمت إلى اللغة العربية، ووزعت بنطاق واسع فيما بين العرب الذين شاع فيهم التساهل والتقصير في هذه الشعيرة.

وكانت عاطفته هذه هي التي حفزته إلى انتقاد فكرة الجماعة الإسلامية وكتابات مؤسسها الشيخ أبي الأعلى المودودي وترشيد مسارها، وعندما علم الشيخ أن هذه الكتابات القوية المؤثرة تؤثر تأثيراً سيئاً على الجهود المشكورة التي بذلها السلف الصالح وكبار العلماء الربانيين عن طريق الإحسان في شبه القارة الهندية، في مجال تقوية الصلة بالله، والرجوع إليه، وخلق جو العبادة والتقرب إلى الله، والحب له، وإشعال جذوة العشق النبوي، والإصلاح، وتربية النفس وتزكيتها، وكان يخشى أن تقضي هذه الكتابات البليغة على المساعي التي صرفها العلماء الربانيون بمواعظهم المؤثرة وخطبهم التوجيهية ومؤلفاتهم الدينية لإيجاد الشعور بضرورة الانتماء إلى مذهب فقهي معين، وسدت هذه المساعي المشكورة ـ إلى حد ـ منافذ الأخطار التي تنذر بأن يكون كل شخص مجتهداً، وأوجدت حسن الظن بالسلف الصالح، واحترام الأئمة المجتهدين والاعتماد عليهم، فلما اتصل بعلم الشيخ أن تصور الدين السياسي يغلب على أساس الدين وحقيقته، من الصلة القوية بالله، والعبودية الصادقة والكاملة له، وعقيدة الآخرة، والإيمان والاحتساب، طار النوم من عينيه، وبدأ يفكر في القضية المصيرية التي سلبته قراره وهدوءه، وجعلته يتقلَّب على أحرّ من الجمر، وكتب إلى صديقه الحميم ورفيقه الوفي مولانا زكريا القدوسي الكنكوهي رسالة مفصلة طبعت في غيابه في شكل رسالة مستقلة بعنوان «فتنة المودودية» ثم طبعت باقتراح منه بعنوان «الجماعة الإسلامية مثار التفكير».

وكانت نتيجة هذه الحمية الدينية والغيرة الإسلامية أنه عارض الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وانتقد دعوته للقومية العربية والاشتراكية التي كانت تهدد الفكر الديني والدعوة الإسلامية، وتعرض صلة العرب بالنبي الكريم ﷺ، ورسالة الإسلام للخطر، ليس في مصر فحسب بل في دول الشرق الأوسط كلها، وقد كانت سحرت بعض الجماعات الإسلامية التي كانت مؤسسة على حمية الإسلام والحفاظ عليه، بشخصية جمال عبد الناصر القوية لتحديه للقوى الغربية، ولكن الشيخ لم يؤيد جمال عبد الناصر بل عارضه لما كان يتفطن له من خطر للأمة الإسلامية، وكان الشيخ يبدي استنكاره لخطوات جمال عبد الناصر وسياسته الاستبدادية في مجالسه وينتقده بلجهة شديدة، ويشيد بالكتابات والمقالات التي تنشرها الصحف والمجلات في نقد القومية العربية والاشتراكية حتى إنه كان في شهر رمضان الذي يستغرق أوقاته كلها يكلف أحد المتصلين به، أن يقرأ في مجلسه بعد صلاة العشاء مقالات الكاتب الإسلامي محمد الحسني التي كان ينتقد فيها جمال عبد الناصر انتقاداً شديداً، وتنشرها مجلتا «تعمير حياة» و«البعث الإسلامي» اللتين تصدرهما ندوة العلماء ليطلع الحاضرون على الأخطار والمفاسد والمضرات التي تحملها الدعوة الناصرية وإن كان بعضهم يستثقل هذا الانتقاد اللاذع، ولكن الشيخ لم يكترث بهم أي اكتراث.

◌ عنايته بالتربية الروحانية وتركيزه على الاسترشاد بالعلماء الربانيين:

كان الشيخ برغم ما كان يحظى به من مكانة عالية مرموقة في سمو النفس وقوتها، وعلو الهمة، وشدة المجاهدة، والانصراف إلى معالي الأمور، والزهد في سفاسفها ومحقراتها، والاستهانة بزخارف الحياة، والاستغراق في العبادة والذكر، وصفاء الروح، وطهارة الباطن، والإرشاد والتوجيه الديني، وتربيته النفس وتزكيتها لدى الخلق، ومع كونه من أهل النفوس الزكية، والقوة القدسية، والهمة القعساء العلية، يؤكد على المتصلين به اتصال استرشاد وبيعة، أن يستفيدوا من العلماء الكبار في عصره، وخاصة العالم الرباني الشيخ

عبد القادر الرائي بوري، وأن ينخرطوا في سلكه، وإن دل هذا على شيء، إنما يدل على إخلاصه وتقواه، ونكران ذاته، يقول في رسالة له بعث بها إليَّ:

«إني أنصحك بأن تقضي وقتاً من أوقاتك عند الشيخ عبد القادر الرائي بوري، رغم اشتغالك بالأعمال الدعوية والتوجيهية، وتتصل به اتصال استرشاد، وقد توفي عمي المحترم الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وأما الشيخ الرائي بوري فإن سراج حياته يكاد ينطفئ في وقت ما، وأما الاعتذار بكثرة الأشغال فهي لا مندوحة عنها ولا مناص».

ويقول في رسالة أخرى:

«إن سفرك إلى رائي بور يحمل أهمية كبيرة عندي، وليست الحاجة إلى ذكرها مرة بعد أخرى، إنني أرى أن يحضر أهل العلم مجالس الشيخ الرائي بوري، فعليك أن لا تضيع فرصة للحضور في مجلسه والاستفادة منه، وتقضي عنده أياماً، بجمعية القلب والهمة».

ويرجع هذا الإلحاح والتأكيد على السفر إلى زاوية رائي بور، وقضاء أيام في جوها الروحاني المنعش إلى أن الشيخ كان يعتقد أن الإخلاص والعبودية والنية الخالصة والقوة الباطنية والابتعاد عن الغرور، لازم وضروري للأعمال الدينية والعلمية والإسلامية والدعوة إلى الله، وكانت هذه الخصائص بمثابة قاطرة لا يمكن لأي قطار أن يسير إلا بقوتها. يقول في رسالة له بتاريخ (٢٦ من ذي القعدة ١٣٦٤هـ): «إن القاطرة البخارية تحتاج إلى النار، ووقود الإيمان والاحتساب والإخلاص تحصل من مثل هذه الزوايا».

ويقول في رسالة أخرى:

«إني أُومن بأن علاج الفتن في ذكر الله، ولذلك أتجول وأطوف بلداً دون بلد؛ لأن الزوايا معدومة وعنقاء مغرب في هذا الزمن».

وكان الشيخ يقول: إنه يجب على الأقل أن تكون القلوب خالية من العداوة والكراهية لهؤلاء العلماء الربانيين، وأكد على ضرورة هذا الجانب في كتاباته مراراً وتكراراً، واستنكر سوء الظن والكراهية والمعارضة للإحسان،

يقول في موضع في رسالته المشهورة «الاعتدال في مراتب الرجال».

«إني ألفت انتباه المتصلين بي بصفة خاصة أن لا يحملوا في قلوبهم مثقال ذرة من الكراهية والنفور من عباد الله الصالحين، وإلا فليقطعوا صلتهم بي».

ولم يكن هذا النصح والتأكيد مقتصراً على مسترشديه، بل كان يسافر بكل شوق، ورغبة إلى رائي بور، ويقضي بها أياماً أو ساعات، وحينما كان مقيماً بـ«بهت هاؤس» بسهارنفور لمدة طويلة، كانت عادته فيها أن يذهب إلى «بهت هاؤس» بعد صلاة العصر مباشرة، لئلا يتأخر ولو كان قليلاً، وكان من عادته تناول الشاي في المساء ولكن ترك عادته هذه، ولما علم شيخه بذلك أمر بتوفير الشاي وأدواته في «بهت هاؤس»، ولكن الشيخ منع ذلك، وكان من عادته زمن إقامته بسهارنفور، أن يحضر مجلس الشيخ الرائي فوري مساء الجمعة، ويقيم عنده حتى صباح يوم الإثنين رغم ما يتحمله من صعوبات ومشاق في السفر من مقره إلى الزاوية.

وكذلك كانت عادته أنه كلما يصل إليه خبر قدوم الشيخ السيد حسين أحمد المدني يذهب إلى المحطة في الليل، وينتظره بها ساهراً، ويتلقاه بحفاوة حارة ويعامله معاملة المسترشد مع شيخه، ويذهب من حين لآخر إلى «ديوبند» زمن إقامة الشيخ المدني بها، ويلتقي به.

○ تقديره للجهود الدينية والعلمية وذوقه العلمي:

قد منح الله تعالى الشيخ من رحابة الصدر، وسعة الفكر، وحسن الأخلاق، وسماحة النفس، والاحتمال والجمع بين الأضداد والأشتات من الأعمال والأشغال، والمشارب والأذواق، والأفراد والجماعات، وعاطفة التقدير والتشجيع لكل عمل يمت إلى الإسلام بصلة، ما لا يقدر عليه إلا الأفراد القلائل في فترات طويلة من أهل النفوس الزكية، والقوة القدسية، والهمة القعساء العلية، فإنه كان يشجع على كل عمل أو يتعاون معه إذا رأى فيه نفعاً للدين أو خدمة للعلم.

وخير دليل على ذلك اهتمامُه البالغ بتقدم حركة الدعوة والإرشاد، والمدارس الدينية الرئيسة من «مظاهر علوم» بسهارنفور، و«دار العلوم ديوبند»، و«دار العلوم لندوة العلماء»، وقد بلغ شغفه بخدمة الدين ومساعدة أعمال الخير والبر والإحسان إلى حد كبير، فيبدي تقديره وتشجيعه لكل عمل وجهد في مجال خدمة الدين والعلم والدعوة والإصلاح والتوجيه والإرشاد، ما دام قائماً على جادة الحق ومنهج السلف الصالح.

وحين وصل إليه كتابي «أحاديث صريحة من أمريكا» وهو مجموعة لمحاضرات وخطب ألقيتها خلال سفري إلى «أمريكا»، وقرئ عليه، كتب إليَّ:

«أعجبني أيما إعجاب مجموع خطبك ومحاضراتك التي ألقيتها في «أمريكا»، واستمعتُ إليها بجمعية الخاطر، ولكني لم أفهم كيف يستفيد بها الأمريكان وكيف يتأثرون؟ أنت خطبت وتحدثت عبر مكبر الصوت ثم قام المحبون بطبعها في صورة كتاب في عدد محدود وكفى، إنني أرى أن تنقل هذه الخطب والمحاضرات في أقرب وقت إلى الإنجليزية والعربية وتطبع وتوزع في عدد ضخم مستطاع، وهذا ضروري للغاية، ولتكتب إليَّ ما هو الطريق لسد هذه الحاجة الماسة، وإني أرى من المناسب أن تلفت أنظار أهل الخير من المسلمين إلى طبع ونشر مئة ألف نسخة لهذا الكتاب في الإنجليزية والعربية والأردية وتوزيعها على نطاق أوسع، وإن طبع في «لكنو» بالأردية فسأشتري ألف نسخة، وأدفع ثمنها».. وبعد طبع الكتاب أرسل ألف نسخة إلى الحاج يعقوب.

ولما علم الشيخ بدورة تدريب المعلمين في ندوة العلماء سرّ بذلك وأشاد، وكتب إليّ:

«سررت سروراً جدّاً بنبأ بدء دورة تدريب المعلمين في ندوة العلماء، بارك الله فيك، واقرأ السلام على المساهمين في مخيم تدريب المعلمين».

عقدت ندوة العلماء المهرجان التعليمي العالمي بمناسبة مرور خمسة وثمانين عاماً على تأسيسها في شهر أكتوبر ونوفمبر عام (١٩٧٥م) ووجهت الدعوة إلى علماء العرب للحضور فيه، فلم يكتف الشيخ بالدعاء لنجاحه

فحسب، بل شد مئزره له وملك على فكره ومشاعره المهرجانُ التعليمي لندوة العلماء، وظل يفكر في نجاحه حتى انتهى المهرجان التعليمي بنجاح باهر، وكان الشيخ يسأل كل من يفد إليه من «لكنو» أو يفد من مقره إلى لكنو عن الإعدادات للمهرجان، وقد حكى الناس أنهم سمعوا الشيخ وهو نائم، يوصي ويأمر بشأن المهرجان التعليمي، وبعد انتهاء المهرجان التعليمي كتب إليّ رسالة تهنئة وتبريك، وكانت مشتملة على عدة توجيهات مستقبلية، وقال لبعض خدامه: «أتعرفون من قام بتنظيم هذا المهرجان التعليمي لندوة العلماء؟ هو أنا».

وكان الشيخ يقدر ويشجع كل عمل علمي مفيد، مهما كان مصدره، ويقدم كل مساعدة ممكنة لإنجازه، ويسعى لنشره قدر مستطاعه، طبعتْ دائرةُ المعارف بحيدر آباد سبعة مجلدات للكتاب القيم «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» لوالدي العلامة الشريف عبد الحي الحسني، وأما المجلد الثامن فكان بحاجة إلى عمل لإكماله، وكانت بعض المواضع في الكتاب خالية من تواريخ الوفاة وأسماء المصنفات، ولم يمهل المصنفَ أجلُه المحتوم فلم يتمكن من إتمام هذا المجلد، ثم آلت هذه المسؤولية، مسؤوليةُ إتمام الكتاب إلى خلفه، وكان هذا العمل صعباً للغاية، وقد بلغ عدد الشخصيات والأعلام الذين ماتوا في حياة المصنف، مئاتٍ، ولكن حملت هذه الأمانة، رغم قلة بضاعتي، بإلحاح من الدكتور عبد المعيد خان رئيس دائرة المعارف، ثم اتصلت بأهل العلم بهذا الشأن، وأصدرت إعلاناً في الصحف والمجلات، وكتبت رسائل إلى جهات مختلفة، وراسلت أصحاب العلم والفضل، ولكن لم أتلق الردود إلا قليلاً، ولم يتعاون معي إلا قلائل، وراسلت الشيخ أيضاً الذي يهتم اهتماماً بالغاً بتسجيل تواريخ الوفيات، وكان كتابه «التاريخ الكبير» خير معوان لي لاحتوائه على مواد ضخمة بهذا الشأن، ورد الشيخ على رسالتي ردّاً مشجعاً، أنقل مقتبساً منها فيما يلي:

«إن لي رغبة أكيدة في أن أساهم ـ مهما كان نوع المساهمة ـ في تكميل

«نزهة الخواطر» لأني أعتبر خدمة هذا المشروع العلمي العظيم سعادة لي، فأودُّ منك أن ترسل إليّ قائمة الوفيات التي تبحث عنها، وإن كانت خانتني عيني ورجلاي، فلا أستطيع التردد والاختلاف إلى مكتبتي ولا إلى مدرستي، فأصبحت حلس البيت لا أبرحه، ولي رغبة شديدة في طبع هذا الكتاب وإخراجه إلى النور، لو تمّ طبعُه في حياتي وقيض الله لي أحداً يقرؤه عليّ لأستمع إليه، ولا تنس أن تبعث إليّ كتابَك «الأركان الأربعة» وهيأ الله لي أحداً يقرؤه عليّ».

ويقول في رسالة أخرى أرسلها قبل الرسالة آنفة الذكر:

«أنا أشكرك على عنايتك بإخراج «نزهة الخواطر» وإعداده للطبع، وأسأل الله أن يسهل عليكم هذا العمل، وأن يصل إليّ في أقصر وقت، وأنا مشغوف بمثل هذا المتاع، بل بلغ هذا الشغف والهواية حد الداء الدوي».

وكان الشيخ يعير اهتمامه هذا كلَّ كتاب ديني وإصلاحي مفيد، إنه رغم أمراضه وأشغاله المزدحمة يتفرغ للاستماع إلى مثل هذه الكتب المفيدة، ويغتنم كل فرصة سانحة ولا يدعها تمر بدون جدوى، يقول في رسالة له موجهة إليّ:

«تلقيت كتابك «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وأنا على وشك الموت، لا أستطيع الاستماع، ولكني مولع بسائر كتبك، وهي شغفتني حبّاً، وتتوق نفسي إليها، فلم أتركه حتى استوعبته استماعاً وقراءة في ستة أو سبعة أيام، جزاك الله خيراً، ونفع الله به الأمة، وسررت سروراً بالغاً بما كتبته مفصلاً عن الطرق والسلاسل، أدام الله حياتك، وأسأل الله بقاءك»[١].

وأبدى الشيخ تقديره البالغ وإعجابه الشديد بالبحث الذي قام بإعداده العزيز الكريم سلمان الحسيني الندوي حول «تحقيق ألفاظ الجرح والتعديل» لنيل شهادة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، فعندما قُدِّم إليه أظهر تقديره البالغ له وأثنى عليه، وكتب إليّ:

---

(١) كتبت الرسالة في (٢٢ ذي القعدة ١٤٠٠هـ).

«كتاب العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي وضعته عند رأسي، وأستمع إليه كلما سنحت لي فرصة، وإني عازم على الاستماع إليه كاملاً، بَلِّغْ إليه عني السلام والتهنئة»[(١)].

يقول عن كتاب «بزم صوفيه»[(٢)] للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمٰن مدير دار المصنفين بأعظم جراه:

«ملأ كتاب «بزم صوفيه» قلبي بهجة وسروراً، تقبله الله، ونفع الناس به كثيراً، وكتبت إليه أن يبعث إليّ نسخة من الكتاب بالبريد»[(٣)].

ويقول في رسالة أخرى:

«تلقيت كتاب «بزم صوفيه» واستمعت إليه رغم شدة مرضي وكبر سني»[(٤)].

رأيه الصائب وبعد نظره وحزمه:

كان الشيخ معروفاً في جميع الأوساط العلمية والدينية والمتصلين به بإصابته وسداده في الرأي، وبعده في النظر، وحزمه في الأمور، وكان متفقاً عليه وثقة لدى معاصريه من المشايخ والعلماء والمدارس، وكان يعتبر رأيه قولاً فصلاً في الأمور والقضايا الخطيرة، ولقد التجأتُ إليه للاستشارة والإرشاد في الشؤون الخاصة بي، وقضايا دار العلوم الهامة، وجربت إصابة رأيه، وسداد فهمه، وغزارة علمه، وسعة اطلاعه على مجريات الأمور.

وخير مثال لسداد رأيه وثقوب نظره وبُعد مداه قرارُه لانتخاب الداعية الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي كأمير لحركة الدعوة والإرشاد بعد وفاة أميرها الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، وكان انتخابُ الأمير الجديد عملاً صعباً لأسباب قاهرة، كان بعض العاملين المنتسبين إلى الحركة يصرون على

---

(١) كتب في (٥ مايو ١٩٨١م).

(٢) كتاب ضخم في مجلد واحد عن أحوال مشايخ الهند المعروفين.

(٣) كتبت الرسالة في (٢٨ ذي القعدة ١٤٠٠هـ).

(٤) كتبت هذه الرسالة في (٢٧ ذي الحجة ١٤٠٠هـ).

تعيين الشيخ محمد هارون الكاندهلوي نجل الشيخ محمد يوسف، كأمير جديد للحركة، ولكن الشيخ لم يقبل هذا الرأي رغم صلته العاطفية بالشيخ هارون، بل قرر الشيخ نظراً إلى فتن الدهر، ومتطلبات العصر، وخطورة الوضع، بعد مشاورات مع أقرب العاملين أن يتولى الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي إمارة الحركة، وكان الشيخ إنعام الحسن قريباً للشيخ وزميله منذ الصغر، وموضع ثقة لدى الشيخ محمد يوسف، وكان يطمئن إلى آرائه ويعتمد عليه في كثير من الأمور، وكان الشيخ إنعام الحسن يستطيع أن يوجه العمل الدعوي توجيهاً حسناً لتجربته الواسعة في مجال الدعوة، وصلته الوثيقة وذوقه المتناسق مع هذا العمل والمنهج الخاص للدعوة، وعلمه الغزير الواسع، وخبرته الطويلة، وقد احتج بعضُ أعضاء الحركة على قرار الشيخ، وحاول بعض أعيان «دلهي» استبدال هذا القرار بقرار آخر، ولكن الشيخ لم يلن ولم يستسلم لضغوطهم، وتمسك بموقفه، وتصلب، فقد أثبتت نتائج هذا العمل الدعوي الباهرة الهائلة وسعة نطاق هذه الحركة في عهد الشيخ إنعام الحسن، وإقبال الناس إليها في مشارق الأرض ومغاربها، وصيتها المطبق الآفاق، أن قرار الشيخ لانتخاب الشيخ إنعام الحسن كان حقّاً.

وكذلك له مواقف مشهودة تدل على سداد رأيه، وثقوب نظره، وفراسته المؤمنة، وإدراكه الصحيح، وفهمه العميق لمجريات الأمور، ومسار الحوداث، ولقد أدى الشيخ دوراً مهمّاً في صيانة حركة الدعوة من الفتنة والتمزق والتحزب بتوجيهه الرشيد الحكيم للحركة في مراحلها الصعبة.

أما مدرسة «مظاهر علوم» فإنه ظل يزود المسؤولين عن المدرسة بمشورات مفيدة وتوجيهات رشيدة، ساعدت في تجنُّبِهم من الوقوع في المحن والمشاكل والأخطار التي كان يمكن أن تحدث بسبب القرار الخاطئ أو التسرع والتهور، ولكن الشيخ وقف من قضية مدرسة مظاهر علوم موقفاً حكيماً ينبئ عن دقة نظره، وواقعيته، وحصافة رأيه، وفهمه الصحيح للأمور والقضايا، وحنكته في فك المعضلات، وقدرته الفائقة على حل المشاكل.

◘ إكرام الضيف:

إن إكرام الضيف عادة متبعة لدى المشايخ والعلماء الربانيين، بل هو شعارهم، وتضرب موائدهم مثلاً في القرى وحسن الوفادة وصنع المأدبة في عصورهم في السعة والشمول، وكانت الزوايا وعدد من المدارس في عهد الشيخ مكتظة بالضيوف والوافدين، ولكن لا يوجد نظير لاهتمام الشيخ بالعمل بالحديث النبوي الشريف: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[1]، وكان القِرى والضيافة وحسن الوفادة عند الشيخ شعبة من شعب الدين وفنّاً من الأخلاق وعلم النفس. فكانت مائدته الواسعة تجمع كل صنف من الناس، وكل طبقة من الرجال، وكل فرد من الجماعات المتنافسة، وكان يتلقى الضيوف والوافدين والقاصدين بوجه بشوش منبسط، يؤتي كل ذي حق حقه، ويعرف لكل صاحب فضل فضله، وينزل الناس منازلهم، ويحسن وفادتهم.

وقال العالم الرباني الشاه محمد يعقوب المجددي البوفالي (م١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) يوماً: «كان النكاح والطعام عبادة كبيرة، ولكنهما فقدا روحهما، وبعدا عن أحكام الدين، والروح الإيماني والاحتساب، وقد شاهدت هذه الأهمية للمأدبة والقِرى وحسن الوفادة وتصور كون ذلك عملاً تعبديّاً لدى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكنت يوماً أتناول الغداء عنده، وكان هناك ضيف ذو صلة ونسبة إلى سلسلة مشايخه، بدأ يذكر وهو على المائدة قضية أو قراراً قضائيّاً، فمنعه الشيخ وقال: دعه وتناول الطعام.

وبالإضافة إلى كثرة الضيوف وكثرة الأطعمة والاهتمام بتنويعها وتلوينها والتفنن فيها كان يهتم بإحضار ما تحبه وتشتهيه أنفسهم من المأكولات وقد جرب ذلك كثير من الضيوف والوافدين والقاصدين، وقد جربت أيضاً مراراً، فقد كنت أجد كلما أحضر عنده، الأطعمة اللذيذة التي أحبها، منذ أول اتصالي به، فكان يهتم الشيخ غاية الاهتمام بإعداد الطعام الطيب لي، وكانت مائدته لا تخلو مما ترغب إليه نفسي من طعام، كتبت إليه خطأً أني مصاب

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

بمرض «النقرس» وأجتنب تناول اللحم كما وصف لي الطبيب، فلما قرأ الشيخ رسالتي سأل الأخ عياض، الذي كان يدير مطعماً في حي نظام الدين، وكان موجوداً عنده لشأن من شؤونه: كم لوناً من ألوان الطعام يمكن صنعه من البقول؟ فعدّدَ عياض لونين أو أربعة ألوان، فلم يطمئن قلب الشيخ بذلك، فدخل منزله وسأل النساء، فذكرن عشرة أنواعٍ من أنواع الطعام، فَسُر بذلك سروراً بالغاً وأمر بصنع جميع الألوان من الطعام، وفوق ذلك امتنع عن تناول اللحوم التي كان لا يأكل غيرها، طيلة إقامتي عنده، واكتفى بالبقول، هذا مثال لاهتمامه بإكرام مريديه والمتصلين به، ولا تسأل عن بالغ اهتمامه بإكرام المشايخ وكبار العلماء وحسن وفادتهم، وقد يبلغ عدد الضيوف مئات وفي رمضان آلافاً ولكن لا يختل به النظام، ولا يشعر أحد بنقص في الوفادة والقِرى، وكان الشيخ نصير الدين يعاونه بهذا الصدد، وكان مأموراً بصنع الطعام للضيوف، وكان الطعام يطبخ في مطبخ المدرسة، ويأتي من منزل الشيخ أطعمة شهية لذيذة للضيوف الخاصة، وكان الشيخ يشرف على المائدة تمام الإشراف من البداية إلى النهاية، وينزل الضيوف منازلهم عملاً بالمأثور: «أنزلوا القوم منازلهم»، ويضع أمام الضيوف ما تشتهيه أنفسهم، كلما تفرغ طائفة تأتي طائفة أخرى، وكان الشيخ يبدي اهتمامه ورغبته في الأكل، ولكن الناظرين إليه يتفرسون أن الشيخ لا يتناول إلا قليلاً.

وكان من آداب المأدبة والمائدة أن لا يقدم أحد من الجالسين على المائدة شيئاً أو كوب الشاي الموضوع أمامه إلى غيره؛ لأن ذلك يخل بالنظام بعض الأحيان، ويقع القائمون على المائدة في سوء الفهم، إنهم يظنون فلاناً قد فرغ من نوبته وقد آثر على نفسه وإن كانت به حاجة، يقول الشيخ: نظام الزاوية بيد القائمين على أمورها، ولا يتدخل أحد في النظام، ولم يكن الشيخ يفعل ذلك إلا لمصلحة، وقد يشعر أحياناً أصحاب الطبائع الملوكية بضيق، ولكن الشيخ لا يعبأ بهم حفاظاً على المصلحة العامة.

◌ صلته العميقة بالمدارس الدينية:

تلقى الشيخ التعليم والتربية، والنشأة الذهنية والخلقية، وكسب العلم والفضل والكمال في مدرسة عربية دينية، أو في بيئة المدرسة، أو المتصلين بالمدارس الذين سقوها بدموعهم ودمائهم، ويعدونها أحب إليهم من نفوسهم وأولادهم، ثم قضى فترة ذهبية في مدرسة مثالية وهي «مظاهر علوم» في عهدها الذهبي حينما كان المسؤولون عنها وأساتذتها صورة صادقة للإخلاص والإيثار والتضحية والزهد والاستغناء والورع والتقى، وكان طلاب العلم أنموذجاً عالياً للطلب الصادق، والانقطاع الكامل إلى كسب العلم، والجد والاجتهاد وتحمل المشاق والمرائر في سبيله، والاحترام والتقدير والحب لأساتذتهم والامتثال لأوامرهم والتمسك بتوجيهاتهم ونصائحهم الغالية، فكانت المدرسة مركز تفكيره، ومحط نظره، ومذهب فكره، ومعقد آماله، ومأمن روحه، وكان يعدُّ المدرسة وسيلة أساسية قوية للحفاظ على العلوم الدينية وترشيد المسلمين وتوجيههم توجيهاً دينيّاً صحيحاً، وصيانتهم من انحراف في العقيدة والسلوك والعمل، وكتابه «حياتي» يدل على صلته القوية العاطفية بالمدارس وهمه وفكرته لرقي المدارس وازدهارها.

وكانت صلته لحبه الغامر للمدرسة عميقة وقلبية عاطفية بالمدارس المؤسسة على المنهج السليم، ولا يحتمل أي اختلاف أو صراع في المدارس، فكان إضراب الطلاب في أي مدرسة عربية أبغض شيء عنده وأشد مقتاً بعد نفوره من الكبائر، ولكن المدارس الدينية القديمة كما قال شاعر عربي:

ما كل ما يتمنَّى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لم تسلم من صروف الدهر وفساده، وتأثير الحضارة المادية وويلاتها، والشرور والفتن الجديدة، فتسربت إليها أيضاً احتجاجات وإضرابات، وقع عام (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م) إضراب في مدرسة دار العلوم ديوبند وأصبحت عرضة للاختلاف والصراع، فقدم الشيخ استقالته من عضوية المجلس الاستشاري للمدرسة، وظل متمسكاً بموقفه.

ثم بعد ثلاث سنوات قام الطلاب بإضراب في «مظاهر علوم» بسهارنفور، مما أثَّر تأثيراً سيئاً على الشيخ، وتأذى قلبه وانكسر، وكان يبدي مشاعره الجريحة وعواطفه المكلومة في مجالسه ورسائله إلى أصدقائه وأقاربه ومعارفه.

وكان الشيخ شديد المقت والكراهية للإضرابات في المدارس، ويمقت الطلاب المتورطين في الإضرابات وخاصة الذين يلعبون دوراً قيادياً فيها، ولا يعدُّهم جديرين بأي حسن ظن وثقة، وتكريم ديني، ولما علم الشيخ بما وقع في دار العلوم ندوة العلماء عام (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) من قيام الطلبة بالإضراب أبدى مقته الشديد للطلبة الذين علم تورطهم في الإضراب.

وكانت أحياناً تُلْصَقُ ورقة أو يُعْلَنُ عند منحه شهادة المسلسلات أن الذين اشتركوا في إضراب في أي مدرسة لا يمنحون الشهادة، بل كان يرفض إدخالهم في سلك بيعته، وقد صرح بذلك في رسائله: إنني لا أسمح لهؤلاء الأشرار بأن يتصلوا بي اتصال بيعة واسترشاد.

ومن الأسف الشديد أنه جُرِح قلبُ الشيخ في آخر حياته بما وقع في دار العلوم ديوبند من نزاعات وصراعات، وكان دائم الفكرة ومتواصل الأحزان لما يقع فيها، ويتضح همه وألمه وفكره في هذه القضية مما كتب في رسالته الموجهة إليَّ في (١٦ رمضان عام ١٤٠٠هـ)، فيكتب يقول:

«مدرسة ديوبند وسهارنفور تستولي على تفكيري ومشاعري وقلبي وعقلي هما جنتان سقاهما السلف بالدموع والدماء، وسهروا الليالي، وقد غرسوهما بإخلاص وتضحية، ولكن ضيعنا ولاية أشياخ، جعلنا إزاءها، ولم نول هذه الولاية العظيمة أي اعتناء، فإلى الله المشتكى، وقد نصح مشايخي أن هذه الأشجار تؤتي أكلها ما دام الإخلاص والنية الصادقة حية، وعندما يموت الإخلاص ويفقد، تمتنع عن أكلها، وآثار هذه النصيحة ملموسة وماثلة للعيون».

ويقول في رسالة أخرى بتاريخ (٢٥ رمضان ١٤٠٠هـ):

«يشتاق قلبي ويهفو إلى لقائك، والتحدث حول قضية «ديوبند»، وكلما يصل إليَّ وافد من الهند أسأله عن القضية، وما يزيدني إلا حزناً وألماً وينغص صفو حياتي، ليتهم يقرؤون تراجم السلف الصالح كالشيخ محمد قاسم

النانوتوي (مؤسس الجامعة الإسلامية بديوبند)، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (المشرف على تلك الجامعة و«جامعة مظاهر علوم» بسهارنفور وغيرهما من كبار العلماء)، فتنفتح عيونهم ويعتبرون، تحب نفسي أن لا يطالعوا إلا سير هؤلاء الأعلام المبرزين والعلماء الربانيين».

وكان الشيخ في آخر أيام حياته يسأل كل وافد من الهند أو من يكون على اتصال بهذه المدارس عن قضية دار العلوم ديوبند قبل كل شيء، ومن المؤسف أن هذه القضية لم يتم تسويتها في حياته، وقد سويت هذه القضية بعد جهد جهيد لحلها.

◌ وفاؤه للسلف وسلوكه الحسن مع المتصلين به:

ومما يتميز به الشيخ عن غيره من العلماء والمشايخ، عاطفتُه الجياشة للوفاء مع معلميه والمحسنين إليه، وسعيُه البليغ الحثيث للحفاظ على تراث سلفه العلمي، بل كان يسعى لنشر علومهم وآثارهم العلمية وتوسيع نطاق الاستفادة من فيوضهم العلمية والدينية، وكان يعد تراث سلفه أعز متاعه، ويفكر في إيصاله إلى العالم كله، ولا يوجد له نظير في هذه السمة الغالبة، ونتيجة لهذه العاطفة القوية المخلصة اعتنى اعتناءً بالغاً بنشر دروس العلامة رشيد أحمد الكنكوهي وأماليه باسم «لامع الدراري» بكل حب وإخلاص، وقام بنفسه بإضافات مفيدة وتعليقات ممتعة وحواشي قيمة عليها، وزين جِيْدَ هذا الكتاب بمقدمة علمية تحقيقية، وطلب مني أيضاً أن أكتب كلمة مستفيضة في التعريف به في العالم العربي.

وكذلك اهتم بنشر وطبع إفادات وتحقيقات للعلامة رشيد أحمد الكنكوهي التي قيدها وجمعها والده الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي على «جامع الترمذي» باسم «الكوكب الدري على جامع الترمذي» وأمرني بكتابة مقدمة له.

أما الكتاب الدسم «بذل المجهود في حل أبي داود» للعلامة المحدث الكبير والمربي الجليل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري فإنه قد استولى فكرُ إخراج هذا الكتاب وطبعه، على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما

كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، يفكر كل وقت في نشره في الحروف العربية ووصوله إلى أيدي علماء الحديث والمشتغلين بتدريسه وتحقيقه، وانتشاره في الأوساط العلمية والمدارس الدينية، وحلوله المحل اللائق به من بين شروح الحديث التي ألفت في العصور الأخيرة، إذ هو ليس مجرد تأليف شيخه، بل هو فلذة كبده وقطعة نفسه، وأحب أعماله إليه، فأصبح خروج هذا الكتاب في الثوب القشيب والمظهر الجديد أعز أمانيه وأكبر آماله يتلذذ بالحديث عنه ويتسلى بالتفكير فيه، وقد طابت له الحياة وهانت عليه المحن والخطوب في سبيل نشر هذا الأثر العلمي العظيم وتذكار شيخه الأثير الحبيب، وانتظار خروجه واكتماله، فكان الشيخ قد ملكته فكرة إخراج هذا الكتاب وتغلغلت في أحشائه، وخالطت لحمه ودمه، وسيطرت على مشاعره وتفكيره وذوقه، حتى كان يدعو لكل من يساهم في إعداده للطبع، وليس هناك داعية لهذه العناية البالغة بنشر التراث العلمي الذي خلفه أسلافه، إلا حبه ووفاؤه لأساتذته ومشايخه، وكان لهذا الحب الغامر والوفاء المخلص دور في تكوين شخصيته وقبوله لدى الناس.

وعلاوة على هذا الاعتناء الكبير بتراث سلفه العلمي والحفاظ عليه ونشره كان يهتم بتدوين سيرهم ونشرها، فقد أمر العزيز الأستاذ محمد الثاني الحسني الندوي بأن يعد ترجمة وافية للشيخ خليل أحمد السهارنفوري بأسلوب جديد وإضافة معلومات جديدة، فقام الأستاذ خير قيام بإعداد هذه الترجمة وألف كتاباً باسم «حياة خليل» (يعني: سيرة العلامة خليل أحمد السهارنفوري ومآثره الدينية الإسلامية والدعوية والعلمية) وأكمله في عام (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)، وكان يرسل أجزاء منه خلال تأليفه إلى الشيخ ليتناوله بالتمحيص والتحقيق، والحذف والزيادة، يقول الشيخ في رسالة له إليه:

«بعد التسليم والتحية، تلقيت مسودة كتاب «سيرة خليل» في المدينة المنورة وسررت بها كثيراً واستمعت إليها ورددتها إليك، وتقبل الله جهدك وجعله ذريعة للنجاح في الدنيا والآخرة، وقد جمعت معلومات ومواد مهمة عن حياة الشيخ خليل بجهد وجد وسعي مشكور والحمد لله على ذلك».

وقام العزيز السيد عبد الله محمد الحسني الندوي (الأستاذ بجامعة ندوة العلماء بلكنو، الهند) على إشارة من الشيخ بتلخيص وتعريب هذه الكتاب، وطبع هذا الكتاب عام (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، وقد قمت بتوجيه من الشيخ بإعداد ترجمتين عن الداعية العظيم الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس حركة الدعوة والإرشاد العالمية، والعالم الرباني الجليل الشيخ عبد القادر الرائي فوري، وذلك ليس إلا هذه العاطفة للوفاء والولاء التي عجنت بها طبيعته وامتزج بها لحمه ودمه، ثم قام العزيز محمد الثاني الحسني الندوي على طلب منه بإعداد ترجمة وافية عن حياة الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي[١]، وترجمة مختصرة عن نجله الشيخ محمد هارون الكاندهلوي (ابن بنت الشيخ محمد زكريا رَحِمَهُ ٱللَّهُ) وقد دعا له الشيخ وشجعه، وقدر عمله تقديراً.

ولم يكن هذا السلوك الحسن سلوك الإحسان والبر والوفاء مقتصراً على المحسنين إليه من أساتذته ومشايخه فحسب بل كان يحسن إلى كل من يحسن إليه مهما كان نوع إحسانه، بل يجزيه أحسن من عمله حتى يستحيي، وقد قمت بمساعدته في استخراج التأشيرات لرفقته في سفره إلى الحجاز عام (١٣٨٩هـ)، وحصل بها يسر وراحة للشيخ، فكتب الشيخ إليَّ رسالة شكر وامتنان أستحيي وأخجل كلما أقرؤها، يقول فيها:

(وليس من المبالغة ولا المجاملة أنني أقدم عنك الصلاة والسلام على النبي ﷺ بكثرة، وأسأل الله لك الدرجات العلى بإخلاص ومداومة، وأكتب وأنا خجل أن فضل هذا السفر الضخم يعود إليك، فلذلك أنت تشاركني في الأجر والثواب على ما قمتُ به من أعمال حسنة في هذا السفر المبارك بتوفيق الله وفضله، ولا أستطيع أن أجزيك على ما أسديت إليَّ من معروف إلا الدعاء، وقد أخبرتكم بذلك عملاً بـ «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»).

وكان هذا السلوك مع جميع الناس، أما دعواته فإنه قال مرة: إني

---

(١) نقل المترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: «حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ومنهجه في الدعوة».

تذكرت هذه المرة في الحرم الشريف أصدقاء قدامى، كان مسكين في «كاندهلة» (أو قال: كان شخص يجلس على الطريق) تذكرته فدعوت له أيضاً، وسألت الله له المغفرة والرحمة، فنظراً إلى ألطاف الشيخ ومعروفه وبركاته وخيراته تصدق وتتمثل أمام عيني جملة مأثورة «**أولئك قوم لا يشقى جليسهم**».

شفقته ومحبته:

وكان الشيخ مجبولاً (كعادة المشايخ وورثة الرسول ﷺ) على الحب والشفقة، والحنان والعطف على رفقته والمتصلين به والقاصدين والمريدين، وكانت شفقته ومودته تُذكِّر حنان الأم الرؤوم الحنون، وقد جرب هذه الشفقة والملاطفة كثير من الضيوف والوافدين إليه، وشاهدوا بأم أعينهم كرم الشيخ ولطفه ومحبته، وأبدوا إعجابهم بها، بل افتخروا بذلك وحسبوا أنه لا أكرم عليه منهم، فكان يحسب كل جليس أنه أكرم عليه من صاحبه، فكان الشيخ يؤنسهم ويلاطفهم، ويبالغ في إكرامهم والتفقد لما يسرهم ويلذهم.

وأنا أذكر معذرة إليكم تجربتي، وما كنت أتمتع به من عطف الشيخ ولطفه: لما أصبت بنزول الماء من العيون وضعف بصري لفشل عملية جراحية أجريت في إحدى عيني، أوصاني الشيخ بأن لا أسافر وحيداً لا إلى الخارج ولا في داخل الهند، وقال لي: لا تستحيِ من أن تكتب إلى من يدعوك للمحاضرات والندوات أنه لا بد من أن يرافقني في هذا السفر رفيقان أو رفيق على الأقل بالضرورة، إنهم يتحملون النفقة إذا كانت بهم حاجة إليك، وإلا فلا داعِيَ للسفر، ولا تتردد في ذلك أبداً.

وسافرت مرة إلى «حيدر آباد» بالخط الجوي وحيداً للمشاركة في اجتماع، وكنت مدعوّاً لإلقاء الكلمة حول السيرة النبوية وكان هذا السفر يستغرق يومين، وودَّعني رفقتي وأركبوني إلى مطار «دلهي»، وأنزلني واستقبلني منظمو الاجتماع في مطار «حيدر آباد» وذهبوا بي إلى مقر الاجتماع، وبعد الانتهاء من الاجتماع أوصلوني إلى المطار وأركبوني، ولما علم الشيخ بذلك استجوبني وقال: لماذا سافرت وحيداً بعدما منعتك منه؟.

وصحبت الشيخ في أحد أسفاره من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وكان الليل، ولما نزلنا بدار الأخ سعدي أمرني بأن آخذ مضجعي وأنام قائلاً: إنك مصاب بالألم في العين.. وأكد أن لا يرفع أحدٌ صوته، ثم ذهب بنفسه في الليل للعمرة. وقال لي: تقوم بتأدية العمرة والزيارة في النهار.

وكنت أحضر مجلسه في الصباح طيلة إقامته بالمدينة المنورة، وكانت عادته ان يطعمني بيضة مقلية وملعقة من المعجون وأنا أكون مشغولاً بالذكر، وإذا كان يعرض لي سفر أثناء إقامته بالمدينة المنورة إلى الرياض، يوصي خدامه أن يعدوا لي زاداً من المعجون يكفي لأيام إقامتي بها، وكلما أحضر إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة يعاملني الشيخ هذه المعاملة كعادته، ويؤكد على تناول المعجون، والعناية بالصحة، وكان الشيح يهمه ويقلقه شأني عندما أفقدُ سيارة الرابطة أو الجامعة ويسأل كيف أعود إلى مكان إقامتي من الحرم بعد الصلوات الخمس، ويقر قراره، ويهدأ باله إذا علم أن السيارة متوفرة، وكان يفكر في راحتي أكثر من بعد إجراء عملية جراحية في عيني الأخرى، وقد أجريت العملية الجراحية بأمر الشيخ في أمريكا ولما أخبرته من نيويورك أن العملية الجراحية تكون في أول يوليو في مدينة «فلادلفيا» في أمريكا أوصى الشيخ جميع الحاضرين أن يتوجهوا إلى الحرم الشريف ويشتغلوا بالدعاء لي واشتغل بنفسه بالدعاء، فكانت العملية ناجحة موفقة بفضل الله ومنه، أكتفي بسرد هذه الوقائع التي تدل على بالغ اهتمام الشيخ وعطفه على محبيه ولست وحيداً في التمتع بهذا اللطف والكرم، بل جرب هذا العطف والشفقة كثير من الناس.

◘ ميله الطبيعي إلى التبتل والانزواء:

قد أمضى الشيخ كما يبدو مما ذكرنا في الصفحات السابقة حياته في التدريس والإفادة، وتوجيه الكلمات في الاجتماعات وحضور حفلات التبليغ، واللقاء مع الغادين والرائحين وتزويدهم بما يحتاجون إليه، من تزكية وتربية، وإرشاد وتوجيه، وقام في آخر أيام حياته بجولات واسعة إلى إفريقية الجنوبية

وبريطانيا فتهافت الناس عليه فيها تهافت الفراش على النور، وتقاطروا إليه كالجراد المنتشر من كل حدب وصوب، ليلقوه وينهلوا من منهله الصافي الفياض، وكان يلتف الناس حوله في كل مكان ينزل فيه، فيتلقاهم الشيخ بطلاقة الوجه، ولا يلوي على أحد منهم بشره ولا يدخر وسعاً في تربيتهم وتوجيههم وإرشادهم فيما يهمهم من أمور، حتى لا يشعر أحد منهم أن الشيخ ينفر من الزحام، ويستوحش من الاجتماعات الحاشدة، ولا يستأنس بها، فظهر من إقبال الناس عليه وحبهم له ما لم يسمع من زمن بعيد.

ولكن الشيخ كان يحب الانزواء، والتبتل الكلي، والتفرغ للعبادة، والمناجاة والاشتغال مع الله، والخلوة لطبيعته أولاً، وتربية الشيخ الوالد محمد يحيى ثانياً، وكانت طبيعته تميل إلى الخلوة، ثم زادها قوة وشده التربية الروحية، وميله إلى السلوك والتربية، نورد هنا مقتبسات من رسائله وكتبه تدل على عاطفته الطبيعية ونزوعه إلى الخلوة والتبتل والانزواء.

يقول:

«أنا أستوحش من الاجتماع والزحام، والاشتراك في اجتماع يشق عليَّ للغاية، حتى أصبحت الغرفة المغلقة من داخلها أحب إلي من الغرفة المفتوحة، وأكثر أنساً وطمأنينة، لا أقبل إلى الاجتماع والاختلاط، حتى أستوحش من حضور المآدب والمناسبات»[١].

ويقول في رسالة بتاريخ (٢٤/ ١٢/ ١٣٨٨هـ) إليّ:

«أتذكر كثيراً أيام شبابي، حيث كنت أنا وحجرتي وحسب، لم يكن إنس ولا جان، ولا أنيس ولا جليس، وأصبحت الآن لكبر سني وضعف قوتي، وتدهور صحتي محتاجاً إلى اثنين أو ثلاثة أشخاص على الأقل، لا أستطيع التحرك والتنقل ولا القعود والقيام ولا البول والغائط إلا بمساعدة أحد، ثم يزيدني وحشة تقاطر الناس وتوافدهم إليَّ كل وقت، لا يقر لي قرار، ولا يأنس قلبي في حديقة، ولا يسكن إلى غابة، بل يستوحش منها، فأنى يحصل

(١) الاعتدال ص٣٢.

لي القرار، والأنس والطمأنينة، أسألك بجد مكاناً أنقطع إليه، ولا يصحبني إلا اثنان أو ثلاثة من رفقتي، وإن أعطاني الله جل شأنه القوة والهمة فاتركوني وحيداً، لا حول ولا قوة إلا بالله».

ويقول في رسالة:

«أنا أمر في هذه الأيام بحالة عجيبة، تميل طبيعتي إلى الخلوة والانزواء والانقطاع عن الدنيا، كل الميل، فيحضرني ما قاله العالم الرباني الشيخ عبد القادر الرائي فوري قبل أربعين سنة لمير آل علي السهارنفوري، ورأو يعقوب علي خان: تحدثوا معه (يعني: نفسه) بالحديث وأشغلوه ولا تبالوا إذا أنب أو وبخ، وإلا فتفقدوه ولا تجدوه».

ويقول في رسالة إليّ:

«لا أفهم ما تريد طبيعتي وإلى أين تتجه؟ ولم يبق لي أمل في مكان، وحبستني أمراضي، وخاصة خانتني رجلاي وأصبحت جليس البيت، لا أستطيع أن أعيش وحيداً، بعيداً عن الناس، ولذلك لم يعد أمل في الانقطاع إلى مكان، ولقد مضى الذين كنت أعيش في كنفهم فأين أذهب الآن؟وأنى لي الهدوء والقرار!»[١].

ويقول في رسالة بعث بها إليّ في (٢٤ فبراير ١٩٤٤م):

«منذ أيام كثيرة لا ترغب نفسي في أخذ البيعة ولا يميل القلب إلى الاشتغال بالتزكية والتربية؟ أشكر الله على أنه قيض رجالاً أكفاء للحفاظ على هذه السلسلة وهم أفضل مني، فقد توفرت الأسباب لبقاء هذه السلسلة، واستمرارها، فأشر عليّ بمكان أنقطع إليه للتحنث والتعبد فيه».

ذوقه الأدبي والشعري:

لا شك في أن الشيخ قد تربى في بيئة دينية وعلمية بحتة، ونشأ في تصون تام، وكان التدريس شغله الشاغل حتى أصبح لحمته وسداه، لكن ذوقه

---

(١) كتب الرسالة بتاريخ (٢٠ رجب ١٣٧٥هـ).

الأدبي والشعري رغم ذلك كان عالياً ونزيهاً ولطيفاً، ولا نبالغ إذا قلنا: إنه كان يحفظ مئات الأبيات العربية والفارسية والأردية، ويضعها في محلها اللائق بها في رسائله وكتاباته، يحكي الشيخ نفسه أنه ذهب مرة إلى القرية ليلاً وهو في ريعان شبابه، وقد اجتمع الأصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم، وبدأت بعد العشاء مساجلة شعرية وكانت شغلاً محبباً لدى الشباب المثقفين، ذوي القلوب الحية، وأعيان البلدة، واشتركت فيها حتى انقضى الليل كله، ولم أنتبه حتى سمعت أذان الفجر وظننت أنه أذن أحد خطأ، ولم يمض على قدومي إلا وقت يسير، ولكن سرعان ما زال ظني واستيقنت أنه أذان الفجر».

ومن يتابع سيرته الذاتية ورسائله يجد أن الشيخ كان يملك ذوقاً عالياً للأدب والشعر، وكانت طبيعته وذوقه مختلفاً عن الطبيعة السائدة في عصره في الأوساط الدينية.



الباب العاشر

إطلالة على كتبه وبحوثه

● ذوقه التأليفي وأهم مؤلفاته العلمية والتحقيقية:

كان الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالإضافة إلى الاشتغال بالتدريس والتعليم والتربية، والانقطاع إلى ربه، والانفراد بعبادته ومناجاته، وكثرة الغادين والرائحين، وتلقي الوافدين والقاصدين، وتربية المريدين، مجبولاً على التصنيف والتأليف، والكتابة والدراسة، والبحث والتحقيق، وحب المطالعة والقراءة، وكان يتمتع بذوق عالٍ في هذا المجال، وكانت لذته وطِيب عيشه وقرة عينيه في أن يقضي نهاره ويسهر ليله في خدمة الحديث الشريف والاشتغال به، تعليماً وتأليفاً، شرحاً وتعليقاً، نشراً وإضافة، وكانت أمنيته أن يكون له في كل موضوع يتعلق بالحديث النبوي الشريف وبالسيرة النبوية، نصيب، وعندما أسند إليه لأول مرة تدريسُ «مشكاة المصابيح» في شوال سنة (١٣٤١هـ) سمت همته وهو في السابعة والعشرين من عمره، إلى أن يفرد جزءاً في «حجة الوداع» نظراً إلى مكانة الحج في الإسلام، ومدى عناية الأمة بها، وكان إذ ذاك شاباً موفور الصحة، قوي الهمة، يهون عليه سهر الليالي، وعناء النهار فانصرف إلى تأليفه ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأول (١٣٤٢هـ) وفرغ من تأليفه في يوم وليلة، غير الحواشي التي أضافها في أوقات مختلفة، فجدد بذلك ذكرى مآثر السلف في الانقطاع التام إلى العلم والتأليف، والعكوف عليه ليلاً ونهاراً، وبركة الأوقات، وإتمام عمل كبير في وقت قصير ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وإن هذا التأليف الصغير في قامته، الكبير في قيمته، جامع لأحسن ما

كتب في هذا الموضوع[١]، وقد تشاغل المؤلف عن هذا التأليف زمناً طويلاً رغم فراغه منه في يوم وليلة، ثم لما أراد الله نشر هذا الخير ونفع المسلمين والمشتغلين بالحديث والسُّنّة وطلبة العلم به، وكان قد منعه ضعف البصر الذي اعتراه منذ سنين، ثم العملية الجراحية في العين في «علي جراه» سنة (١٣٩٠هـ) عن تأليف كتب جديدة، تستلزم مراجعة كثيرة، ومباشرة الكتابة والتصحيح، تَذَكّرَ هذا الكتاب القيم الذي تناساه وشغل عن إبرازه وإكماله وإعداده للطبع، فاستخرجه من بين الكتب والمسودات، وتناوله بتفصيل المجمل وشرح المبهم، وإيضاح المشكل، ونقل العبارات التي أحيل إليها، والكشف عن الإشارات التي جاءت فيه، وزيادة الدراسات التي تجددت عنده، والاستعانة ببعض المعلومات الجديدة التي حصلت له بحكم أسفاره العديدة، وإقامته الطويلة بالحرمين الشريفين، والاطلاع على مصادر جديدة، لا يبخل فيه بمعلوم، ولا يتحاشى فيه عن ذكر مصدر أو مساعد، وإن كان من طبقة تلاميذه، ومن الصغار، لا يرى فيه غضاضة لنفسه، ولا عيباً قادحاً لكتابه، وقد ذكر وشكر كل من أعانه في هذا العمل بقليل أو كثير شأن علماء السلف المخلصين والعلماء الربانيين.

ثم بدا له أن يكمل هذا الجزء ببحث في عمرات النبي ﷺ، وعددها، وتفاصيلها، وما اشتملت عليه من أحكام فقهية، وبحوث تاريخية، وفوائد علمية، وتحقيقات حديثة، فكان نهجه في هذا البحث نهجه في جزء حجة الوداع: استيعاب شامل، واستقصاء كامل، وتحرٍّ للصواب، وبحث عن الحقيقة العلمية، وتقرير للحق، وأمانة في النقل، وقد أيد هذا العملَ الجليلَ بعضُ المبشرات والرؤى الصالحة والإشارات الغيبية مما يدل على إخلاص المؤلف وابتغائه لوجه الله، وشغفه بالسُّنَّة والحديث النبوي، وعلى أن هذا العمل قد حظي بالقبول، فأصبح هذا الكتاب بما يمتاز به حجة ومرجعاً في

(١) وقد طبع هذا الكتاب «حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ» بطبعة ممتازة، وقد حققه الدكتور ولي الدين الندوي ابن الشيخ الدكتور تقي الدين الندوي (المترجم).

موضوعه، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه موسوعة صغيرة فيما يتصل بحجة النبي التي قد تسمى «حجة الوداع» وقد تسمى «حجة البلاغ».

يمتاز هذا الكتاب أولاً: بالاستيعاب لكل ما يتصل بهذه الرحلة المباركة، والركن العظيم، من قريب أو بعيد، من بيان المناسك ونقل المذاهب، واختلافات الأئمة، وآراء الشراح، ومباحث المحدثين والفقهاء، وتحديد المنازل وتعيين أسمائها ومواضعها في ضوء العلم الحديث، والتغيرات التي طرأت عليها، واقتباس أحسن ما كتب في هذا الموضوع في القديم والحديث، واستعراض النقول المفيدة عن كتب المتقدمين حتى يحار القارئ ويملكه العجب من هذا الاستقصاء.

ويمتاز ثانياً بالاطلاع الواسع الدقيق على مذاهب الأئمة وآراء فقهائها وعلمائها واختلافاتهم وصحة النقل ودقته وأمانته.

ويمتاز ثالثاً بمعرفته لفضل المتقدمين، والأدب معهم وإيتاء كل ذي حق حقه، والتصريح بأسمائهم والمصادر التي ينقل عنها والرد عليهم، وتبيين بعض أوهامهم في أدب جم، وتواضع ظاهر، وأسلوب علمي نزيه.

وأما كتابه العظيم «**الخصائل النبوية شرح الشمائل المحمدية**» للإمام الترمذي، فإنه بدأ تأليفه أثناء إقامته بـ «دهلي» لإعداد كتاب «بذل المجهود في حل سنن أبي داود» للطبع فكلما تسنح له فرصة أثناء تبييض مسودة «بذل المجهود» لا يتركها تمر بدون جدوى ولا يستريح، بل يقضيها في تأليف هذا الكتاب، فشرع فيه سنة (١٣٤٣هـ) وفرغ منه يوم الجمعة من شهر جمادى الآخرة (١٣٤٤هـ).

وعلاوة على هذين الكتابين اللذين أكملهما الشيخ المحدث في أقصر فرصة، له أعمال تأليفية دسمة، وهي حصيلة دراساته ومطالعاته العميقة الشاملة، وعصارة تحقيقاته العلمية الدقيقة الواسعة، وطول ممارسته لصناعة الحديث الشريف، وصفاء ذهنه، ودقة نظره، واطلاعه الواسع على ما ألف في هذا الموضوع.

ومن أهم وأبرز مآثره العلمية وأعماله التأليفيه «**أوجز المسالك إلى موطأ**

الإمام مالك» في ستة أجزاء كبار[1]، بدأ تأليفه في مسجد الرسول ﷺ عند أقدام الرسول الكريم ﷺ في غرة ربيع الأول (١٣٤٥هـ) وظل مشتغلاً به بعد عودته إلى الهند، تتخلله فترات طويلة، حتى أكمله في ستة أجزاء كبار، وقد استغرق أكثر من ثلاثين سنة، وإن هذه الكتاب تحفة سنية علمية للعلماء وطلبة هذا الفن، بما جاء فيها من علم جم، ومادة غزيرة، ومعلومات مفيدة، قد تشتت في بطون الأسفار وكتب التاريخ والأخبار، حتى أصبح بذلك موسوعة فيما يتصل بكتاب «الموطأ» ومؤلفه العظيم، هذا إلى ما جاء فيها من أصول وقواعد، ودرر وفرائد، وهو من أنفع شروح «الموطأ» وأغزرها مادة وفوائد حتى قال علامة الحجاز ومفتي المالكية السيد العلوي المالكي: «إنه لم يوجد أي شرح للموطأ كهذا الشرح العظيم حتى الآن» وكان يتعجب من سعة اطلاع المؤلف على المذهب المالكي وفروعه ودقته في نقلها، ويقول:

«لا أستطيع أن أصدق أن الشيخ محمد زكريا من علماء الحنفية لو لم يذكر في مقدمته انتماءه إلى الحنفية، وذلك لأنه ذكر ما ذكر من فروع كثيرة من الأحكام الفقهية للمذهب المالكي يتعذر العثور عليها في الكتب المالكية».

وقد اعتنى به علماء الفقه المالكي اعتناء بالغاً، وأبدوا تقديرهم البالغ له، وقد أعطى العالم المالكي الشيخ أحمد عبد العزيز بن المبارك رئيس القضاة بإمارات الخليج عناية كبيرة بطبعه ونشره.

زيَّن الشيخ جِيْدَ هذا الكتاب بمقدمة مفصلة علمية ضافية في فن الحديث وعلومه، وتاريخ الجمع والتدوين، وما يتصل بالكتاب ومؤلفه، من معلومات وفوائد، وما تهم معرفتُه من أحوالهما وأخبارهما، واعتناء الأمة بهما، ومعلومات قيمة عن اعتناء علماء الهند بهذا الفن الشريف، والكتاب الجليل، وأسانيد الحديث في الهند وشيوخها الكبار من مشايخ وأسانيد الإمام ولي الله الدهلوي.

---

(١) وطبع هذا الكتاب خارج الهند في خمسة عشر مجلداً، ثم أعيد طبعه في دار القلم بدمشق بتحقيق الأستاذ د. تقي الدين الندوي في ١٨ مجلداً (المترجم).

ثم ذكر الإمام أبا حنيفة ومكانته في فن الحديث الشريف، والعلم، والفقه، ومنهجه، ثم ذكر فوائد متفرقة، وأصولاً وقواعد، وتوجيهات رشيدة، نافعة. فإن هذه المقدمة حصيلة تحقيقاته ودراساته ومطالعاته، ونتيجة فكره وتأملاته.

و«**لامع الدراري على جامع البخاري**» وهو مجموع أمالٍ وتحقيقات للإمام الرباني شيخ المحدثين في عصره الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في أثناء تدريس «الجامع الصحيح» للإمام البخاري، قيدها تلميذه النجيب الوفي الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي وهو عصارة دراسات الشيخ، ولباب تأملاته، وعكوفه الطويل على علم الحديث، دراسة وتدريساً، وقد جاء دور الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي فنقّحها وهذَّبها، وتناولها بالشرح والإيضاح، والكشف والإبانة، وضم إليها ما فتح الله به عليه من نكت بديعة، وإشارات لطيفة، وتحقيقات نادرة، وتطبيقات فائقة، لا يعرف قيمتها إلا من باشر تدريس هذا الفن سنين طوالاً، وعرضت له معضلات ومشكلات أثناء الدرس في مدة طويلة، فلم يجد حلها في بطون الأسفار والكتب المتداولة والشروح المشهورة السائرة.

وكتب الشيخ مقدمة علمية مفصلة ضافية في علوم الحديث، وأنواع المؤلفات فيها، ومراتبها وطبقاتها وخصائصها، ودائرة معارف فيما يتصل بالإمام البخاري وسيرته وأخباره، ودقائق حياته وجلائلها وخفيات أموره وظواهرها، وما خصه الله به من مواهب وخصائص، ومنهجه في التأليف، وما التزمه من التزامات وشروط في وضع هذا الكتاب، وبما تلقته الأمة من اعتناء وقبول، وإقبال وتقديم وتوثيق وتصحيح، وثقة واعتماد، وتناقل وتوارث، وشرح وإبراز لكل ناحية من نواحي هذا الكتاب.

وقد اجتمعت في هذه المقدمة فوائد وعلوم، قد تفرقت وتناثرت في كتب هذا الموضوع فجمع مؤلفها في هذه المقدمة، ويجد فيها المعلم والتلميذ غاية ما أورد به على البخاري واستشكل من هذا الكتاب، ثم جوابه الشافي، وشرح شرحاً وافياً لرموز البخاري ومصطلحاته ومقاصده وأسراره في التراجم ولطائفه في التأليف، هذا عدا معلومات قيمة عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم، وبحوث

مفيدة في أصول الحديث، وأسماء الرجال، فجاءت شاملة كاملة وموسوعة واسعة يجد فيها الطالب ما يفتق قريحته، ويشحذ ذهنه، ويرفع همته، ويجد فيها المعلم الحاذق والأستاذ الكامل ما ينير سبيله، ويسهل مهمته، ويوفر عليه وقته وجهده، وأصبحت مرجعاً لطلاب الحديث والأحناف، وهي حصيلة دراساته وتحقيقاته في هذا الفن الشريف، وفيها دفاع قوي عن الأحناف.

وكتابه «**الأبواب والتراجم للبخاري**» أحسن نموذج لذوقه العلمي والتحقيقي، وحبه لكبار المحدثين، والسعي لصيانة علومهم وتراثهم العلمي، ويحتوي هذا الكتاب على كل من أصول الشيخ الإمام ولي الله الدهلوي، والقواعد الكلية للتطبيق بين الأبواب والتراجم، وأبواب لا ترجمة لها، وكذلك كل ما جاء في رسالة الشيخ العلامة محمود حسن الديوبندي، وما وجد من فوائد في دروس الشيخ الكبير مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، وكذلك كل ما وجده من أصول وقواعد من كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني والحافظ العيني، واستوعبها، وزاد عليها مما كان خاطره عذرته ولم يسبق إليه حتى بلغ عددُ هذه الأصول الكلية إلى سبعين أصلاً وقاعدة، وهي حصيلة ذوقه السليم، ونظره العميق، وطول اشتغاله بالحديث، فاحتوى على علم غزير، لم نجده في كتاب واحد، والغيب عند الله.

وتناول الشيخ كل كتاب من كتب «الجامع الصحيح»، وتكلم على أبوابها وتراجمها باباً باباً وترجمة ترجمة، فجاء الكتاب سفراً ضخماً قد يقع في عدة أجزاء، وأصبح الكتاب موسوعة أو دائرة معارف بالتعبير الحديث في كل ما يتصل بالأبواب والتراجم في «الجامع الصحيح» للبخاري مغنياً عن غيره، وبذلك أغنى طلبة علم الحديث ومدرِّسيه، عن تتبع هذا الموضوع في كل كتاب والتقاط الدرر من كل بحر، ووفَّر عليهم وقتاً طويلاً وعناء كبيراً، ولا يعرف قيمة هذا الكتاب وما فتح الله به على مؤلفه من الرأي السديد والقول الصواب وما أتى به فيه من لباب النقول وصفوة الأقوال ومحصول العقول والألباب إلا من مارس هذه الصناعة واشتغل بتدريس الكتاب مدة طويلة، ولقي الجهد والعناء في حل غوامضه وفك مشكلاته.

وإن هذه الكتب الخمسة التي تتعلق بفن الحديث الشريف وأمهات الكتب المتصلة به تكفي أن يعد مؤلفها عظيماً وفريد دهره في الحديث على الأقل، في زمرة المشتغلين بالحديث تدريساً وتأليفاً، وشرحاً وتحقيقاً، وبحثاً ودراسة.

وأضاف الشيخ إليها كتاب «**الكوكب الدري**» وهو مجموعة إفادات وتحقيقات للإمام رشيد أحمد الكنكوهي، قيدها تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي والد الشيخ محمد زكريا، زيادات مفيدة، وفوائد ممتعة، وعلق عليه تعليقاً مفيداً منيراً يكشف عن الغامض، ويفصل المجمل، ويوضح المبهم، وضمه إلى تحقيقات استخرجها من كتب أخرى، وعني بتنقيح الأقوال، وتحرير المذاهب، معتمداً في ذلك على ما توصل إليه من كتب المذاهب الأربعة التي لم يتم نشرها في حياة الشارح، ولم يتسنَّ له الاطلاع عليها فزاد في قيمة الكتاب العلمية وساعد على الانتفاع به، وزاد فوائد استفادها في حياته التعليمية الطويلة، وطول ممارسته لصناعة الحديث وكثرة مراجعته لما ألف في علوم الحديث، وأضاف إليه كذلك ما استفاده من دروس والده العلامة، وقد تكون أموراً ذوقية أو علوماً وجدانية، هداه إليها ذوقه السليم ونظره العميق وطول اشتغاله بصناعة الحديث، وإخلاصه وصفاء ذهنه، وقد تكون أقرب إلى الصواب، وأكثر كشفاً لمعاني الحديث من كثير مما تناقله الشراح.

وقد تملك على الشيخ مشاعره الشغفُ بالتصنيف والتأليف وخدمة الحديث، تدريساً وتأليفاً ودراسة وتحقيقاً وتعليقاً وتحشية، حتى ينسى كل ما يقع حوله من أحوال وظروف، وينفض يده حتى عن حاجاته القصوى منقطعاً إلى دراسة الحديث، يقول في رسالة موجهة إليّ وهو مقيم بالمدينة المنورة:

«كنت حِلسَ نظام الدين بدلهي سنة (١٩٤٧م) ولك علم بالأوضاع السياسية في ذلك الحين، ولم تكن لي نية في العودة، ولكن المولوي نصير الدين تلطف إليَّ بحيلة لطيفة حيث كتب يقول: وجدنا بفضل الله كاتباً وكلفناه بكتابة المجلد الرابع من مجلدات «أوجز المسالك»، وكان قد بُدئ عمل الطباعة، ولكن تقسيم الهند حال دون طبعه، وضاعت بعض الأوراق

المكتوبة، وتلف كثير من الورق الذي كان قد اشتري في كمية كبيرة، فعزمت على السفر فور تلقي هذه الرسالة، وأخبرت المولوي محمد يوسف بذلك، ويقلقني ما قاله هذا الراحل الكريم في ذلك الحين تلهفاً على الفراق: «أخي أنت تفارقني في هذا الحال وكذلك يحز في ضميري ما رددته عليه: الآن قد استتب الجوُّ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي، فلا أستطيع أن أمكث هنا لتأليف «أوجز المسالك». هذه القضية طويلة ولكن كلما تذكرتها تكدر صفو الحياة، وتحدث اضطراباً وقلقاً في نفسي، ولما وصلت إلى «سهارنفور» عرفت حيلة المدير اللطيفة، ولم يكن هناك كاتب ولا شيء آخر»[١].

◘ ذوقه التاريخي والتحقيقي:

كان الحديث الشريف وعلومه أكبر همه وغاية رغبته، وشعاراً يعرف به، وغلب على اسمه فاشتهر في آخر الأمر بـ«شيخ الحديث» فكانت صناعة الحديث الشريف مجال دراسته وبحثه وتحقيقه، وكان يعتبر الاشتغال بالحديث وعلومه أكبر وسيلة للتقرب إلى الله والزلفى لديه ورسوله، وحق له أن يقول: «لقد نسيت أو تناسيت كل ما حفظته ذاكرتي، ووعاه ذهني، حتى لا يستطيع لساني أن ينطلق إلا بحديثه ولا يلتهج إلا بذكره وثنائه»..

ولكن بالإضافة إلى هذا الشغف والغرام بالحديث النبوي الشريف وما يفضل به من علوم وفنون، كان يحمل ذوقاً عالياً للتاريخ والتحقيق، كان يندر وجوده في المدارس الدينية في عصره، حتى فاق أقرانه ومعاصريه في هذا المجال، فكان يقيد يومياته في كتابِه «**التاريخ الكبير**» وهي تشتمل على معارف وحوادث وسنين وفيات يتعذر العثور عليها في أمهات الكتب.

وكانت نتيجة ذوقه التاريخي وحبه لمدرسته «مظاهر علوم» بسهارنفور أنه ألف كتابه «**تاريخ مظاهر علوم**». ذكر فيه تاريخ تأسيس مدرسة مظاهر علوم، وتقدمها ومنهج بناتها والمسؤولين عنها، وإخلاص الأساتذة والمدرسين في

---

(١) كتبت هذه الرسالة في غرة شوال بالمدينة المنورة.

أعمالهم، وما حدث فيها عبر القرون من تطورات وتعديلات في المقررات الدراسية، وما إلى ذلك من جليات وخفيات، وحقائق ودقائق، يندر نظيرها في وثائق وملفات أية مدرسة أخرى، وهذا الكتاب يحتوي على (١٦٢) صفحة، وكل صفحة منها تدل على حبه الشديد لمدرسته وتاريخها ومآثرها، ومعرفته الواسعة الدقيقة العميقة بأحوالها وظروفها، وكل عندليب يعجبه حديث حديقتها وأزهارها ونضارتها وبهجتها.

ومن الكتب التي تدل على ذوقه التاريخي والعلمي كتاب «**تاريخ مشايخ جشت**» الذي ألفه عام (١٣٣٥هـ) واحتوى على (٣٥٩) صفحة، وقامت بنشره وطبعه «مكتبة إشاعة العلوم» بسهارنفور عام (١٩٧٣م)، تناول فيه تاريخ السلسلة الجشتية بالبحث، وذكر أسانيد كبار مشايخها وخاصة مشايخ السلسلة الصابرية وهي تبدأ من العالم الرباني الشيخ علاء الدين علي صابر الكليري (المتوفى سنة ٦٩٠هـ) وتنتهي إلى الشيخ خليل أحمد السهارنفوري (المتوفى سنة ١٣٤٧هـ)، ولا يعرف قيمة هذا الكتاب وأهميته إلا من له معرفة بالسلاسل وواجه الصعوبة في جمع معلومات عن سير هؤلاء العلماء الربانيين وأحوالهم وما لقيه أصحاب السير من عناء ومشقة في هذا الصدد، فتوسع له النطاق بعد رحيل شيخ العرب والعجم الشيخ إمداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة (المتوفى سنة ١٣١٧هـ)، فأسهب وأفاض في وضع ترجمة وافية لمشايخه.

والكتاب الآخر الذي يشهد بنبوغه وذوقه الخصب في مجال التاريخ هو رسالته «**المؤلفات والمؤلفون**» وهي رسالة علمية ضافية في علوم الحديث وكتبه وكتب الفقه وما يتصل بالكُتّاب والمؤلفين المعروفين، وقد ذكر فيها المصادر والمراجع التي أحيل إليها في التراجم والسير وقد بدأها في غرة جمادى الآخرة (١٣٤٥هـ)، واستمر عليه حتى أصيب بعاهة في بصره عام (١٣٨٨هـ).

وأما التأليف الثالث من هذا الطراز فهو كتابه «**الوقائع والدهور**» الذي جمع فيه أوضاع وحوادث العهد النبوي، والخلافة الراشدة، والعصر الأموي، وهو يشتمل على ثلاثة أجزاء من ناحية العصور، فالمجلد الأول منها خاص بالعصر النبوي، والمجلد الثاني يتعلق بالخلافة الراشدة، والمجلد الثالث

يتصل بالعهد الأموي، وبدأ عمل هذا الكتاب في الخامس والعشرين من المحرم عام (١٣٤٢هـ) واستمر تأليفه إلى عام (١٣٨٨هـ).

وإن هذه الكتب التاريخية تدل على علو كعبه وطول باعه في فن التاريخ وكتابة السير والتراجم، وهذه ميزة له فريدة تميزه عن غيره من العلماء المعاصرين له.

ولما كان الشيخ يعاني من آلام وأسقام مضنية أثناء إقامته بالحجاز أخذ يملي رسالة حول «**فضائل اللغة العربية**» وبدأها في الخامس والعشرين من صفر (١٣٩٦هـ) قبيل صلاة الظهر في المسجد النبوي الشريف[١] وملكت عليه الرسالة قلبه ومشاعره وعواطفه، واستولت على ذهنه وفكره حتى كتب إليَّ رسالة تدل على اشتغاله الشديد بتأليفها:

«أرجو وآمل تلقي رسالته، وأحنّ إلى لقياه، فما أعظم هذا الانتظار شدة وعناء!.

وقد أمليت في خمس أو ست رسائل، مضموناً ذا أهمية وقيمة، وذلك أنه يساورني بصورة مستمرة أن أكتب رسالة حول فضيلة اللغة العربية منذ أربعة أشهر، ولا أتذكر أني كتبت إليك خلفية هذه الرسالة أم لا، ولكن لا أجد كتاباً مشتملاً على الروايات والأحاديث في هذا الصدد، وقد سمعت قبل شهرين خبر قدومك إلى الحرمين الشريفين فكتبت إليك رسائل متتابعة، طلبت فيها أن تأتي معك بما يتوفر لديك في مكتبة ندوة العلماء من معلومات ومواد في شأن هذا الموضوع في رسائل أو كتيبات، ثم ترجع بها معك، وكذلك ذكرت فيها أن تقول للعزيزين الرابع[٢] وواضح[٣] أن يبحثا عن روايات صحيحة وردت في تفسير آية في تفسير «الدر المنثور» أو في تفسير آخر، ويرسلا إلي قائمة المظان والمصادر لكي أبحث عنها بمعونة الأصدقاء».

---

(١) يبدو من مقدمته أنه قد بدأها بالمبشرات والرؤيا الصالحة التي رأى فيها الرسول ﷺ يأمره بذلك.

(٢) سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي الرئيس العام لندوة العلماء.

(٣) فضيلة الشيخ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي مدير الشؤون التعليمية لندوة العلماء.

◌ رسائله حول الفضائل في الأعمال والأخلاق وقصص الصحابة رضي الله عنهم :

إن عدد ما ألف وصنف وكتب ووضع يربو على أكثر من مئة كتاب بين مطبوع وغير مطبوع وكبير وصغير، وقد حظيت كتبه ورسائله حول سير الصحابة والفضائل من القبول ما لم يحظه كثير من الكتب المؤلفة حول هذه المواضيع، وأعيد طبعها مراراً يصعب إحصاؤها، وتناولتها الأيدي وتناقلتها الألسن ورددها الخطباء وخاصة أدخلت في مقرر جماعة الدعوة والتبليغ العالمية فانتشرت في أرجاء المعمورة كلها وطبق صيتها الخافقين، ووضع كتباً ورسائل في الدعوة إلى الله والإصلاح في أسلوب سهل، يتنزل فيه إلى مستوى العامة، وقد قوبلت هذه الرسائل بقبول عام، وانتفع بها خلق لا يحصون، وظهرت لها طبعات لم تتيسر إلا لكتب دينية معدودة في عصرنا، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن عدد نسخها المطبوعة قد تعدى الملايين، وقال أحد العلماء المعاصرين له: «إن آلافاً من الناس وصلوا بها إلى القمة من الفضل والكمال والورع والتقوى ودرجة الولاية».

ومن بين كتبه المطبق صيتها الخافقين كتاب **«حياة الصحابة»** ويتميز هذا الكتاب الرائع بإثارة الشعور الإيماني، وإعلاء الهمة في سبيل الدعوة، وتحمل مشاقها، وتجرع مرائرها، وقد ألفه الشيخ تحقيقاً لرغبة العالم الرباني الشيخ عبد القادر الرائي فوري (المتوفى سنة ١٩٦٢م) في وضع كتاب مؤثر في سير الصحابة وتضحياتهم في سبيل الدعوة إلى الله، وكان الشيخ لم يتمكن من تحقيق رغبته في حياته لأعماله الكثيرة من التدريس والتأليف، وتربية القاصدين والمريدين حتى أصيب بمرض شديد في الأنف عام (١٣٥٧هـ) فمنعه الأطباء من الأعمال التي تستنفد العقل والذهن، ولكن الشيخ لم يكن يمكنه الامتناع عن العمل والمطالعة والتأليف، فاشتغل بتأليف هذا الكتاب «حياة الصحابة» وأكمله في (١٢ شعبان ١٣٥٧هـ)، وقد حظي بقبول عظيم، وأصبح من الكتب الدراسية لجماعة الدعوة بصفة خاصة والمعنيين بالدعوة والراغبين في الدين بصفة عامة، وكتب لها من القبول والانتشار والشهرة والذيوع وتداول الأيدي ما لم يكن لأي رسالة دينية في أردو، وظهرت لها طبعات تفوق العد

والإحصاء، وانتفع به خلق لا يحصون بحد وعد لأسلوبه العذب السلس السهل الأخاذ بمجامع القلوب وما فيه من حكايات مؤثرة في النفوس، مرققة للقلوب، مثيرة للهمم الخامدة وباعثة للعزائم الفاترة.

ومن مآثره العظيمة وجهوده المشكورة تأليفُ كتب ورسائل في الفضائل والإصلاح والدعوة إلى الله بأسلوب سهل سائغ، ومما يدل على تفقه الداعية العالم الرباني الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في الدين وفراسته الإيمانية وفهمه العميق لروح الدين أنه أدرك أهمية الفضائل وقوتها وتأثيرها العظيم في الحياة والعمل، إنه أدرك أن «القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط، هي الإيمان بالنفع، ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفلاح في يوم شاتٍ، شديد البرد، فيحرم عليه الدفء ويبكر به إلى الحقل، وفي يوم صائفٍ شديدِ الحر، يهون عليه وهج الشمس، ولفح السموم، ويفصل بين التاجر وأهله، ويتوجه به إلى متجره، ذلك الإيمان هو الذي يزين للجندي الموت في ساحة القتال، وفراق الأحبة والعيال، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً، إن كل ذلك إيمان بالمنافع وحرص على الخير، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة، وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثلة، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل، ونزل به الوحي، ونطقت به الصحف، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه، وجزائه في الدنيا والآخرة»[1].

وقد عُبِّرَ عن ذلك في أحاديث الفضائل بـ«الإيمان والاحتساب» ولا بد لكل مؤمن أن يجعل ذلك الإيمان قوة باعثة لعمله.

كان الداعية الإمام محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ العالمية يقول: «إن الفضائل تأتي قبل المسائل؛ لأن الفضائل تقوي اليقين بنيل الثواب والأجر على الأعمال، وهو درجة الإيمان، وتحث الإنسان

(١) هذه العبارة مقتبسة من الأركان الأربعة، للشيخ الندوي ص١٩٩.

على العمل، ولا يحتاج إلى معرفة المسائل إلا بعد التهيؤ للعمل، ولذلك للفضائل عندنا أهمية قصوى».

فتحقيقاً لهذا الغرض صنف الشيخ رسائل في الفضائل: فضائل الصلاة وأهميتها، فضائل رمضان، فضائل القرآن الكريم، فضائل الذكر، فضائل الحج، فضائل الصدقات، فضائل الدعوة إلى الله، وفضائل الصلاة على الرسول ﷺ، وقد صنف أكثرها على طلب من الداعية الإمام محمد إلياس الكاندهلوي[1]، ورسالة فضائل القرآن وفضائل الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ، على طلب الشيخ محمد ياسين النكينوي خليفة العالم الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، بدأ تأليف فضائل الحج في (٣ شوال سنة ١٣٦٦هـ) وقد ذكر في الكتاب حكايات رشيقة وقصصاً مثيرة خلابة مؤثرة، وأبياتاً مرققة عذبة تتعلق بروح الحج وغرضه السامي، فجاء الكتاب حافلاً بالروعة والجمال والتأثير والتشويق والترغيب، كما يدل على ذوقه الشعري وحسن اختياره، ويبدو من قراءة هذا الكتاب سيلانُ قلمه وانطلاقه بسلاسة وإطلاق النفس على سجيتها، ورقة القلب ولطافة الطبع، والحنين إلى رؤية القبة الخضراء، وزيارة المدينة المنورة، وبيَّن آداب زيارة المدينة، والأشواق إليها بتفصيل وبغاية من الشوق والحنين والهيام فأصبح الكتاب حادي الشوق إلى المدينة.

وكذلك ذكر في فضائل الصدقات حكايات الصالحين وعباد الله المنفقين وما يتصفون به من إيثار وتوكل وحنين إلى الآخرة، وقصصاً رائعة تصغِّر متاع الدنيا وتجعله حقيراً تافهاً في العيون، وتحدث في القلوب والأذهان عظمة الآخرة وأهميتها، والشوق والحنين إلى اللقاء، فإن جميع هذه الرسائل تحمل تأثيراً عظيماً، ورقة وإثارة للهمم، وبعثاً للعزائم ترقق القلوب والنفوس،

(١) وقد طبعت هذه المجموعة القيمة باللغة العربية باسم «منهج الحياة الإيمانية والتربية الدينية» المكتبة اليحوية بسهارنفور (الهند) باعتناء نجل المؤلف الشيخ محمد طلحة الكاندهلوي، وتقديم الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء بلكنو (المترجم).

وتشوق إلى الآخرة، وكتب لها من القبول والرواج والشهرة والذيوع وتداول الأيدي وإقبال الناس ما لم يكتب لغيرها، وظهرت طبعات كثيرة لا تعرف العد والإحصاء، واستفاد بها خلق لا يحصون بحد وعد.

وقد نهج الشيخ فيها نهج المؤلفين في فضائل الأعمال والأخلاق والترغيب والترهيب، وتوسع بعض التوسع شأن المؤلفين في هذا الموضوع، واعتنى بحكايات الصالحين والعباد الخاشعين المرققة للقلوب، المؤثرة في النفوس، وأضاف إليها حكايات مشايخ العصر الأخير وصلحاء هذا الجيل؛ لأنها أكثر إثارة للهمم الخامدة وأكثر بعثاً وحفزاً للعزائم الفاترة، وحيث أورد حديثاً فيه ضعف أو لين أو كلام للمحدثين ضعَّفه، وذكر نقد أهل الصناعة له، فجاءت هذه الرسائل والكتب جامعة بين أمانة المحدث ونزاهة العالم وتأثير الواعظ، وصحبة المربي، لذلك كان نفعها شاملاً لكافة طبقات المسلمين ولها تأثيرها ووقعها في القلوب والأذهان.

◘ جمعه بين الأسلوبين:

إن الذين يتعودون الأسلوب العلمي والمنهج التحقيقي لا ينجحون عادة في وضع كتب أو رسائل بأسلوب دعوي بحت ومنهج إصلاحي وأسلوب سهل يفهمه العامة وكذلك الذين يتعودون الأسلوب الدعوي والإصلاحي العام لا ينجحون في اختيار الأسلوب العلمي بأسسه وخصائصه ومعاييره، ولكن الشيخ يمتاز عن أقرانه ومعاصريه في هذا المجال، وهو جامع بين الأسلوبين الأسلوب الدعوي الإصلاحي والأسلوب العلمي التحقيقي، ونجح في الجمع بينهما أيما نجاح، تُمَثِّلُ أسلوبَه العلمي كتبُه ورسائلُه العلمية: «**جزء اختلافات الصلاة**»، و«**جزء اختلافات الأئمة**»، و«**جزء المهمات في الأسانيد والروايات**»[١]، وتمثل أسلوبَه الدعوي السهل كتبُه: «**حياة الصحابة**»، **ورسائل الفضائل** وترجمته «**الخصائل النبوية شرح الشمائل المحمدية**» للترمذي، خير

(١) ومن الأسف أن جميع الرسائل غير مطبوعة.

مثال لجمعه بين الأسلوبين، فيبدو الشيخ في هذا الكتاب مؤلفاً قديراً، ومحققاً باحثاً، وشارحاً موفقاً، ومؤرخاً أميناً، وداعياً مصلحاً واعظاً مذكراً الناس على قدر عقولهم، وقد تجلى في بعض المواضع من الشرح ذوقُه الأدبي، وظهرت طلاوة العبارة وحلاوة التعبير؛ لأن الشارح كانت له قدم في الأدب، وقد تأتي العبارات مقفاة مسجوعة على عادة الكُتَّاب في ذلك العصر من غير تكلف وركاكة.



الباب الحادي عشر

مواعظ ونصائح

ﻫ مقتبسات من مواعظه:

نظراً لهذه الحقيقة أن العلماء الربانيين والدعاة المخلصين والمشايخ الروحيين لا يهمهم إلا الدين، فيولونه جل اهتمامهم، ويهتمون بنشر ما دعا إليه الإسلام، وأكد عليه النبي ﷺ، وتقديم عصارة دراستهم، ونقل تجارب حياتهم، وتوجيه نصائحهم المخلصة أكثر من اهتمامهم بما يتعلق بحياتهم من الأمور والأحوال.

لأنهم كانوا يعتقدون أن الآخرين يستطيعون بذلك الوصول إلى درجات عالية، والحصول على ترقيات روحية، والتجنب من الوقوع في الأخطاء، والتعرض للأخطار، بالسير على ما ساروا عليه، والعمل بما عملوا به، والاحتراز عما احترزوا عنه.

فنظراً لهذه الحقيقة أقدم هنا مقتبسات من مواعظ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وأحاديثه وكتبه لينتفع بها من لم تتح له فرصة لدراسة هذه الكتب والبحوث والاستماع لهذه المواعظ والخطب.

١ ـ التصوف وحقيقته بكلمتين:

قال: كنت أشتغل في غرفتي بأمر مهم، إذ جاءني الأخ نصير، وأخبرني أن رئيس الأحرار الشيخ حبيب الرحمٰن اللدهيانوي يريد أن يصافحني، وهو يتوجه إلى «رائي فور»، فقلت له: أرسله إليَّ، فدخل عليَّ وسلم، ومد يده إليَّ قائلاً: أنا أذهب إلى «رائي فور»، وألقي عليك سؤالاً وأريد منك أن تجيبني على هذا السؤال حين أعود إليك صباح الغد، والسؤال: ما هو التصوف؟ وما هي حقيقته؟ فأجبته وأنا أمسك بيده، التصوف هو تصحيح النية، فهو يبدأ

بقول نبينا محمد ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وينتهي بقوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، فأخذته الدهشة، وهب واقفاً وقال لي: عرفت اليوم لأول مرة معنى التصوف، مبدؤه «**إنما الأعمال بالنيات**»، ومنتهاه، «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

٢ ـ قيمة الوقت:

قال: الوقت من أغلى الأشياء وأثمنها، فمن أتيح له وقت من حياته عليه أن يعرف قيمته، ويقدره حق قدره، ولا يضيعه في أمور لا تجديه في الآخرة، فقد روي عن النبي ﷺ: «**فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن حياته لموته، ومن شبابه لكبره، ومن دنياه لآخرته، وإن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة**».

٣ ـ العبودية والطاعة:

قال: إذا أطعتم ربكم وخضعتم لأوامره يخضع لكم كل ما في هذا الكون، ألم يبلغكم ما وقع لأصحاب النبي ﷺ من الحوادث الغريبة التي لا يصدقها العقل، وكل ذلك كان نتيجة لعبوديتهم لله وخضوعهم لأوامره.

«أراد عقبة بن نافع أن يتخذ مدينة في إفريقية تكون معسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد، فقصد مكان «القيروان»، وكانت وحلة مشتبكة، بها أنواع من الحيوانات والسباع والحيات وغير ذلك، فدعا الله وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى أيها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل فرآه كثير من البربر فأسلموا».

٤ ـ المعاصي الشيطانية أخطر على الإنسان من المعاصي الحيوانية:

قال: للمعاصي نوعان: الحيوانية والشيطانية، أما المعاصي الحيوانية فهي تضم الأكل والشرب واحتقار الآخرين، كتبت عن ذلك في رسالتي «الاعتدال» فاعترض عليّ المفتي محمود قائلاً: إن هذه الرسالة تخفف من خطورة وشناعة المعاصي من النوع الأول، رغم أن الأمر لم يكن كذلك؛ لأن

المعاصي الحيوانية ينال مرتكبوها إعفاء عما فعلوه بتوبتهم إلى الله وتضرعهم إليه، وأما المعاصي الشيطانية فلا يوفق لمقترفيها بالتوبة والإنابة إلى الله إلا قليلاً؛ لأن الذين يأتون بمثل هذه المعصية لا يعدونها من الذنوب والآثام فيستمرون فيها دون أن يشعروا بخطورتها.

والدليل على ذلك أن آدم ﷺ كان قد منع عن الاقتراب من الشجرة لكنه دنا منها خطأ، ثم تاب الله عليه وكتب له الجنة، وفي جانب آخر أبى الشيطان أن يسجد لآدم تكبراً وتحدى الله في كبريائه وعظمته فكتب له النار.

قد رأيت كثيراً من الناس قد صعدوا على الدرجات الروحية بالإكثار من السجود والذكر والتلاوة لكنهم سقطوا من تلك المكانة؛ لأنهم كانوا يحتقرون الآخرين ويطعنون فيهم، ويوجهون سهام النقد إليهم، وعلى كل حال، لو جمع أحد هذين النوعين من المعاصي كليهما فأمره أخطر وحسابه أشد.

٥ ـ للمسترشد أن ينظر إلى الأيام الأولى من حياة مرشده الروحي:

قال: يقول مشايخنا: إن من نظر إلى الأيام الأخيرة من حياة شيخه فقد خاب وفشل، ومن نظر إلى الأيام الأولى من حياة مرشده فقد فاز ونجح؛ لأن الأيام الأولى من حياتنا تشهد جهداً وكفاحاً وشدائد ومحناً، وهو عبارة عن الإيثار والتضحية، والشظف والتقشف وكبت النفس وقمع الشهوات، وأما الأيام الأخيرة من حياتنا فتصب فيها علينا الأموال، وتتوفر لنا التسهيلات، وتتساقط علينا النعم من السماء.

٦ ـ التضحية والمجاهدة من شروط الارتقاء الروحي:

قال: يقول الشاعر ما معناه: تحمر أوراق الحنا الخضراء بعد احتكاكها بالحجر، إذا حكت أوراق الحنا ثم توضع على شيء، فيحمر ذلك الشيء، ولكن إذا وضعت أوراق الحنا دون أن تحكها بحجر فلا تجديه شيئاً، ويبقى ذلك الشيء على حاله ولا يتغير لونه.

كان يقول الشيخ حسين أحمد المدني: كنت أذكر في مسجد «الإجابة» بالمدينة المنورة فكانت تدفعني نفسي إلى أن أحطم رأسي بالجدران.

٧ ـ الفرق بين الصورة والحقيقة:

قال: إننا نكتب لأنفسنا بأيدينا ما يدل على تواضعنا واحتقارنا لأنفسنا، من الخاطئ والآثم والمذنب، لكن إذا استخدم لنا أحد من الآخرين مثل هذه الكلمات تثور ثائرتنا وتنفجر غضباً فإذا كنا صادقين فيما نقول، ونعتبر أنفسنا خاطئة مذنبة آثمة، فلماذا نكره قوله ولماذا نسخط على صاحبه، فقد قال نبينا ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

فلا بد للذين يخرجون في سبيل الدعوة، ويعرفون بانتمائهم إلى الحركات الدينية الإصلاحية ولا سيما الذين تلقوا الإجازة من أحد المشايخ أن يتحلوا بأخلاق إسلامية تجذب النفوس وتؤثر في القلوب، وتؤلف ولا تنفر، وتقرب ولا تبعد.

٨ ـ التجنب من الإفراط والتفريط:

قال: قد جاء في الحديث الشريف: «**اذكروا محاسن موتاكم**»، لكننا إما نُفْرِط أو نُفرِّط؛ إذا مدحنا أحداً، رفعناه إلى السماء، وإذا وصفنا أحداً بسوء، نحطه من شأنه حتى نوصله إلى الحضيض، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٩ ـ الذكر الإلهي يقي من الفتن والبلايا:

قال: إن كل ما تواجهه مدارسنا وجامعاتنا من المحن والفتن في هذه الأيام، ترجع إلى عدم العناية بما تدعو إليه الزوايا الروحية من الاشتغال بالذكر، فقد قال الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقد روي عن النبي ﷺ قال: .. **وكذلك شأن المدارس، فهي لا تبقى على حالها، ولا تؤدي دورها إذا خلت من الذاكرين.**

إذا ذكر اسم الله، وإن كان على غير نيَّة، يأتي بخير ويؤثر في ذلك المكان الذي يذكر فيه اسم الله، من المؤسف أننا فقدنا الإخلاص، فعلينا أن نذكر الله باهتمام بالغ؛ فأينما يذكر اسم الله، لا تقع فيه فتنة؛ لأن ذكر الله هو سد منيع لجميع الفتن والبلايا، فقد رأينا فيما مضى أن الصفوف العالية في المدارس الإسلامية تضم عدداً من الذاكرين.

١٠ ـ كيف نتقرب إلى الله؟:

قال: قد جاء عن النبي ﷺ: «**رُب رجل أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»، ويستطيع كل أحد أن ينال هذه المنزلة عند الله بالمجاهدة والرياضة.

وقد جاء في حديث آخر: «**لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه**» [البخاري].

ثم قال: إن الطريق المؤدي إلى الله طريق سهل معبد مستقيم، وقد جربتها مراراً ورآه الناس أيضاً.

ثم قال: إن كل ما تقومون به من الأمور في حياتكم يجب أن تراعوا فيها رضا ربكم، ولا تنطلقوا وراء رغباتكم وأهوائكم، وتدربوا نفوسكم على ذلك في شهر رمضان، فهو شهر تدريب على الطاعة والانقياد لرب العالمين، ولا يطلب منكم أحد من العلماء أن تقدموا الاستقالة من وظائفكم. أو تتنازلوا عن رواتبكم، أو تتركوا الجلوس في دكاكينكم، وإنما نطالبكم بأن يكون رضا ربكم دائماً نصب أعينكم.



الباب الثاني عشر

مقتبسات من كتبه

○ ما هو الإحسان؟:

الإحسان هو أمر مهم بالنسبة لعلمائنا ومشايخنا.

وقد صدق عليهم ما قاله الشاعر كل الصدق؛ معناه: أن هؤلاء الرجال كانوا يمثلون المحدثين العظام والفقهاء الكبار، والأئمة المجتهدين في علم الحديث، والفقه، والعلوم المتداولة في جانب، وكانوا يقتفون على أثر أئمة الإحسان من جنيد البغدادي وشبلي في جانب آخر، إنهم أخضعوا حياتهم للحديث والفقه، وأثبتوا بأقوالهم وأعمالهم أن هذا الطريق الذي يسلكونه يؤيده القرآن ويدعو إليه، وأزاحوا عنه ما تسرب إليه من البدع والأباطيل عبر الزمن، ومن المؤسف أن عدداً من الجهلة عرضوا الإحسان كأنه ينفصل عن الشريعة إن لم يتعارض معها، وهذا باطل مطلقاً.

إن التصوف الذي يدعى أيضاً بالإحسان، قد بيَّن حقيقته جبريل عليه السلام بإلقاء السؤال على النبي ﷺ في حضور أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وعرفت الأمة الإسلامية معناه برد النبي ﷺ على هذا السؤال بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» فمهما اختير له من الأسماء والعناوين فإنها ترجع إلى حقيقة واحدة، وهو رضا الله.

هذه هي حقيقة التصوف، وأما ما يفرض المرشد الروحي على مسترشده من الاشتغال بالذكر والتسبيح والتلاوة وممارسة الرياضة والمجاهدة فهي بمثابة الأدوية؛ لأننا كلما بعدنا عن زمن النبي ﷺ ران على قلوبنا وأصابته الأمراض، وكما يصف المعالجون الأدوية للمريض بعد إجراء الفحوص والاختبارات يصف المعالج الروحي المصابين بأمراض القلب مراعياً لظروفهم ومقتضيات عصرهم.

وقد كتب العالم الرباني الشيخ وصي الله وهو ممن أجازه العالم الرباني الشيخ أشرف علي التهانوي في رسالة له: إن الشيخ أبا يحيى الأنصاري الشافعي يقول: إن التصوف يرجع إلى حديث جبريل ﷺ الذي جاء فيه: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، فالتصوف هو الإحسان.

◘ لب الإحسان:

إن التصوف أمر عظيم، عرف به العلماء أنه علم يستخدم لتزكية النفوس، وتصفية القلوب، ومعرفة طرق تحسين الظاهر والباطن، فهل تزكية النفس تعد من الخطأ؟ وهل تصفية القلب أمر سيئ؟ وهل تحسين الظاهر والباطن من الأمور التي يرفضها الدين؟ وهل المحاولة للحصول على السعادة للأبد تتعارض مع الشريعة؟.

وهل تحسين الأخلاق، وتهذيب النفس وإخضاعها لأحكام الشريعة، واتخاذ الشريعة أمراً وجدانياً للنفس مما يتعارض مع أهداف الشريعة وغاياتها؟ كلا: إن كل واحد من هذه الأمور يتطابق مع الشريعة كل التطابق، وينسجم معها كل الانسجام ويسبب لنيل رضا الله ورسوله، فالتصوف الذي ندعو إليه هو في الاصطلاح الشرعي الإحسان أو علم الإخلاق، أو تحسين الظاهر والباطن، وهو يضع شروطاً للمسترشد وضوابط للمرشد الروحي، فإذا وفى المسترشد بالشروط، والتزم المرشد الروحي بالضوابط جاز لنا أن ندعوه بلب الشريعة، وإذا لم يراع أحد منهما ما يجب عليه من الوفاء بالشروط والالتزام بالضوابط نكون أول من يرفض هذا التصوف.

فإذا أنكرت على كلمة التصوف لحداثتها فهناك كلمات كثيرة تستعمل وتنطق بها رغم أنها كانت لا تعرف في القرون الأولى ولا تستعمل، إذا كان مصطلح التصوف حديثاً فغيره بالمصطلح الذي كان قديماً، فادع التصوف بالإحسان، أو سمّه بعلم الأخلاق، وأطلق على من يسلك هذا الطريق المحسن أو المقرب، وهذه المصطلحات، الإحسان والمحسن، والتقوى

والمتقي والإخلاص والمخلص هي من المصطلحات القرآنية، ونطق بها لسان النبوة ودعا إليها أتباعه.

◄ الطريق الوحيد لرقي المسلمين:

لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام عرض له وحل، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه، ووضعهما على كتفيه، وخاض الماء، وهو ممسك بلجام بعيره، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: «صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، فصك في صدره، وقال: أولو غيرك يقولها يا أبا عبيدة؟! إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام، مهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله».

فرقي المسلمين وازدهارهم، وعزهم وكرامتهم منوطة بالعمل بما يرضي ربهم، لكن من المؤسف أن المسلمين يمدون أيديهم إلى الشعوب الأخرى متسولين متكففين رغم أنهم يملكون كنوزاً من العلوم، وخزائن من الحكم، ووسائل للرقي والتقدم في صورة كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ، ألا يدل ذلك على إهانتنا لكتاب الله العزيز وسُنَّة نبيه الشريفة، وإعراضنا عنهما؟! ألسنا كمن معه معالج بارع وطبيب حاذق، ثم يعرض نفسه على من يسمي نفسه طبيباً ولا يعرف من الطبابة شيئاً؟!.

على كل حال، إن نجاح المسلمين وفوزهم وصلاحهم وسعادتهم يتوقف على الامتثال بأوامر رسول الله ﷺ، والسير على طريق أصحابه، وهذا هو الشيء الذي يضمن لهم النجاح في الآجلة، ويسبب لهم الرقي في العاجلة، وقد بلغ به المسلمون ذروة العز والكرامة، وبالإعراض عنه خسروا الدنيا والآخرة، مهما قدمت المشاريع، واتخذت القرارات، وكتبت البحوث والمقالات، وأصدرت الصحف والمجلات لا تعود إلى المسلمين بنفع ولا تأتي إليهم بخير إلا إذا احترس المسلمون عن المعاصي، كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز لقائد جيشه: «إن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة وأقوى العدة وأن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله».

ومما يدعو للتفكير أن أناساً يحاولون تشويه صورة الإسلام، ويتهمون رجال الدين بأنهم غيروا تعاليمه، وضيقوا نطاقه، وفرضوا القيود على المجتمع الإسلامي، وسلبوا ما في الإسلام من الحرية والتسامح والسعة، وقطعوا صلته عن الحياة ومقتضياتها، وحولوا الإسلام إلى دين لا يستطيع أن يساير ركب الحياة في هذا العصر المتحضر، هؤلاء هم الرجال الذين يجهلون أو يتجاهلون ما كان للمسلمين من صولة وجولة حين كان يتولى زعامتهم رجال الدين، وما كان لهم من هيمنة على النفوس وسيطرة على الثغور والحدود حين كانوا يخضعون للشريعة ويطبقون القوانين الإسلامية، إنهم قاتلوا من رفض أن يدفع ما عليه من الزكاة، وقتلوا من شرب الخمر وهو يستحله، وضربوه بالسياط إذا شربه رغم أنه كان يعده من المحرمات، وقالوا: كان لا يترك الصلاة منا أحد إلا من اتضح نفاقه، وإذا واجهتنا مشكلة أو هالنا أمر نفزع إلى الصلاة.

◘ نصيحة مخلصة:

أنصح لكم أن لا تبدوا رأياً في أمر إلا بعدما تبين لكم ذلك الأمر؛ لأنه لا يمكن إصدار الحكم بين رجلين إلا إذا اتضح لكم ما لديهما من الدلائل والبراهين، أما إذا وجدتم شيئاً يعارض النص الشرعي فهو مردود ومرفوض؛ لأن كلام الله وكلام رسوله لا يحتاج كلاهما إلى دليل أو حجة، هو كلام الله وكلام رسوله وحسب.

ولكن من البله أن يقضي أحد منا على الفور على الأحكام المستنبطة التي تؤيدها النصوص الشرعية، وتدعمها الأدلة والبراهين، فلا بد من التأمل والتدبر في مثل هذه الأحكام، وكذلك من الخطإِ الفاحش وقد يجر الويل لصاحبه أن نستعجل في الحكم على علماء الشرع، فأقول لكم: أن تحذروا عنه كل الحذر، واذكروا ما قاله سيدنا عمر بن عبد العزيز حين وقع ما وقع بين الصحابة من الاشتباكات، فقال: «دماء طهر الله أيدينا عنها فلا نلوث ألسنتنا بها»، ولو قال أحد: إن الصحابة أعظم منزلة وأرفع مكانة، فلا يمكن أن يقاس عليهم من جاؤوا بعدهم، فأقول له: إن من احترز عن التكلم في

تلك القضية هو سيدنا عمر بن عبد العزيز، وهو من كبار التابعين، ويعد من الخلفاء الراشدين.

وقد قال النبي ﷺ ما قال عيسى ابن مريم: «**إن الأمور ثلاثة: أمر يتبين لك رشده، فاتبعه، وأمر يتبين لك غيه، فاجتنبه، وأمر اختلف فيه، فردوه إلى عالمه**»، وكذلك روي عنه ﷺ: «**أن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه فهو أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار**».

وروي عن عبد الله بن مسعود قال: «من أفتى الناس بكل ما يسألونه فهو مجنون».

حادث يبعث الإيمان في القلوب:

كان سعيد بن المسيب من كبار التابعين والمحدثين وكان يتردد إليه عبد الله بن أبي وداع ويجالسه، ففقده سعيد بن المسيب أياماً، فلما جاءه قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، قال: هلا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هلا أحدثت امرأة غيرها؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: إن أنا فعلت تفعل؟ قلت: نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ، وزوجني على درهمين أو قال: على ثلاثة، قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين، وصليت المغرب، وكنت صائماً، فقدم عشاي لأفطر، وكان خبزاً وزيتاً، وإذا بالباب يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت، وإذا بسعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد، هلا أرسلت إليّ فآتيك، قال: لا، أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمرني؟ قال: رأيتك رجلاً عزباً، قد تزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب ورد الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم صعدت إلى السطح

فناديت الجيران، فجاؤوني، وقالوا: ما شأنك؟ فقلت: زوجني سعيد بن المسيب اليوم ابنته وقد جاء بها على غفلة، وها هي في الدار، فنزلوا إليها، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسُنَّة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكث شهراً لا يأتيني ولا آتيه، ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته، فسلمت عليه، فرد عليَّ ولم يكلمني حتى انفض من في المسجد، فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: هو على ما يحب الصديق ويكره العدوُّ، قال: إن رابك شيء فالعصا، فانصرفت إلى منزلي، وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه في يوم بارد، وصب عليه الماء.

◘ الغيبة:

ليس الجهاد هو الطريق الوحيد لنيل رضا الله، وليست النوافل وحدها تجلب رحمته، وليس من المحدد أن يثاب على الصوم فقط، بل كل عمل يبتغي به المسلمُ وجه الله، وكل خطوة يخطوها لأداء ما عليه من الحقوق، وكل كلمة يتفوّه بها لإزالة سوء التفاهم بين المسلمين، هو عبادة يثاب عليها، إن من يظن أن التدين هو عبارة عن الاشتغال بالعبادة من الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغيرها من الأمور الدينية، وأن الاشتغال بأمور الدنيا من البيع والشراء واللقاء لا علاقة لها بالدين، فذاك مخطئ فيما يقول.

لا يقول لكم أحد من العلماء الذين يوثق بهم: لا تبحثوا عن أسباب العيش ووسائل الراحة، لكن من اللازم أن تمارسوا هذه الأمور بهدف نيل رضا ربكم، وبنية أداء ما فرض الله عليكم من الحقوق والواجبات.

وكذلك يتعارض مع الإسلام أن تسيء الظن بأحد، وتلقي عليه نظرة ازدراء واحتقار، فقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ

بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

ولكننا أصبحنا اليوم نصِفُ من يتعلق بنا ويراعي طبيعتنا ويحسن إلينا بأنه مخلص، ورع، وعلى قمة عالية من الزهد والقناعة، لكن إذا خالفنا ذلك الرجل في أمر بسيط، وأتى بما لم يعجبنا، تتغير له رؤيتنا فجأة ونتهمه بأنه عميل للإنجليز، موال لليهود والهندوس، متمرد على الدين، يتلقى منحة من الأعداء ويتقاضى راتباً من الحزب السياسي الفلاني، بينما نهانا رسولنا محمد ﷺ عن ذلك قائلاً: «**من ستر مسلماً ستره الله**».

● الحج نموذج رائع لحب الله والاستماتة في سبيله:

«يمثل الحج حقيقتين، وكل منسك من مناسكه يعبر عنهما، فيمثل في جانب الموت وما يتبعه من عذاب أليم دائم، وحياة خالدة وجنات النعيم، وفي جانب آخر يصور الحب والحنان، والعشق والشوق، والهيام واللوعة والتفاني والتهالك.

أما الحقيقة الأولى فهي الموت وما يأتي بعده، فالحاج إذا قصد البيت العتيق وفارق أهله وذويه وغادر وطنه ودياره وسافر إلى بلاد نائية غريبة، كأنها عالم غير عالمه، فيترك وراءه كل ما يشغل باله، ويهم قلبه، من عشيرة يحبها، وأموال كسبها، وتجارة يخشى كسادها، ونوادٍ لا يرضى بفراقها، كما يفاجئه هجر ذلك كله عند الموت، فإن سفر الحج يذكر الإنسان أنه سيفارق جميع المرافق وسائر وسائل الراحة والرفاهية إلى أبد الآباد، كما يفارقها اليوم لأيام عديدة.

والحقيقة الثانية هي مشهد الحب والحنان، والشوق والهيام، وهي حقيقة ظاهرة بيِّنة تتجلى في جميع أعمال الحاج ومناسكه، وحركاته وتنقلاته ولا تحتاج إلى بيان وتوضيح.

وصلة العبد بربه نوعان: صلة العبودية والإطاعة المطلقة والخضوع أمام ربه الذي خلقه فسواه، وتظهر هذه الصلة بجميع معانيها في الصلاة، وهي

عبارة عن إبداء العجز والعبودية والخضوع الكامل لله تبارك وتعالى، وجميع أركانها وسائر أعمالها تظهر هذه الصلة واضحة جلية حيث إن العبد يمثُلُ بين يدي ربه بكل سكينة ووقار، مرتدياً برداء الصلاح والتقوى ملتزماً بآداب القصر الملكي، فالعبد إذا أراد الصلاة توضأ ولبس ثياباً طاهرة نظيفة ثم يرفع يديه إلى أذنيه ويقر بكبرياء الله وألوهيته ويضع إحدى يديه على الأخرى، يحمده ويثني عليه ثم يركع أمامه مكبراً مسبحاً، ويضع جبهته وأنفه على الأرض لإبداء عجزه وذله والاعتراف بفضل ربه وجلالته.

والصلة الثانية هي صلة الحب والحنان والشوق والهيام والاعتراف بأن الله ﷻ هو رب حقيقي منعم منان، جامع بين سائر صفات الجمال والكمال، والمرء مجبول على الحب والحنان والشوق والهيام، وقد قال الشاعر ما معناه: «أنا مفطور على حب الجمال من الأزل، وعجنت طبيعتي بالعشق والغرام من الصبا»، «لا خير في عين جافة جامدة، لا تبكي ولا تجود بالدموع، ولا جدوى في قلب متحجر لا يخفق بالحب والغرام»، وقال شاعر آخر: «يا رب عبادك الضعفاء لا يحتملون فراقك، فلك الحمد والشكر أن هذه الحياة لا تدوم».

وتبدو هذه الصلة بأكمل صورتها وأروعها في الحج وأعماله؛ إذ الحاج يقصد ديار الحبيب بقطع جميع الصلات الدنيوية الفانية، ويهيم في الصحارى والأودية، ويتيه في الفيافي والبوادي والآكام، ولا غرو فإن العاشق الهائم لا يكترث بوعثاء السفر وبُعد المسافة، ما الذي يحدوه ويحفزه؟ وما الذي يقض مضجعه ويؤرق نومه؟ أليس هو اقتراب موعد السفر إلى ديار الحبيب ودنو وقت التجمع على عتبته؟.

ولا يغيب عن بال الحاج أنه سيواجه المتاعب والمصاعب في هذه الرحلة الطيبة المباركة ويتجرع من المشقة والمحنة الصاب والعلقم، فحق له أن يستعذب كل مرارة، ويستلذ بكل مشقة في هذا السبيل، وذلك عادة المحبين والعشاق، لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك، ولباس الإحرام أيضاً من مظاهر العشق والهيام فترى رجلاً أغبر الرأس،

أشعث الشعر، رث الهيئة، لا يتطيب بطيب ولا يعتني بمظاهر الفخر والخيلاء، وأسباب الزينة والجمال، وإن لوعة الشوق وحرقة المحبة يعكر عليه صفو حياته، مع أنه من رجال الثروة والكرامة.

وكان الحق أن يظهر الحاج هذه الحالة من الشوق والحنان، والانقياد والامتثال، والخضوع والطاعة، والرق والعبودية من بداية سفره، ومن ثم قال بعض العلماء: يستحب للحاج أن يحرم من بيته لأن الإحرام يحرّم بعض المباحات ويثقل على كثير من المتنعمين والمترفهين. فلذلك رخص الله تبارك وتعالى لعباده أن يحرموا من المواقيت ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فإذا وصلوا إلى المواقيت ودنوا من البلد الأمين أحرموا ودخلوه شعثاً غبراً حاسري الرأس رثاث الهيئة كأنهم عشاق متيّمون، ومحبون هائمون، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «**الحاج الشعث التفل**» ويباهي الله بهم الملائكة فيقول: «**انظروا إلى زوار بيتي قد جاؤوني شعثاً غبراً**» وبلغ بهم الحال إلى أن يهتفوا «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك**» باكين صائحين، فلا يملكون أنفسهم ولا عواطفهم المتدفقة الجياشة، تثور ثائرتهم، وتشتد حرارة شوقهم، ووهج نفوسهم، وذلك ما قال رسول الله ﷺ: «**الحج العج والثج**» وكيف لا! وهم أمام البيت الذي هو مهوى الأفئدة، ومهبط الرحمة والبركة، مطرحين على عتبة ربهم:

سقوني وقالوا لا تغنِّ ... ولو سقوا جبال سليمى لغَنَّت

ويبرح بهم الشوق ويشتد بهم الحنان، والغرام والهيام، فيصرخون ويبتهلون وينساقون وراء مشاعرهم، وعواطفهم، ويرسلون النفوس على سجيتها، تصور - أيها القارئ العزيز - العاشق الهائم إذا طال عليه الهجر، وأثارته العواطف، قيل له: هذا منزل الحبيب، كيف يشعر؟ ماذا يفعل؟ يعجز قلمي عن وصف مدى سروره وفرحه وبهجته، وغاية ما أقول: إنه ما أن رأى بغيته حتى تحرر عن سائر القيود والحدود، وخلع ربقة القانون عن عنقه، فيطوف حول بيت حبيبه، ويقبل جدرانه، وأبوابه، ويضع جبهته على عتبته، ولم يترك وطراً إلا قضاه ولا أمنية إلا حققها.

أمر على الديارِ ديار ليلى أقبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبُّ الديارِ شغفنَ قلبي ولكنْ حبُّ من سكنَ الديارا

والالتصاق بأستار الكعبة وتقبيل الحجر الأسود أيضاً من مظاهر هذا الحب والحنان، والفداء والهيام فإن الالتصاق بثياب الحبيب من ديدن العشاق المتيمين، والمحبين الهائمين، كذلك السعي بين الصفا والمروة رمز رائع لهذا العشق والغرام والشوق والولوع، والصلة القوية الخالصة مع المحبوب الحقيقي، فتراهم يسعون بين الصفا والمروة، ويتقلبون بين مكة ومنى، وعرفات والمزدلفة، ثم منى ومكة، يقيمون ويرحلون، ويمكثون وينتقلون، ويخيمون ويقلعون، إنما هم طوع إشارة، ورهن أمر، ليست لهم إرادة ولا حكم، وليس لهم اختيار ولا حرية، غير مبالين براحتهم، ورمي الجمار على تماثيل الشيطان بمنى يصور أقصى غاية الحب والغرام، فالمحب إذا بلغ به الحب أوجَه يرشق كل من يعرقل طريقه بالحجارة والعصا ولا يكترث العقبات والعراقيل في طريقه.

وما زادني الواشون إلا صبابةً وما زادني الناهون إلا تماديا

وبعد ذلك كله يقدم الحاج أضحية تنوب عن التضحية بالنفس، وقد تقبل الله بغاية فضله وكرمه تضحية المال بدل التضحية بالنفس وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم».

● مكانة أصحاب الرسول ﷺ:

«صدرت من بعض أصحاب رسول الله ﷺ سيئات وكبائر يستبعد صدورها من المشايخ والأولياء، وعلى الرغم من ذلك لم أجد منهم في نفسي شيئاً قط، ولم تربني روايات ورد فيها ذكر معاصيهم، وأعتقد أن أكابر الأولياء لا يدانون أصاغر الصحابة ﷺ ولو بذلوا مثل أُحد ذهباً ما بلغوا مداهم، وقد بلغت عندي هذه الحقيقة درجة اليقين والإيمان بفضل مجالسة الأبرار والأتقياء ومطالعة الأحاديث، وإن الله لم يقدر لهم هذه المعاصي والآثام إلا لأن يكونوا أسوة لمن بعدهم وقدوة صالحة لمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين،

فعرضوا أنفسهم للرجم والجلد والحد والقصاص، لتطبيق الشريعة الإسلامية في صورة واقعية حقة، ولذلك بشرهم الله تبارك وتعالى بالعفو والمغفرة، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهم السعداء الذين يؤمر بهم يوم القيامة فيكتب لهم بكل سيئة حسنة كما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومما يلفت الأنظار أن لكل ملك أن يعفو عمن يشاء كما نرى اليوم أن رئيس البلاد له الحق أن يعفو عمن قضت عليه المحكمة العليا بالإعدام، ولكن لا يعني ذلك أن يجترئ أحد على ارتكاب مثل هذه الجرائم اعتماداً على عفو الملك وسماحه، أما أصحاب رسول الله ﷺ فأنا على يقين كامل بأن الله شملهم جميعاً بلطفه العميم وعفوه الواسع، وإن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تصدق ذلك، فقد ورد في الأحاديث: «أن ماعزاً الأسلمي رضي الله عنه جاء إلى نبي الله ﷺ فشهد على نفسه أنه أصاب امرأة حراماً أربع مرات كل ذلك يعرض عنه النبي ﷺ، فأقبل في الخامسة فقال: **وما تريد بهذا القول؟** قال: أريد أن تطهرني، فأمر به فرجم، فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رجمَ الكلب فسكت عنها، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله، فقال: **أين فلان وفلان؟** فقالا: نحن ذان يا رسول الله، فقال: **انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار**، فقالا: يا نبي الله من يأكل من هذا، قال: **فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من أكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها**».

وردت في كتاب الحدود من الصحاح وغيرها أحاديث كثيرة تحكي قصة معاصيهم وحسن توبتهم، فأين نحن من أولئك الغر الميامين الذين يتقلبون على أحر من الجمر حسرة وأسفاً على فوات المندوبات والسنن ما لا نتقلب ونتحسر على ترك الفرائض والواجبات، هل يندم ويتأسف أحد منا على اقتراف أكبر الكبائر كما تأسف وتاب كعب بن مالك بعد تخلفه عن غزوة تبوك، وهذا غيض من فيض وإلا فكتب الأحاديث مملوءة بمثل هذه الأمثلة الرائعة لقوة إيمانهم وحسن إسلامهم.

إن الله عالم الغيب والشهادة ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولا يخفى عليه شأن من شؤون عباده وأحوالهم بعد وقوعهم في ورطة المعاصي، ولذلك أعلن الله ﷻ في كثير من الآيات القرآنية رضاه عنهم وبشرهم بالفوز العظيم، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس]».

● حكمة اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وأسبابه وفوائده:

«وهنا ينشأ سؤال وهو أنه لما كان الرسول ﷺ بُعث ليعلم الأمة ويبين ويوضح الأحكام الإلٰهية وكان هو المقصد الأكبر والغاية المنشودة لبعثته إلى هذا العالم، فلماذا لم يفصل جميع أحكام الشريعة تفصيلاً لا يدع مجالاً للاجتهاد والاختلاف فيها، وهذا السؤال يبدو في بادئ ذي بدء قويّاً، ولكنه ليس من الحقيقة في شيء ومصدره قلة الاطلاع على أحكام الشرع ومصالحه، ومن الحقائق الناصعة أن رسول الله ﷺ يسّر على أمته حيث إنه لم يحدد المسائل الجزئية تحديداً يوقعها في ضيق وحرج، بل قسّم الأحكام الدينية إلى قسمين، **الأول**: ما لا يقبل الاجتهاد والمناقشة، **والثاني**: ما فيه مجال واسع للاختلاف، والاختلاف فيه رحمة ويسر، والمخطئ فيه مأجور ما لم يتبع الهوى، ولم يقصر في الاجتهاد والاستنباط، وبتعبير آخر: إن أحكام الشرع صنفان:

الأول: أحكام قطعية ومبينة مفصلة، ليس فيها دخل للعقل وللقياس، ولا مجال فيها للتأويل، هذه من باب العقائد التي لا ينحرف عنها أحد ولو متأولاً إلا ضل سواء السبيل وحاد عنه.

والثاني: أحكام غير مفصلة يسّر الله فيها على هذه الأمة نظراً إلى ضعفها ولم يشدد فيها ولم يصف المخطئين أو المؤولين فيها بالعصاة والفساق، وهذا من باب الفروع والجزئيات، وقد وسع الله في هذا الباب، ولو كانت جميع الأحكام والمسائل مفصلة منضبطة من عند الله ﷻ حيث لا تحتمل التأويل والاجتهاد لضاق الأمر على الأمة وتعذر العمل، ولم يكن ذلك قاطعاً للاختلاف ألبتة؛ لأن الأحكام مهما فُصِّلَتْ وفُسِّرَتْ، فُصّلَتْ من خلال

الألفاظ والعبارات، ويمكن حملها على معانٍ مختلفة مما يؤدي إلى الاختلاف والتفرق بالتأويل، ولذلك قسّم الله الحكيم الخبير أحكام الشرع إلى قسمين: أصول وفروع، ونهى الناس عن الاختلاف والتأويل في القسم الأول نهياً بالغاً فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وأما القسم الثاني: فقد جعل الاختلاف فيه رحمة وسعة، ولأجل ذلك لم ينكر النبي ﷺ على اختلاف صحابته ﷺ في كثير من الوقائع والحوادث، وكلها يندرج تحت القسم الثاني، فنضرب لفهم هذه المسألة مثلاً فقد روى النسائي عن طارق بن شهاب: «أن رجلاً أجنب فلم يصلِّ» (لعل حكم التيمم لم ينزل آنذاك أو لم يبلغه)، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «**أصبت**» فأجنب رجل فتيمم وصلى، فقال: نحواً مما قال للآخر؛ يعني: «**أصبت**»، وروى البخاري في باب صلاة الخوف من رواية ابن عمر، قال: «قال رسول الله ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: **لا يصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة**، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، وقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي ولم يرد ذلك منا، فذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم»، نرى أن جماعة تمسكت بظاهر كلامه ﷺ، وراعت أخرى غرضه ومقصده؛ يعني: الاستعجال إلى بني قريظة، فصوب كلتيهما رسول الله ﷺ، وإنا لنجد كتب السيرة والتاريخ حافلة بمثل هذه الأمثلة.

وجملة القول: إن هناك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين الاختلاف في الأصول والفروع، وقد أخطأ وجهل من يحمل الآيات الواردة في الاختلاف المذموم على الاختلاف الجائز المستحسن يعني الاختلاف في الفروع، وقد رخص الله في مثل هذا الاختلاف الفرعي ترخيصاً كبيراً، ولو لم يكن ذلك لكانت الأمة في ضيق وحرج، وربما لا تستطيع العمل بالشريعة، ولذلك لم يقبل الإمام مالك بن أنس قط مطالبة الخليفة هارون الرشيد بتعليق «الموطأ» على الكعبة المشرفة، وإيجاب العمل به على الأمة، وقال له: ما زال الصحابة ﷺ مختلفين في الفروع وكلهم مصيبون عدول والناس يأخذون

بأقوالهم وفتاواهم في بلاد مختلفة لا يسوغ منعهم من ذلك، ولقي كذلك الخليفة منصور في الحج الإمام مالك بن أنس، وقال له: أعطني جميع مؤلفاتك فإني أريد أن أرسل نسخها إلى سائر البلاد الإسلامية وآمر المسلمين بالعمل بها، فقال مالك بن أنس: دعهم وشأنهم قد بلغتهم أحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة ﷺ، وهم يعملون بها، فلا تمنعهم من ذلك؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «**اختلاف أمتي رحمة**» وهذه الرحمة ظاهرة، نراها بأم أعيينا حيث نرى أنه يجوز عند كل إمام الأخذ بمذهب الغير في المسائل المختلف فيها عند الضرورة، ولو لم يكن هذا الاختلاف لما يسع الحيد عن الحكم المجمع عليه قيد شبر في أي حال، فتبين من ذلك أن اختلاف الأئمة مطلوب لا ممنوع، وفيه فوائد كثيرة سوى الفائدة التي ذكرناها آنفاً».

◘ النتائج الحسنة لاختلاف الصحابة ﷺ:

«قال عمر بن عبد العزيز الملقب بعمر الثاني، وكانت خلافته على منهج الخلافة الراشدة: «ما سرني لو أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة» [شرح الزرقاني على المواهب] كذا نقله الدارمي عنه رحمه الله وزاد: أن عمر بن عبد العزيز «أرسل بعده إلى أطراف دولته أن يعمل كل قوم بقول علمائهم وفتواهم» وروى مثله عن التابعي الجليل، أحد القراء الكبار في زمانه عون بن عبد الله أنه قال: «ما سرني أن لا يكون بين الصحابة اختلاف؛ لأنهم لو اجتمعوا على شيء لكان العمل بخلافه تركاً للسُّنَّة وإذا كان فيهم اختلاف لا يخرج العامل بقول أحدهم عن حدود السُّنَّة»، وقال الإمام الكبير عبد الله بن المبارك: ليس لأحد أن يقول برأيه مع كتاب الله ولا مع سُنَّة رسول الله ﷺ ولا مع ما أجمع عليه الصحابة، وأما ما اختلفوا فيه فنتخير من أقاويلهم أقربها إلى كتاب الله أو إلى السُّنَّة، ولا نترك أقوال الصحابة بتاتاً (مقدمة أوجز المسلك). وفي «الدر المختار» وشرحه «رد المحتار» أن اختلاف المجتهدين رحمة، وكلما عظم الاختلاف عظمت الرحمة. انتهى.

وقد اختلف العلماء في الفروع في كل زمان، وما خلا عهد في تاريخ الإسلام منذ بدايته إلى يومنا هذا، من اختلاف العلماء، وأهل الحق حتى

تختلف شرائع الأنبياء المنزلة من الله ﷻ في الفروع وإن كانت متحدة في الأصول، ألا ترى أن سيدنا داود وسيدنا سليمان، عليهما الصلاة والسلام، اختلفا في الحكم في عدة قضايا ومع ذلك أثنى الله تبارك وتعالى عليهما جميعاً».

◘ الاستخفاف بأحكام الدين:

«عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه»** [رواه البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجه]، وبه قال علي ﷺ وغيره من العلماء أنه لا يُجْزِئ لمن أفطر رمضان بلا عذر صوم الدهر كله، وقال الجمهور: يقضي يوماً مكانه وإن لم يشرع فيه، وإن شرع ثم أفطر فكفارته ستين يوماً إلا أنه لا يجد فضيلة صوم رمضان، وهذا كله إذا قضى الصوم الفائت، أما إذا لم يقضه رأساً وتهاوناً به كبعض الفجرة والفساق في هذا الزمان فباء بغضب من الله، وخسر خسراناً مبيناً، فإن الصوم ركن أساسي من أركان الإسلام كما قال رسول الله ﷺ: **«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»**.

كم من المسلمين لا يأتون بركن من أركان الإسلام الخمس، ويدّعون إسلامهم، فتكتب أسماؤهم في قائمة المسلمين في الإحصاءات الرسمية في الدنيا وليسوا بمسلمين حقّاً عند الله، وعن ابن عباس ﷺ: أن الإسلام يقوم على ثلاث دعائم: شهادة أن لا إلـه إلا الله، وإقام الصلاة، والصوم، فمن ترك منها شيئاً فقد كفر، وهدر دمه وإن كان العلماء حملوا هذه الرواية وأمثالها على الإنكار، أو تأولوها بما يليق المقام، ولكن لا يخفى ما فيها من التنديد والتغليظ للمقصرين في الفرائض، فليحذر من هذا شأنه، من سخط الله وبطشه؛ لأنه لا مناص من الموت، ونعيمُ الدنيا لا محالة زائل فلا ينفع حينئذ إلا طاعة الله رسوله، وهناك بعض الجهلة لا يقفون على هذا الحد، بل يجترئون على الله، ويتفوهون بكلمات الكفر والفسق، فيقولون مثلاً: «يصوم

من ليس عنده طعام» أو «ماذا يفعل الله بإهلاكنا جوعاً وعطشاً»، وما إلى ذلك من الكلمات التي لا يسلم معها إيمانهم، فليتق كل مسلم من هذه السخافات والترهات، وليعلم أن الاستهزاء والاستخفاف بأدنى شعب الإسلام قد يكون موجباً للكفر، ولو كان هناك أحد لم يصل ولم يصم ولم يأت بفريضة طوال حياته، وهو مؤمن بفرضيتها لم يحكم عليه بالكفر، إلا أنه يعاقب على المعصية وترك هذه الفرائض، كما يثاب على الطاعة والقيام بالواجبات، فيتضح من ذلك أن الاستهزاء بركن من أركان الإسلام كفر وإحباط لجميع الحسنات والطاعات من الصلاة والصيام وغيرهما، فلا يجوز لأحد أن يستهين بأمر الصوم ويجعل دينه هزواً ولعباً، أما إذا لم يستهن به وأفطر بغير عذر فقد عصى وضل ضلالاً بعيداً، وقد نص الفقهاء على قتل من يأكل في أيام رمضان علناً بغير عذر وإن لم تكن للمسلمين حكومة ولا أمير يتولى قتله، فلا بد من الإنكار عليه باللسان أو بالقلب وذلك أضعف الإيمان».

◘ النكاح في الإسلام:

«قال العلماء: الإيمان والنكاح يمتازان عن سائر العبادات بحيث إنهما شرعا من عهد سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام، وسيبقيان إلى قيام الساعة، وبعدها في الجنة، وقال رسول الله ﷺ: **«النكاح من سُنَّتي فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني»**، ولكننا اليوم قد أحدثنا فيه ما أحدثنا، فقد النكاح سذاجته وإسلاميته، وأصبح مجموعة من التقاليد والخرافات والبدع، التي لا تمت إلى الإسلام بصلة ما، ونرى من خلال كتب السير والتراجم والتواريخ أن هذه السُّنَّة كانت سُنَّة محضة ساذجة في عهد الرسول ﷺ وأصحابه، لم تَشُبْها بدع ومحدثات، وكان الصحابة على شدة غرامهم بذات الرسول ﷺ، ربما لا يدعونه إلى ولائمهم، وكان عبد الرحمٰن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة في الدنيا، لم يخبر الرسول ﷺ بزواجه فضلاً عن أن يدعوه، فلما رأى رسول الله ﷺ أثر الصفرة على ثوبه قال له: **تزوجت**؟ قال: أجل يا رسول الله، فأين نحن وحفلاتنا الكبيرة من السذاجة الأولى والبساطة الإسلامية؟ وقال رسول الله ﷺ: **«إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»**، فأصبح في زماننا أعسر شيء مؤنة وأبهظه

تكلفة مما يؤدي إلى كثير من المفاسد والسيئات، ويوافق موعدُ بعض البرامج الزواجية وقت الصلاة، فتفوت على جميع المشاركين الصلاةُ، وهل يسعد عمل قام على أساس ترك الصلاة؟! وهل تحسن عاقبة أمر بُني على معصية وفسق؟! فكثيراً ما ينتهي مثل هذا النكاح إلى الفتنة والفساد والاختلاف والشقاق والافتراق والطلاق، ويرجع كل ذلك إلى التقصير في الصلوات والتفريط في السُّنَّة، وقال بعض العلماء: الجماع الذي يفضي إلى فوات صلاة أو صلوات لا يأتي بولد بار صالح، بل يكون المولود عاقّاً وعاصياً لوالديه ـ اللهم احفظنا من اتباع الشهوات والمنكرات وارزقنا المحافظة على الصلوات ـ.

ومن أعظم الرزايا اليوم وأكبر المشكلات أن يتزايد عدد العوانس والأيامى في مجتمعنا لأن تكلفة الزواج الباهظة تعيق أوليائهن، وربما تحملهم على الاستقراض الربوي واقتراف المحرمات وقد أنزل الله تعالى التشديد في أكل الربا، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٩٧]، وقال رسول الله ﷺ: «**لعن الله آكل الربا وموكله**»، وكيف يبارك في عمل جرّ سخط الله ولعنة رسوله ﷺ، ويأتون بدلائل داحضة لتبرير أفعالهم وأعمالهم، فيقولون: إن لم نقم بهذه الاحتفالات الضخمة والتقاليد الرائجة فإننا نواجه الذل والمهانة في المجتمع، وتلصق بنا تهمة بخل لا تنفك أبد الدهر، ولا شك أنه تعليل فارغ وحجة باطلة، وقد رأيت كثيراً من إخواني وزملائي لم يغالوا في نفقة النكاح ولم يبتذروا في الاحتفال به، وهم يتمتعون بشرف وكرامة في المجتمع ليس عليهم فيه شين ولا مثلبة».

○ أثر الصحبة:

«عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي**» [رواه أبو داود والترمذي] أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى أمرين، الأول: لا تصاحب إلا مؤمناً؛ أي: كاملاً مخلصاً، ففيه النهي عن مجالسة الفسقة والظلمة، ويؤيد هذا المعنى لفظ: «تقي» في الجزء الثاني ورواية كنز العمال: «**لا تدخل بيتك إلا الأتقياء**»، وإن كان المراد به

جنس المؤمنين ففيه النهي عن مجالسة الكفار لغير ضرورة، وعلى كل فالحديث يحث على مجالسة الأخيار والأبرار وأصحاب الخلق الحسن؛ لأن الصحبة تؤثر في النفس والأخلاق والسلوك والسيرة تأثيراً كبيراً، ويكون المرء في الغالب على شاكلة أصدقائه وخلطائه وزملائه، وذاك هو المستفاد من الحديث الذي تقدم ذكره: «**لا تدخل بيتك إلا الأتقياء**»؛ فإن مصاحبتهم وصداقتهم ترغب في البر والإحسان والتقى والعفاف والسلوك الحسن، وتهيئ جوَّ الصلاح والإيمان وفعل الخير والمعروف.

وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة**».

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»؛ لأن المرء إنما يتأثر بأخلاق خليله طبيعيّاً من غير أن يشعر، وربما يتبع دينه ويذهب مذهبه، وذلك معنى قوله ﷺ: «**الرجل على دين خليله**».

فينبغي لكل أحد أن يتدبر وينظر من يجالس وخاصة وضعه الديني والخلقي، فصحبة الأشرار ومخالطتهم تفسد الدين والأخلاق، وتؤدي إلى المجون والخلاعة، وانحراف وفساد في الدين والأخلاق، ومن المشاهد أنه لا يجالس أحد مدمني الخمر أو لاعبي الشطرنج إلا ويبتلى بأحدهما، وعن أبي رزين أنه قال له رسول الله ﷺ: «**ألا أدلك على ملاك هذا الأمر الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة، عليك بمجالس أهل الذكر، وإذا خلوت فحرك لسانك ما استطعت بذكر الله، وأحِبَّ في الله، وأبغض في الله**»؛ أي: في ذات الله خالصاً لا يشوبه الرياء والهوى.

وقد بين أبو حامد الغزالي في كتابه الشهير «إحياء علوم الدين» صفات وخصالاً يصلح صاحبُها للصحبة والصداقة فقال: «ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا

مبتدع، ولا حريص على الدنيا، أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت، وقال الثوري: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة، وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رُبَّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده، وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يُصِرُّ على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تُؤْمَنُ غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض، وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة، وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تُؤْثَرُ صحبته، وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه». انتهى.

ولا يقتصر ذلك على التأثر بالآدميين فحسب، بل يتأثر المرء بكل ما يكثر الاختلاط به والممارسة له، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الخيلاء والفخر في أهل الخيل والإبل، والسكينة في أهل الغنم**»، ووجهه ظاهر، فإن الغنم حيوان هادئ، والخيل حيوان جامح عاتٍ.

وأما الأمر الثاني الذي أشرت إليه في الحديث المتقدم: «**ولا يأكل طعامك إلا تقي**» فأمرٌ ورد في روايات باختلاف يسير في الألفاظ، وقال العلماء: هذا إنما جاء في طعام الدعوة دون طعام الحاجة، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان] ومعلوم أن أسراهم كانوا كفاراً غير مؤمنين، وقد جاء في بعض الأحاديث أن قد غفر لبغي لمجرد سقيها كلباً كان يلهث ويأكل الثرى من العطش، وقال رسول الله ﷺ: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»، سواء كان متقياً أو فاجراً، مسلماً أو كافراً، إنساناً أو حيواناً، فلا ينظر في طعام الحاجة إلى صلاح الآكلين وفسادهم، بل ينظر إلى قلة الحاجة وشدتها، فكلما اشتدت الحاجة عظم الأجر، أما طعام الدعوة فإن كانت في بذله لغير المتقين مصلحة دينية أو نية صالحة، يثاب المطعِم بقدر النية والمصلحة، وإن لم تكن فيه مصلحة دينية، فبذله للمتقين أولى وآكد والأجر على قدر تقوى الآكل».

◘ مسؤولية العاملين في مجال الدعوة والإرشاد:

«أريد في هذا الفصل أن ألفت النظر إلى أمر خاص، فأشير إلى عيب يصدر من الناس في هذه الأيام بصورة خاصة، وذلك بجنب تقصيرهم في عمل الدعوة والإرشاد، وشدة غفلتهم عن الأمور الدينية، فقد ترى أنهم عندما يُسند إليهم عمل ديني مثل إلقاء المحاضرات، أو كتابة المقالات، أو العمل التعليمي، أو الإرشاد والوعظ وغيرها، فهم ينصرفون إلى الاعتناء بأمر الآخرين وينسون أنفسهم، ولا يرونها في حاجة إلى الاعتناء بإصلاحها! مع أن اعتناءهم بإصلاحها أهمّ وأولى من الاعتناء بأمر غيرهم وإصلاح حالهم.

ولقد نهى النبي ﷺ في غير موضع نهياً شديداً من أن يقوم الرجل بنصح غيره، وتتمادى نفسه في المعاصي، ولا تنفك عنها، فقد رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ليلة أسري بي رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون**».

ورُوي عن الوليد بن عقبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار، فيقولون: بم دخلتم النار، فو الله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم؟ فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل**». وفي رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان! فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم**». [فضائل الدعوة إلى الخير والتبليغ لدين الله ص٣٦، ٣٧].

◘ إهمال أثرياء الأمة الشنيع في حفظ القرآن ونشره:

«ليس علي جناح فيما أشكو أعيان الناس وسراة الأمة أنهم لم يجتهدوا في نشر القرآن ولم يهتموا بحفظه بل كانوا عقبة في سبيل نشره والدعوة إليه، وقد جرى اليوم على الألسن (العياذ بالله) أن تعليم القرآن والسعي في حفظه ونشره تعبٌ بلا فائدة، ومشقة بلا جدوى، وإفناء لعمر في غير محله، عسى أن لا توافقوا على هذا الرأي الخاطئ ولا تتفوهوا بمثل هذه الثرثرة والهراء، ولكن إذا كانت هناك فئة قائمة على قدم وساق لتحقيق هذا الغرض الشنيع والمقصد

الخبيث، ففي مثل هذا الوضع الحرج والخطير لا يكون سكوتكم وعدم إنكاركم عليه أقل من الإعانة والنصرة، نسلم أنكم لستم بحماة لهذه الفكرة الباطلة ولا تؤيدونها، فهل يغني سكوتكم شيئاً أو يأتي بنتائج حسنة، وهناك بعض المتغربين ينقمون على العلماء والقراء تعليم القرآن ونشر رسالته ويتهمون أئمة المساجد وأساتذة الكتاتيب والمدارس الدينية بأنهم اتخذوا القرآن وتعليمه ذريعة لقوتهم ورزقهم، والله يعلم أنه حملة شعواء على نياتهم، وسيُسْأَلون عنها أمام ربهم، وبصرف النظر عن ذلك أسألكم أيها السادة بغاية من الأدب والاحترام، وأناشدكم الله أن تخبروني بصدق ما ترونه من ثمرات مجهودات هؤلاء العلماء المستأثرين المرائين ـ كما تزعمون ـ ومساعيهم الجبارة في نشر القرآن وتعاليمه، وإنجازاتهم الهائلة وانتصاراتهم الرائعة مقابل أعداء القرآن وحملته؟.

ثم انظروا إلى أفكاركم ومقترحاتكم المفيدة ـ إن كانت كذلك ـ كم يعمّ النفع وينتشر الخير بها بالنسبة إلى نشر علوم القرآن رسالته، وعلى كل فإن رسول الله ﷺ أمركم بنشر القرآن الكريم فارجعوا إلى أنفسكم وتأملوا قليلاً كم امتثلتم لقوله ﷺ.

ومما ينبغي التنبه له أن بعض الناس يظنون أنهم لا يساهمون في المعاصي ولا يشاركون في السيئات، فهم برآء مما يقترفه الفاسقون والآثمون، ولا يغرنهم ذلك، فإن مثل هذا الخيال الخادع والرأي الخاطئ لا يُنجيهم من بطش الله، وقد قالت الصحابة مرة للرسول ﷺ: «أنُهلك وفينا الصالحون؟ قال: **نعم، إذا كثر الخبث**»، وورد في الخبر أن الله تعالى أمر جبريل بتدمير قرية، فقال: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً عابداً لم يعص قط، ولم يذنب، فقال الله ﷻ: أجل، ولكنه لا ينكر على المعاصي ولا ينهى عن المنكر، (رواية بالمعنى).

وأمثال هذه الأخبار تحمل العلماء على تغيير المنكرات واستنكار السيئات فيصفهم المثقفون بالرجعيين والمتخلفين، وهم يريدون أن يكون العلماء مسالمين كل المسالمة، ولا يغرنهم سعة قلوبهم وحسن أخلاقهم؛ لأن تغيير المنكرات يجب على كل مسلم حسب استطاعته، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

ملحق

الإمام المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وآثاره في علم الحديث الشريف

تأليف

د. ولي الدين الندوي[1]

(١) أستاذ الحديث الشريف وعلومه المشارك في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، ولد في أعظم كراه في الهند في عام (١٩٦٥م)، ونال درجة الدكتوراه في الحديث النبوي من جامعة الإسكندرية (١٩٩٣م) بمرتبة الشرف الأولى، وله عدد من البحوث.



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فهذه دراسة عن الإمام المحدث محمد زكريا الكاندهلوي وعن مؤلفاته وآثاره في علم الحديث الشريف، ولا شك أن الهند أصبحت في العصور الأخيرة مركزاً كبيراً للحديث الشريف، وعُرف علماء الهند بشغفهم بالعلوم الدينية، وانتهت إليهم رئاسة التدريس والتأليف في فنون الحديث وشرح متونه، حتى قال العلامة محمد رشيد رضا في تقديمه لكتاب «مفتاح كنوز السُّنَّة»: «لولا عناية إخواننا علماء الهند في علوم الحديث في هذا العصر لقضي عليها بالزوال في أمصار الشرق، وقد ضعفت في مصر والشام منذ القرن العاشر الهجري».

ولا شك أن الإمام المحدث محمد زكريا الكاندهلوي يعدّ من أعلام المحدثين في الهند، وله إسهام كبير في خدمة السُّنَّة، فلذلك أردتُ أن أقدم دراسة عن حياته ومؤلفاته، وقسّمت هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة مباحث:

- **تمهيد في عصره:**

أ ـ الحالة السياسية.

ب ـ الحالة العلمية.

- **المبحث الأول: نشأته وحياته:**

تتبعت فيه مراحل حياته فذكرت اسمه ونسبه ولقبه ونشأته العلمية ووفاته والثناء عليه.

- **المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته:**

ذكرت فيه شيوخه الذين تلقى عنهم العلم أو حصل منهم على إجازات، ثم تلاميذه، ثم ذكرت مؤلفاته في علوم وفنون شتى مع بيان المخطوط منها والمطبوع.

• **المبحث الثالث: آثاره في علم الحديث الشريف:**

ذكرت فيه مؤلفات هذا الإمام مع التعريف بكل منها.

وإني لأرجو الله ﷻ أن يحقق الغاية من البحث وينفع به، إنه خير مسؤول.

تمهيد

في عصر الإمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي

أ ـ الحالة السياسية:

عاش الإمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في الحقبة التي تعد من أخطر العصور في تاريخ الهند السياسي، حيث عاصر الشيخ استقلال الهند من الاحتلال الإنجليزي الغاشم، وتقسيم الهند إلى دولتين: الهند وباكستان.

لقد اشترك المسلمون والهندوس في تحرير البلاد من سيطرة الاستعمار، وأقاموا لذلك ثورة عام (١٨٥٧م) التي باءت بالإخفاق، ثم لما قام المؤتمر الوطني عام (١٨٨٤م) شاركوا فيه، وشاركوا في حركة عدم التعاون أو العصيان المدني عام (١٩٢١م)، التي نادى بها غاندي مع جميع الطوائف من شعب الهند، ورأت البلاد عهداً من الألفة والمحبة والتعاون لم يمر مثله في تاريخها[١].

هنا اختار الإنجليز طريقة «فَرِّقْ تَسُدْ» وبثوا سموم التفرقة بين الهندوس والمسلمين وسلّطوا هذا السلاح الرهيب على الشعب حتى لا تعود البلاد إلى وحدتها[٢].

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: أقنع الحاكم العام الإنجليزي ورجال الحكومة أحد الزعماء الوطنيين الهنادك بضرورة الدعوة إلى الديانة الهندوكية، وإرجاع من دخل من أهل البلاد في الدين الإسلامي إلى ديانتهم القديمة،

---

(١) انظر: كفاح المسلمين في تحرير الهند ص١٣٩.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.



وتنظيم الشعب الهندوكي على أساس ديني قومي حزبي، ومن هنا ظهرت الدعوة والتبشير بالديانة البرهمية والآرية، وانتشر دعاتهم في الهند، وظهرت إزاء ذلك حركة الدعوة إلى الإسلام وتنظيم المسلمين على أساس مستقل، وبدأت المناظرات الدينية والخطب العاطفية والحماسية، وانفجرت الاضطرابات الطائفية في شبه القارة الهندية، واستمرت الاضطرابات وعنفت حتى كان في سنة (١٩٢٧م) في بضعة شهور فقط خمسة وعشرون اضطراباً[١].

وهنا بدأ المسلمون يبتعدون شيئاً فشيئاً عن المؤتمر باعتباره مؤسسة هندوسية، وإن كان فيها بعض عناصر من المسلمين إلا أنها لم تستطع إيقاف الدافع العدواني على المسلمين من الهندوس[٢].

وأما علماء الهند المسلمون فلم يكونوا بمعزل عن الاستقلال، بل شاركوا حركة التحرير مشاركة قيادية فعالة، فمن العلماء البارزين الذين شاركوا في التحرير العلامة محمود حسن الملقب بـ«شيخ الهند» والعلامة حسين أحمد المدني، والشيخ عزيز كُل، ـ وقد أسرتهم الحكومة الإنجليزية ونفتهم وزملاءهم وتلاميذهم إلى جزيرة مالطا ـ ومولانا عبد الباري الفرنجي محلي، ومولانا محمد علي، ومولانا شوكت علي، ومولانا أبو الكلام آزاد وغيرهم[٣].

لكن لما حان وقت الاستقلال اختلف المسلمون والهندوس في التقاسم على السلطة، وأدى هذا الاختلاف إلى اضطرابات طائفية شديدة بين المسلمين والهندوس، ووقعت المذابح التي راح ضحيتها آلاف من الطرفين، ولم يعد هناك مفر من التسليم بالأمر الواقع، والخضوع لفكرة التقسيم، التي أصبحت عقيدة المسلمين وحياتهم[٤].

واختلف العلماء والناس في قضية التقسيم، فبعضهم كان لا يرى تقسيم

---

(١) المسلمون في الهند ص١٦٤.

(٢) كفاح المسلمون في تحرير الهند ص١٥١.

(٣) انظر: المسلمون في الهند ص١٦٢، وانظر: مسيرة الحياة، لأبي الحسن الندوي ١/ ١٦٩.

(٤) انظر: باكستان في ماضيها وحاضرها ص٥١.

الهند مفيداً وضرورياً؛ لأضراره وأخطاره الكبيرة على الدعوة الإسلامية، وسيفقد المسلمون نفوذهم السياسي وتأثيرهم الديني في الهند.

ورأى البعض الآخر أن التقسيم لا بد منه؛ لأن السلطة ستكون للمسلمين فقط لا يشاركهم فيها غيرهم، ويعيش المسلمون فيه حياة العز والكرامة، فمن العلماء الذين أيدوا فكرة التقسيم وبذلوا جهوداً كثيرة في تأسيس دولة إسلامية: شيخ الإسلام مولانا ظفر أحمد التهانوي، ومولانا شبير أحمد العثماني، والمفتي محمد حسن الأمرتسري وغيرهم[١].

فبدأ الناس يهاجرون من الهند إلى باكستان، ووقعت حينئذ الاضطرابات الطائفية الدموية التي تقشعر الجلود من سماع أحوالها في دلهي، وبنجاب الشرقية والمدن الأخرى.

واجتمع الشيخ المجاهد حسين أحمد المدني، والشيخ الرباني عبد القادر الرائي فوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وقرروا عدم الهجرة إلى باكستان وعزموا على البقاء في الهند والموت فيها، وكانوا يحثون الناس على الثبات والبقاء في الهند مهما كلّفهم ذلك من ثمن، وكانوا يحرضونهم على تحمل الشدائد والمكاره، والإيمان بالله، فقرر كثير من الذين آثروا الهجرة أن يتخلوا عن نيتها[٢].

وأبدى هؤلاء العلماء ثباتاً لا نظير له، مع الهمة العالية والثقة الكاملة بوعد الله ﷻ.

وقد ترك هذا التقسيم في نفوس مسلمي الهند اليأس وعدم الثقة، يقول العلامة أبو الحسن الندوي: عدنا في أواخر يناير (١٩٤٨م)، حيث كنا في الحجاز عند التقسيم فوجدنا الدنيا غير الدنيا، والأوضاع غير الأوضاع، ورأينا البقية الباقية من المسلمين في الهند وقد كان عددهم كبيراً جدّاً ـ مصابين إلا من رحم ربك ـ باليأس ومُركب النقص، فقد خذلهم قادتهم القوميون فأصبحوا

(١) انظر: آب بيتي (بالأردية) ٥/ ٢٦.

(٢) انظر: المرجع السابق ٥/ ٢٩.

يجهلون رسالتهم ودعوتهم ونفعهم، كأنهم يعيشون في ظلام قاتل لا يبصرون شيئاً من النور، تسودهم الدهشة والحيرة[١].

وهبّ علماء المسلمين للدفاع عن الإسلام والمسلمين ولإيجاد الثقة فيهم، فهذا المجاهد الشيخ حسين أحمد المدني والشيخ حفظ الرحمٰن السيوهاروي والمفتي كفاية الله ومولانا أبو الكلام آزاد، وغيرهم وقفوا مع قادة الأكثرية كالند للند، وكانت هذه المواجهة البطولية مضرباً للأمثال، وكان لها دورٌ كبيرٌ وفائدةٌ لا تنكر في إيجاد الثقة والاعتماد[٢].

ونشطت الدعوة الإسلامية بكل قوة وصرامة، فهذا الشيخ محمد يوسف ـ أمير جماعة التبليغ ـ وأتباعه خرجوا في طول الهند وعرضها بل تجاوزوا إلى باكستان والدول الأخرى، لِبَثِّ الشعور الديني فيهم وإثارة عاطفة الخشوع والإنابة والتوجه إلى الله، وكان الشيخ محمد يوسف يقول: إن قلوبهم في هذا الوقت منكسرة، فإن أنابوا إلى الله وتابوا إليه توبة نصوحاً فإن هذه السحب الكثيفة التي تتراكم ستنقشع ويرفع الله العذاب عنهم[٣].

وأما الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي فقد كان مشرفاً على جماعة التبليغ وموجهاً لها حيث كان يقيم في مركزها في نظام الدين بدلهي عدة أيام، يوجه الجماعة ويشرف على المدارس الإسلامية الأهلية التي كانت قائمة، والتي أقيمت في عصره، ويسافر إليها ليتفقد أحوالها ويوجهها بآرائه السديدة[٤] وكذا قام بالرد على الملحدين والفرق الباطلة ردّاً علميّاً وفكريّاً مقنعاً، فمن ذلك كتابه: «إسلام المشرقي» و«القاديانية».

ب ـ الحالة العلمية:

يعد الإمام ولي الله الدهلوي مسند الهند بإجماع العلماء، سافر الإمام

---

(١) مسيرة الحياة، لأبي الحسن الندوي ١/ ٢٠٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٠٥، والمسلمون في الهند ص١٦٧.
(٣) تذكرة الشيخ محمد يوسف (بالأردية) ص٢٨٥.
(٤) انظر: آب بيتي ٥/ ١٩، وكتاب: تذكرة الشيخ محمد زكريا ص٢٢٦.

الدهلوي إلى الحجاز، وأخذ الحديث عن الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم المدني الكردي[١] (١١٤٥هـ) وغيره من علماء الحديث، وعاد إلى الهند وقصر همته على نشر الحديث الشريف، وأقام دولة الحديث في هذه البلاد، وأصبحت المدرسة الرحيمية التي أسسها والده الشاه عبد الرحيم الدهلوي أكبر مدرسة حديثية في الهند، تهافت عليها طلاب علم الحديث من كل أنحاء الهند وأصقاعها تهافت الفراش على النور[٢]، وخرّج علماء ورجالاً، يقومون بهذه المهمة، فقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي[٣] (ت١٢٣٩هـ) فدرّس وألّف، وخرّج وخلّف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول في الحديث الشريف، من أشهرهم سبطه الشيخ إسحاق بن محمد أفضل العمري المتوفى سنة (١٢٦٢هـ) قال المؤرخ عبد الحي الحسني: أخذ عنه ناس كثير، حتى لم يبق في الهند سند الحديث غير هذا السند وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[٤].

ثم تفرعت مدرسة الإمام ولي الله الدهلوي بعد الشيخ إسحاق إلى فرعين يمثلان مدرستين فكريتين رئيستين في الهند:

الفرع الأول: مدرسة الحنفية: وكان على رأسها الشيخ عبد الغني المهاجر المدني (ت١٢٩٦هـ)[٥]، أخذ الحديث عن الشيخ إسحاق الدهلوي، وكان من أشهر تلاميذه المصلح الكبير العلامة رشيد أحمد الكنكوهي (ت١٣٢٣هـ)[٦]، والإمام محمد قاسم النانوتوي (ت١٢٩٨هـ)[٧] من مؤسسي جامعة دار العلوم ديوبند، وأخذ عنه إجازة رواية الحديث المحدث خليل

---

(١) انظر ترجمته في: إنسان العين في مشايخ الحرمين، للدهلوي ص١٣، وسلك الدرر، للمرادي ٤/ ٢٧.
(٢) رجال الفكر والدعوة، لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ٤/ ١٤٩.
(٣) نزهة الخواطر، للسيد عبد الحي الحسني ٧/ ٥٩.
(٤) نزهة الخواطر ٧/ ٥٩ ـ ٦٠.
(٥) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر ٨/ ١٦٣.
(٦) انظر ترجمته في: المصدر السابق ٧/ ٣٢٠.
(٧) انظر ترجمته في: المصدر السابق ٨/ ٤٨٠.

أحمد السهارنفوري (ت١٣٤٦هـ) صاحب «بذل المجهود»، والعلامة محمود حسن الديوبندي الملقب بشيخ الهند (ت١٣٣٩هـ)(١)، والعلامة المحدث أنور شاه الكشميري (ت١٣٥٢هـ)(٢) صاحب «فيض الباري شرح صحيح البخاري»، والمحدث شبير أحمد العثماني (ت١٣٦٩هـ)(٣) صاحب «فتح الملهم في شرح صحيح مسلم»، والمحدث ظفر أحمد التهانوي (ت١٣٩٤هـ)(٤)، صاحب «قواعد في علوم الحديث»، والمحدث فخر الدين أحمد المراد آبادي (ت١٣٩٢هـ)(٥) وغيرهم من العلماء.

الفرع الثاني: مدرسة أهل الحديث (الذين يرون عدم التقليد للأئمة الأربعة): وكان على رأسها الشيخ نذير حسين الدهلوي (ت١٣٢٠هـ) الذي أخذ الحديث عن الشيخ إسحاق الدهلوي، والمحدث محمد بشير السهسواني (ت١٣٢٣هـ)(٦)، والمحدث شمس الحق العظيم آبادي (ت١٣٢٩هـ) صاحب «غاية المقصود شرح سنن أبي داود»، والمحدث عبد الرحمٰن المباركفوري (ت١٣٥٣هـ)(٧) صاحب كتاب «تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي»، والشيخ عبيد الله المباركفوري (١٣٢٧ ـ ١٤١٤هـ)(٨) صاحب كتاب «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» وغيرهم من العلماء.

وأما في العلوم والمعارف الأخرى فقد برز كل من الشيخ المصلح الكبير

(١) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر ٨/ ٤٩١.

(٢) انظر ترجمته في: نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور، للمحدث محمد يوسف البنوري، والعناقيد الغالية ص١٢٩، وتراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص١٣ ـ ٨١.

(٣) انظر: العناقيد الغالية ص٥٦.

(٤) العناقيد الغالية ص٢٥٠، ومقدمة قواعد في علوم الحديث، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

(٥) انظر ترجمته في: العناقيد الغالية ص٦٠.

(٦) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر ٨/ ٤٣٧.

(٧) انظر ترجمته في: المرجع السابق ٨/ ٢٥٩.

(٨) انظر ترجمته في: مقدمة مرعاة المفاتيح ص٩، وجريدة «الرائد» أول مارس ١٩٨٩م، ومجلة البعث الإسلامي عدد رقم: ١، مجلد رقم: ٣٤.

والمربي الشهير مولانا أشرف علي التهانوي (ت١٣٦٢هـ)[١]، والعلامة محمود حسن خان التونكي (ت١٣٦٦هـ)[٢] صاحب «معجم المصنفين»، والعلامة مناظر أحسن الكيلاني (ت١٣٧٥هـ)، وغيرهم من العلماء الربانيين[٣].

وعلى الرغم من انحطاط المسلمين سياسيّاً واقتصاديّاً وتدهور الحالة الاجتماعية، فقد نشطت الحركة العلمية بوجود هؤلاء العلماء تدريساً وتأليفاً في هذا العصر، وكان لهم الفضل في إنشاء العديد من مدارس العلوم الشرعيّة في الهند التي لها آثارها إلى اليوم.

(١) انظر ترجمته في: نزهة الخواطر ٨/ ٦٥.
(٢) انظر ترجمته في: المرجع السابق ٨/ ٤٩٠.
(٣) المسلمون في الهند ص٣٧.

المبحث الأول

نشأته وحياته

اسمه ونسبه:

هو محمد بن زكريا بن محمد يحيى بن محمد إسماعيل بن الطبيب غلام حسين بن كريم بخش بن الطبيب غلام محيي الدين بن محمد ساجد بن فيض محمد بن شاه محمد شريف بن محمد أشرف بن جمال محمد بن نور محمد المعروف بابن شاه بن بهاء الدين بن شيخ محمد[1]، ينتهي نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه[2].

لقبه:

لقب «بشيخ الحديث»، وذلك لعمق نظره في الحديث الشريف وعلومه، لقّبه به شيخه خليل أحمد السهارنفوري لما رأى فيه من دقة النظر وسعة الاطلاع في الحديث وعلومه[3].

مولده:

ولد الشيخ محمد زكريا في قرية «كاندهلة»[4] (kandhala) لعشر خلون

---

(١) تذكرة شيخ الحديث كي أجداد (أجداد شيخ الحديث)، مجلة الفرقان ١٩٨٢م، ص٣٩، وانظر: حالات مشايخ كاندهلة ص١٠٠٩، وانظر: مقدمة أوجز المسالك ص٥٦.

(٢) انظر: الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص٩، ومجلة أحوال وآثار كاندهلة (بالأردية) ص٤٤.

(٣) مجلة الفرقان «مقال عاشق رسول»، لزين العابدين سجاد الميرتهي ص١٩١.

(٤) وهي إحدى القرى الجامعة في مديرية مظفر نجر في ولاية أترابراديش بالهند، ينسب الشيخ إلى هذه القرية فيقال له: الكاندهلوي.

من رمضان سنة خمس عشرة وثلاثمئة وألف (١٣١٥هـ) الموافق (١٢ فبراير ١٨٩٨م) ليلة الخميس في الساعة الحادية عشرة فسمي باسمين: محمد موسى ومحمد زكريا، فغلب الآخر على الأول[١].

◘ أسرته:

أسرة الشيخ محمد زكريا مشهورة بالعلم والتدين والصلاح والورع، فقد كان والده الشيخ محمد يحيى من كبار العلماء في الهند في المنقول والمعقول، وكان حاملاً لعلوم شيخه رشيد أحمد الكنكوهي فجمع أماليه التي أملاها في أثناء تدريس «صحيح البخاري» و«جامع الترمذي» وغيرهما من الكتب الستة.

درَّس في مدرسة مظاهر علوم بسهارنفور مدة من الزمن ولم يأخذ أجرة على هذا العمل، بل أنشأ مكتبة تجارية سماها: «محمد يحيى تاجر كتب دينية» ليعود نفعها عليه[٢].

قال الشيخ أبو الحسن الندوي: ولد ـ أي: الشيخ محمد زكريا ـ في بيت عريق في العلم والدين، وامتاز رجاله وأسلافه بعلو الهمة وشدة المجاهدة، والتمسك بالدين والصلابة فيه، أشهرهم في الأولين الشيخ العلامة المفتي إلٰهي بخش الكاندهلوي (١١٦٢ ـ ١٢٤٥هـ) تلميذ الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، وخليفة المجاهد الشهير السيد أحمد الشهيد البريلوي، وأشهرهم في الآخرين الداعي إلى الله المشهور في الآفاق عمّه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي صاحب دعوة «التبليغ» (ت١٣٦٣هـ)، ودرس وجاهد في سبيل الله غير واحد من أفراد هذه الأسرة، وجده الشيخ محمد إسماعيل (١٣١٥هـ) من الذين اتفقت الألسنة على إخلاصه وصلاحه وزهده[٣].

---

(١) تذكرة شيخ الحديث مولانا محمد زكريا ص٤٩ (بالأردية)، وانظر: مقدمة الأوجز ص٥٦.

(٢) انظر: سيرة مولانا يحيى، لمحمد عزير الندوي ص١٦٦، وتذكرة الخليل، لعاشق إلٰهي الميرتهي ص٢٠٢.

(٣) مقدمة الأوجز ص١٦.

وأما جدته صفية بنت ضياء الحسن فكانت حافظة للقرآن، وقد حفظته بعد الزواج، حين كان ابنها الشيخ محمد يحيى رضيعاً، كانت تتلو القرآن كله وعشرة أجزاء زيادة عليه في كل يوم من شهر رمضان المبارك، وعلى ذلك كانت تتلو القرآن في كل رمضان أربعين مرة، وذلك بجانب القيام بشؤون البيت ووظائفه[١].

نشأته وطلبه العلم:

نشأ الإمام في بيت علم ودين وصلاح، وانتقل مع والده إلى قرية «كنكوه» في مديرية «سهارنفور» بأترابراديش، حيث حمله والده إلى العالم الرباني المصلح رشيد أحمد الكنكوهي، وسعد بحنانه وعطفه الأبوي لما بينه وبين والده من اختصاص، فلما بلغ الثامنة من عمره توفي الشيخ رشيد الكنكوهي (ت١٣٢٣هـ) فنشأ في هذه البيئة العلمية الدينية وبدأ بتعلم حروف الهجاء على الطبيب عبد الرحمٰن المظفر نكري ـ وكان من أصحاب الشيخ الكنكوهي ـ وحفظ القرآن على والده، وقرأ الكتب الفارسية على عمه الشيخ محمد إلياس ـ مؤسس جماعة التبليغ ـ وكتب الصرف والنحو على والده[٢].

قال الشيخ أبو الحسن الندوي: نشأ في بيئة من أفضل البيئات في ذلك الزمان وأكثرها محافظة على الآداب والسنن، وأبعدها عن الفساد الذي بدأ ينتشر في البلاد[٣].

ولما بلغ اثني عشر عاماً من عمره انتقل مع والده إلى «سهارنفور» المركز العلمي الكبير، وهنا بدأ يقرأ على والده أكثر الكتب في الصرف والنحو والأدب والمنطق.

---

(١) الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، لأبي الحسن الندوي ص١٠.

(٢) انظر: ولي كامل، للمفتي عزيز الرحمٰن ص١٢١، وتذكرة شيخ الحديث محمد زكريا، لأبي الحسن الندوي ص٥٤، وتذكرة شيخ الحديث مولانا محمد زكريا، للشيخ يوسف اللدهيانوي ص٨٦، وآب بيتي ٢/ ٢٧.

(٣) مقدمة الأوجز ص١٧.

ثم توجه إلى أخذ الحديث من والده سنة (١٣٣٢هـ) فاغتسل الشيخ محمد يحيى وصلّى ركعتين وبدأ تدريس «مشكاة المصابيح»، ثم دعا دعاء طويلاً لنفسه ولولده، من ذلك اليوم أصبح الحديث غايته ومقصده، وقرأ الكتب الستة على والده ـ ما عدا السنن لابن ماجه ـ ثم قرأ «صحيح البخاري» و«سنن الترمذي» على العالم الجليل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري[١]، وكان يهتم بأن لا يقرأ أي رواية دون وضوء[٢].

تدريسه:

عُين مدرساً في مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور في المحرم سنة (١٣٣٥هـ)، وفوض إليه تدريس كتب في النحو والصرف والفقه وبعض الكتب في اللغة العربية، ثم فوض إليه بعض الكتب المهمة في الأدب والفقه، وفي سنة (١٣٤١هـ) فُوض إليه تدريس ثلاثة أجزاء من «صحيح البخاري» بأمر من الشيخ خليل أحمد السهارنفوري وإلحاحه، وظل يُدرس «مشكاة المصابيح» إلى سنة (١٣٤٤هـ)[٣].

قال الشيخ أبو الحسن الندوي: وهو من أصغر الأساتذة، وأسند إليه تدريس كتب لا تسند عادةً إلى أمثاله في العمر، ولا في أول التدريس، وأثبت المدرس الشاب جدارته وقدرته على التدريس[٤].

---

(١) هو من كبار العلماء الصالحين وكبار الفقهاء والمحدثين، وحصل على الإجازة من كبار المشايخ والمسندين كالشيخ محمد مظهر النانوتوي والشيخ عبد القيوم البُدهانوي، والشيخ عبد الغني المجددي، التقى به الشيخ رشيد رضا المصري وتأثر بشخصيته وأثنى على علماء الهند، توفي سنة (١٣٤٦هـ) في المدينة المنورة. انظر: نزهة الخواطر ٨/ ١٤٥.

(٢) انظر: تذكرة شيخ الحديث مولانا محمد زكريا، لأبي الحسن الندوي ص٦١، وكتاب تذكرة شيخ الحديث، للدهيانوي ١/ ٩٧، وآب بيتي ٢/ ٦٠.

(٣) انظر: تذكرة شيخ الحديث مولانا محمد زكريا، لأبي الحسن الندوي ص٦٧، ولي كامل ص٣٦، ومجلة الفرقان ص٢٣٢.

(٤) مقدمة الأوجز ص١٨.

ثم سافر سنة (١٣٤٥هـ) إلى الحجاز وأقام هناك لمدة عام، ودرّس في المدينة المنورة بمدرسة العلوم الشرعية «سنن أبي داود» لبعض الطلبة من بلاد المغرب[١] وغيرها.

ورجع من الحجاز في (١٨ صفر ١٣٤٦هـ)، وبدأ تدريس «سنن أبي داود» و«سنن النسائي» و«الموطأ» برواية الإمام محمد والنصف الثاني من «صحيح البخاري» في مدرسة «مظاهر علوم»، ثم انتقل إليه تدريس «صحيح البخاري» كله بعد وفاة مدير المدرسة الشيخ عبد اللطيف الذي كان يقوم بتدريس النصف الآخر من «صحيح البخاري» فدرّس الشيخ محمد زكريا إلى سنة (١٣٨٨هـ)، ثم توقف عن التدريس بسبب نزول الماء في عينيه، وقد درّس في هذه المدة «سنن الترمذي» و«صحيح مسلم» و«شمائل الترمذي» وغيرها من الكتب[٢].

ودرّس المجلد الأول من «صحيح البخاري» خمساً وعشرين مرة، و«صحيح البخاري» كاملاً ست عشرة مرة، و«سنن أبي داود» ثلاثين مرة، ولم يكن يُدرس الحديث فقط مثل عامة الأساتذة، بل صار الحديث ذوقه وروحه وغذاءه، حيث شغفه حبه واختلط بلحمه ودمه[٣].

○ استفادته من شيخه لتأليف الكتب الحديثية:

كان مما أكرمه الله به أن شيخه أبدى رغبته وحرصه الشديد على وضع شرح لـ«سنن أبي داود» وطلب من الشيخ محمد زكريا أن يساعده في ذلك، وأن يكون له فيه عضده الأيمن وقلمه الكاتب، وكان ذلك مبدأ سعادته وإقباله ووسيلة وصوله إلى الكمال، واختصاص لا مزيد عليه بالشيخ، فكان الشيخ خليل أحمد يرشده إلى المظان والمصادر العلمية التي يلتقط منها المواد فيجمعها الشيخ محمد زكريا ويعرضها على شيخه فيأخذ منها ما يشاء، ويترك

(١) مجلة الفرقان ص٢٣٣، وانظر: علماء مظاهر علوم وخدماتهم العلمية والتأليفية ص٣٠٢.
(٢) مجلة الفرقان ص٣٣.
(٣) العناقيد الغالية من الأسانيد العالية ص١١٩.

ما يشاء، ثم يُملي عليه الشرح فيكتبه، وهكذا تم تأليف كتاب «بذل المجهود في حَلّ أبي داود».

وفتح ذلك قريحته في التأليف والشرح ووسع نظره في فن الحديث، ثم اهتم بطبعه في المطابع الهندية، والعناية بتصحيحه وإخراجه بإخلاص كامل، ومجاهدة شديدة، فنال بذلك رضا شيخه وحاز ثقته حتى انتهى ذلك إلى ما انتهى إليه من خلافة ونيابة وإقبال القلوب والنفوس إليه، وما وُفق له من بعد من جلائل الأعمال وفضائل الأخلاق[1].

وقد ذكر ذلك المحدث خليل أحمد السهارنفوري في مقدمة «بذل المجهود»[2] فقال:

«وأعانني عليه بعض أحبائي؛ منهم عزيزي وقرة عيني وقلبي الحاج الحافظ المولوي محمد زكريا ابن مولانا الحافظ المولوي محمد يحيى الكاندهلوي رحمه الله فإني كنت لا أقدر على الكتابة ولا على التتبع، لرعشة حدثت في يدي وضعف في دماغي وبصري، فكنت أملي عليه وهو يكتب ويتتبع المباحث المشكلة من مظانها، فيَسهُل عليّ إملاؤها، فشكر الله سعيه وأحسن جزاءه وما بذل فيه من جهد، وأكرمه الله تعالى بعلومه الباطنة والظاهرة النافعة في الدنيا والآخرة، وبالأعمال المبرورة المتقبلة الزاهرة».

كان لهذا أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية وفتح له الطريق في مستقبل حياته حتى صدرت عنه مؤلفات كثيرة وتحقيقات نادرة.

◆ زواجه:

تزوج الشيخ محمد زكريا مرتين: المرة الأولى كان زواجه ببنت الشيخ رؤوف الحسن في «كاندهلة»، وفي (٥ ذي الحجة ١٣٥٥هـ) توفيت زوجته الأولى، ثم تزوج بعدها ببنت الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، مؤسس

---

(١) مقدمة أوجز المسالك ص١٧.

(٢) ص٤٠.

جماعة التبليغ في (٨ ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ)[١].

وفاة والده:

في (١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٣٤هـ) انتقل والده الشيخ محمد يحيي إلى رحمة الله، ونزلت هذه الكارثة كالصاعقة على الشيخ، وكان لهذه الوفاة أكبر الأثر في نفس الشيخ حيث لم يكن والداً له فحسب بل كان والداً ومربياً وأستاذاً، فحزن لذلك حزناً شديداً لم يفارقه قط[٢].

رحلته إلى الحرمين:

وفقه الله ﷻ للحج أكثر من مرة، ففي شعبان سنة (١٣٣٨هـ) لما أراد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري أن يسافر للحج وبلغ الشيخ محمد زكريا هذا الخبر ثار فيه الحنين إلى الحج، وكان يحول بينه وبين تلك الأمنية العزيزة اللذيذة عوائق وصعوبات في مقدمتها توفير النفقة وما تكلفه الرحلة الكريمة، ولكن الله الحكيم يسر له المهمة وذلل له الصعاب، ووفر له كل سهولة، واستطاع أن يحوز هذه السعادة ويتمتع بمعية شيخه ومربيه[٣].

واستفاد الشيخ بهذه الرحلة المباركة فوائد كثيرة روحيّاً وعلميّاً، وقد عثر الشيخ خليل أحمد السهارنفوري على نسخة خطية «لمصنف عبد الرزاق» فأراد أن يشتريها فطلب صاحبها ثمناً باهظاً فتركها الشيخ خليل أحمد لعدم وجود نقود كافية لشرائها، فلما عرف الشيخ محمد زكريا هذا طلب من صاحب المخطوطة السماح بنسخها فأجازه؛ لأنه رأى أنه لم يبق للسفر ـ أي: للرجوع إلى الهند ـ إلا عشرة أيام تقريباً فهم لا يستطيعون نسخها، فأخذ الشيخ المخطوطة إلى مقره وجعل ينقل هذه المخطوطة، وشاركه بعض زملائه حتى أنهم أكملوا نسخها ومراجعتها كاملة خلال عشرة أيام، فتعجب الشيخ

---

(١) انظر: آب بيتي ٣/ ٨٧، ٣/ ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) انظر: كتاب ولي كامل ص١١٨ (بالأردية).

(٣) انظر: الشيخ محمد زكريا، لأبي الحسن الندوي ص٧٣ (بالأردية)، وآب بيتي ٤/ ٢٣٤.

السهارنفوري من علو همة تلميذه ونباهته وجهده، ودعا له[١].

ثم سافر للحج في شوال سنة (١٣٤٤هـ) في رفقة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري أيضاً، واستفاد من شيخه في هذا السفر الميمون، وهنا تم تأليف كتاب: «بذل المجهود» الذي صب فيه الشيخ السهارنفوري مهجة نفسه، وعصارة علمه وحصيلة دراسته، ثم توفي في الحجاز سنة (١٣٤٦هـ)، ودفن في البقيع.

وفي المدينة المنورة على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم بدأ الشيخ بتأليف كتابه: «أوجز المسالك إلى موطأ مالك»، وهو في التاسعة والعشرين من عمره[٢].

وقد تشرف الشيخ محمد زكريا بزيارة الحرمين الشريفين أكثر من مرة وكان لذلك أكبر الأثر في تكوين شخصيته.

● أعماله اليومية:

رتب الشيخ أوقاته وحافظ عليها بكل دقة وشدة، حيث كان يستيقظ قبل أذان الفجر بساعة ويشتغل بالتهجد والتلاوة ثم يصلّي صلاة الفجر، وبعد الصلاة يشتغل بحزبه ووِرده حتى الشروق ثم يخرج إلى بيته، ويجلس مع الناس ويتناول الشاي دون فطور وأكل، ويكثر عدد الناس في هذا الوقت، ثم يطلع إلى غرفة مطالعته، فيشتغل بالمطالعة والتأليف، ولا يزوره في هذا الوقت إلا من يطلبه أو من يكون مستعجلاً من الضيوف، فإذا كان وقت الغداء نزل وجلس مع الضيوف الذين هم عادة من طبقات شتى، فيؤنسهم ويكرمهم، ثم يقيل، فإذا صلى الظهر اشتغل بإملاء الرسائل والرد عليها قليلاً، يتراوح عدد الرسائل التي تأتيه من أنحاء مختلفة بين أربعين وخمسين رسالة، ثم يخرج إلى الدرس، وكان يشتغل به ساعتين كاملتين قبل العصر، فإذا صلى العصر جلس

---

(١) انظر: آب بيتي ٤/ ٢٣٤.

(٢) انظر: شخصيات وكتب، لأبي الحسن الندوي ص٤٤.

للناس، وقدم لهم الشاي وهم في عدد كبير، فإذا صلى المغرب اشتغل طويلاً بالتطوع والأوراد، ولا يتناول العشاء عادة إلا إكراماً لضيف كبير[١].

◘ التفاني في حب الله ورسوله:

كان الشيخ حريصاً على اتباع السُّنَّة في كل أمر صغير وكبير حرصاً يندر وجوده في كثير من العلماء، وكان لديه حب شديد للرسول ﷺ ولمدينته، فكلما ذُكر شيء من أخبار الرسول ﷺ والصحابة أو الأولياء أو أُنشد بيت رقيق مرقق فاضت عيناه، وتملكه البكاء وهو يغالبه ويخفيه، فتنم عنه الدموع، وليس الحديث له صناعة وعلماً فحسب، بل هو ذوق وحال يعيش به ويعيش فيه[٢].

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي: سافر على جناح الشوق والحنين المرة الخامسة إلى الحجاز في صفر (١٣٨٩هـ)، وكأنه مدفوع إلى ذلك لا يملك صبراً ولا قراراً، وقد نذر صوم شهرين متتابعين شكراً على هذه النعمة.

واستطرد الشيخ الندوي قائلاً: وقد أسعد الله كاتب هذه السطور بمرافقته في هذه الرحلة فرأى من علو همته وقوة إرادته، وشدة أدبه مع الرسول ﷺ وشدة حبه له، وشوقه إليه، ومن علو استعداده ومداركه، وما أكرمه الله به في هذه المدة من القرب والاختصاص ما جدد ذكرى الأقدمين، وصدّق ما جاء في كتب أخبار السلف الصالحين[٣].

وقد ذكر تلامذته أنه كلما جاء ذكر وفاة النبي ﷺ في أثناء تدريسه لسنن أبي داود أو صحيح البخاري اغرورقت عيناه وغص صوته وخضع للبكاء، وكان لبكائه تأثير سريع، فيقول تلامذته: فكنا نحن الشباب نبكي بصوت عال[٤].

---

(١) انظر: مقدمة الأوجز ص١٩.
(٢) المصدر السابق ص٢٠.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: تاريخ جامعة مظاهر علوم ص٧٨.

⊂ وفاته:

كان يتمنى من الله ﷻ أن يلقى ربه في جوار رسول الله ﷺ ويجد مكاناً في البقيع بجوار الصحابة وأهل البيت الكرام، وقد حقق الله ﷻ أمنيته، إذ وفقه للإقامة بالمدينة المنورة، وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى فيها، وذلك يوم الإثنين (غرة شعبان المعظم ١٤٠٢هـ الموافق ٢٤/ ٥/ ١٩٨٢م)، وصلى عليه صلاة الجنازة عبد الله زاحم إمام الحرم المدني، وشيعت جنازته في جم غفير، ودفن بالبقيع بجوار شيخه المحدث خليل أحمد السهارنفوري غفر الله له ورفع درجاته[١].

⊂ أولاده:

رزقه الله من زوجته الأولى خمس بنات وثلاثة ذكور، ورزق من زوجته الثانية بنتين وذكراً، وهو الشيخ محمد طلحة الكاندهلوي[٢].

⊂ صفاته الخِلقية والخُلقية:

ذكر العلامة أبو الحسن الندوي صفاته فقال: هو مربوع القامة، جسيم وسيم، أبيض اللون مشرب بالحمرة، كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان، كثير النشاط لا يعرف الكسل، خفيف الروح، بشوش ودود، كثير الدعابة مع الذين يأنسهم أو يحب أن يؤنسهم[٣].

فنرى في الإمام الخلق الحسن، والتسامح مع الناس، والتواضع النادر، وأن تكون تلك الخلال والصفات محكومة بالإيمان والاحتساب، منسجمة مع مبادئ الإسلام متوافقة مع روح الشريعة المطهرة فذاك شيء من القلة بالمكان الذي يصعب مناله.

---

(١) مجلة الفرقان ص٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٩.
(٣) مقدمة الأوجز ص٢٠.

زهده وتوكله على الله:

ورث الشيخ محمد زكريا الزهد والورع والتوكل والأخلاق الحميدة من والده رَحِمَهُ اللهُ، وقد عرضت عليه عدة وظائف للتدريس براتب كبير يزيد على راتبه الرمزي في «مظاهر علوم» بأضعاف مضاعفة، وكان امتحاناً شديداً لإخلاصه وعلو همته، فقد كانت هذه الوظائف مما يتنافس فيها المتنافسون، ويتهالك عليها الطالبون، فاعتذر عنها في صرامة وعزم وفي ثقة وإيمان، أذكرها بإيجاز:

١ ـ كانت لأسرة الشيخ محمد زكريا علاقة بجامعة «عليكراه»[١] من يوم تأسيسها؛ لأن مؤسس هذه الجامعة السيد أحمد خان كان تلميذاً للشيخ نور الحسن الكاندهلوي[٢]، وقد التحق كثير من الشباب الأذكياء بهذه الجامعة لإكمال دراستهم في تلك الأيام، وكان منهم الشيخ بدر الحسن الذي تخرّج في هذه الجامعة، وكان في سِنِّ الشيخ محمد زكريا ومن أقربائه وبلغ في وظيفته إلى درجة القاضي، وصار عضواً في مجلس الأمناء لجامعة عليكراه، فلما علم أن راتب الشيخ خمس عشرة روبية، وهي لا تكفي أسرته ذات المكانة الكبيرة ـ ألح على الشيخ محمد زكريا أن يستعد للتقدم للاختبارات في العلوم الجديدة فإن اجتازها تمكن من الحصول على وظيفة راتبها ثلاثمئة روبية، وقد أيد هذه الفكرة كثير من أقربائه، لكن الشيخ رفض هذا الاقتراح وخاطبهم بقوله: «**إنني لا أستطيع أن أغير منهج حياتي واشتغالي بتدريس العلوم الشرعية، والرزق بيد الله هو الذي يعطي الرزق ويمنحه**». فلما رأى الشيخ بدر الحسن توكل الشيخ وعزيمته القوية فرح بذلك وتركه على حاله.

٢ ـ وقد وقع في حياته ابتلاء آخر وهو أنه قد صار معروفاً في تدريسه وهو شاب، بسبب مشاركته في تأليف «بذل المجهود في حَلّ أبي داود»، ثم تدريسه «سنن أبي داود» فقرر مجلس الأمناء لدائرة المعارف بحيدر آباد أن

---

(١) هي جامعة مدنية حكومية تحت إشراف المسلمين.

(٢) وهو من أسرة الإمام محمد زكريا الكاندهلوي، انظر ترجمته في: أحوال وآثار كاندهلة ص٢٨.

يطلب الشيخ محمد زكريا لتحقيق بعض كتب السُّنَّة ويكون راتبه ثلاثمئة روبية مع سيارة وسكن مؤثث، وكل سنة تكون له علاوة، ولما وصل هذا الطلب إلى الشيخ اعتذر وكتب إلى المجلس: «إني لا أستطيع أن أترك هذا المركز العلمي».

٣ ـ كذلك طلبت المدرسة العالية في «كلكته» وهي تعد جامعة رسمية أن يكون الشيخ فيها على وظيفة «شيخ الحديث»، وقرر المجلس راتب الشيخ بمقدار ألف ومئتي روبية وأرسلوا رسالة ثم برقية للاستعجال، فردّ الشيخ على برقيتهم: «إني لست أهلاً لذلك، ومن رشح اسمي وأثنى عليّ فهو بسبب حسن الظن بي، أرجو قبول اعتذاري عن ذلك».

ولم يأخذ الشيخ محمد زكريا مرتباً على اشتغاله بالتدريس طول حياته، بل عمل طوال هذه المدة تطوعاً وتبرعاً، لم يأخذ أجراً ولا جزاء، وقد ثبت أنه أخذ مرتباً قليلاً في بداية حياته التدريسية من المدرسة، ثم قام بحساب هذا المبلغ ورده إلى المدرسة بمجموعه.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي: بهذا الإيثار والتوكل وأسلوب الحياة رفع الله شأنه وصار عَلماً من أعلام المحدثين والربانيين في الهند[1].

◌ ثناء العلماء عليه:

أثنى عليه كثير من علماء العرب والعجم واعترفوا بعلمه وفضله، قال العلامة المحدث محمد يوسف البنوري: إن هناك بقايا من السلف ظهروا في عهد الخلف، وُفِّقوا لجهود مشكورة في أبواب العلم والفقه، يمثلون عهد سلف ـ قد مضوا ـ بعلمهم وفضلهم وورعهم وتقواهم، ويذكرون ذلك العهد الميمون المبارك، ومن هؤلاء العلماء شخصية فذة مغتبطة بكمالاته العلمية والعملية، صاحب التأليفات النافعة الجيدة والتعليقات الممتعة في غاية الحسن والجمال، حضرة مولانا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي السهارنفوري، نزيل

(١) انظر: تذكرة الشيخ محمد زكريا، للندوي ص٥٧، وعلماء مظاهر علوم وخدماتهم العلمية والتأليفية ص١٦٧.

المدينة المنورة ـ زادها الله نوراً ـ المدعو بـ «شيخ الحديث» ساهم القدماء من المحدثين والفقهاء في التأليف[١].

وقال الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي رئيس قسم الدراسات الإسلامية في جامعة عليكراه: الشيخ المحدّث محمد زكريا، يتضح لمن اطلع على مؤلفاته أنه كان في نبوغ العلم وكثرة التأليفات مثل الإمام ابن الجوزي والإمام الغزالي في هذا العصر! ولا أعرف أحداً من علماء عصره مثيلاً له في هذا إلا الإمام عبد الحي الفرنكي محلي[٢] اللكنوي.

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عنه: الشيخ الإمام الجليل والفقيه المحدث النبيل ريحانة الهند والحجاز، ولسان أهل الحقيقة والمجاز، مولانا وبركتنا[٣].

وقال الدكتور السيد محمد بن علوي المالكي: صاحب الفضيلة العلامة المحدث، وبقية السلف وزينة الخلف، البركة الإمام الداعي إلى الله، سيدي وشيخي الشيخ محمد زكريا[٤].

ووصفه المحدث الحافظ التيجاني بقوله: شيخ الحديث حضرة العلامة محمد زكريا الكاندهلوي، العلامة الفاضل، المدقق المحقق[٥].

وذكره العلامة السيد سليمان الندوي في رحلته إلى الحجاز فقال: إني قابلت في سنة (١٣٦٩هـ) في الحرم المكي فضيلة الشيخ السيد علوي المالكي وهو يثني على «أوجز المسالك» ومؤلفه ويقول: لا نظير لهذا الشرح في كتب المتقدمين[٦].

وذكر الشيخ أبو الحسن الندوي أن الشيخ علوي المالكي كان يقول: إن

---

(١) انظر: مقدمة جزء حجة الوداع صفحة ي.

(٢) انظر: مجلة الفرقان عدد سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٨٥م ص٩٩.

(٣) تأليفات الشيخ ١/ ٨٢.

(٤) المصدر السابق ١/ ٣٤٦.

(٥) انظر: تقريظه على بذل المجهود ١٣/ ٢٦٩.

(٦) تأليفات الشيخ ١/ ٤٥.

مؤلف الكتاب حينما يذكر مذهب المالكية وأقوالهم وأدلتهم، نستغرب نحن المالكية ونتعجب من هذا النقل الصحيح الموصوف بالدقة والأمانة، ويقول: ولو لم يذكر المؤلف في مقدمة كتابه أنه حنفي، فإني لا أعرف أنه حنفي بل أقول: إنه مالكي؛ لأنه نقل في «الأوجز» فروع المالكية من كتبهم التي لا نحصل عليها فيها بسهولة[1].

وقال الشيخ أبو الحسن الندوي عنه: «وليس الحديث له صناعة وعلماً فحسب، بل هو ذوق وحال يعيش به ويعيش فيه»[2].

وقال الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف: له «أوجز المسالك» في ستة مجلدات، وفيه جهد كبير لجمعه وتوسعه في النقل من كتب الحديث والفقه مما جعل صاحبه يستحق الثناء[3].

---

(١) انظر: تذكرة الداعي إلى الله الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ص١٣٧، ومقدمة حجة الوداع ص١٨، وتذكرة شيخ الحديث، لأبي الحسن الندوي ص٢٤٣.
(٢) مقدمته على أوجز المسالك ١/ ٣٩.
(٣) مقدمة موطأ الإمام محمد ص٢١.

المبحث الثاني

شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته

أ ـ شيوخه:

سبق أن ذكرت أن الشيخ محمد زكريا لم يأخذ العلم إلا عن أساتذة معدودين، لكن قلة شيوخه لم يؤثر في مكانته العلمية؛ لأن أساتذته الذين أخذ عنهم العلم كانوا في القمة علماً وتحقيقاً وتأليفاً وتدريساً وورعاً وتقى، ثم البيئة التي عاش فيها كانت من أفضل البيئات في تلك الأيام علماً وعملاً.

ومن الأساتذة المشهورين الذين تلقى الشيخ عنهم العلم:

١ ـ **الشيخ محمد إلياس بن الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي**: عمّ الإمام محمد زكريا، درس عند شقيقه الشيخ محمد يحيى وغيره من العلماء، وتخرج في التزكية على المصلح الكبير الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وأخذ الحديث الشريف من العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بـ «شيخ الهند»، وقد أسس حركة التبليغ والدعوة لما رأى ما أصاب المسلمين من التحلل والإفلاس في الإيمان والشعور الديني، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية والحضارة الغربية والتعليم المدني وغفلة الدعاة، والاشتغال الزائد بالحياة والانهماك في المادة.

توفي في (١١ رجب سنة ١٣٦٣هـ)، ودفن في مركز جماعة التبليغ بدهلي[١].

قرأ عليه الإمام الكتب العربية الابتدائية.

---

(١) انظر ترجمته في: الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، للشيخ أبي الحسن الندوي.

٢ ـ **الشيخ عبد اللطيف البرقاضوي**: ولد رَحِمَهُ اللهُ في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وقرأ الكتب الابتدائية على والده، ثم التحق بمدرسة «مظاهر علوم» وأخذ الحديث الشريف من المحدث خليل أحمد السهارنفوري والشيخ عناية علي السهارنفوري وغيرهما من العلماء، ثم عُيّن مدرساً في مظاهر علوم وأخيراً مديرها فظل يفيد ويدرّس إلى آخر حياته، وتوفي في (٢ ذي الحجة سنة ١٣٧٣هـ) بسهارنفور[١]. قرأ عليه الإمام محمد زكريا علم المعقول.

٣ ـ **والده الشيخ محمد يحيى**: وُلد في سنة (١٢٨٧هـ)، وحفظ كتاب الله وكان عمره سبع سنين، أمره والده أن يقرأ القرآن المجيد من أوله إلى آخره كل يوم، وقرأ الكتب العربية على والده وعلى الشيخ يد الله السنبهلي، ثم قرأ الحديث على العالم الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، ودرّس كتب الحديث وغيرها في مدرسة مظاهر علوم بسهارنفور وتوفي فيها في العاشر من ذي القعدة سنة (١٣٣٤هـ).

وكان للشيخ محمد يحيى طريقة خاصة في التعليم والتربية، فلم يكن يُدرّس في المراحل الابتدائية الكتب الدراسية، بل كان يملي القواعد والمبادئ الصرفية والنحوية، على الترتيب والتدريج، وكان يركز على اللغة والأدب والتضلع منهما منذ البداية، وكان يهتم بتعميق القدرة العلمية وغرس حب الدراسة في قلب الطالب، ولم يعتن بإنهاء المقررات الدراسية بل كان يهتم بتقريب المادة إلى ذهن الطالب، ولم يكن ينتقل من كتاب إلى آخر إلا حين يطمئن إلى أنه أصبح يقدر على فهم وتفهيم صفحات الكتاب دون مساعدة من أستاذه، ويولي عناية خاصة لإتقان اللغة العربية وتكوين القدرة العلمية لدى الطالب، من هنا كان المتخرج عليه يتمتع بالإتقان والتعمق والكفاءة العلمية[٢].

قرأ الشيخ محمد زكريا عليه كتب السُّنَّة وغيرها وحصلت له منه إجازة

---

(١) انظر ترجمته في: العناقيد الغالية ص١١٥، وتاريخ مظاهر علوم ص١٠٨.

(٢) تذكرة الشيخ محمد إلياس، لأبي الحسن الندوي ص١٢.

الحديث، وقد أخذ الشيخ محمد يحيى الحديث الشريف عن الإمام المحدث رشيد أحمد الكنكوهي، الذي أخذ الحديث عن الشيخ المحدث عبد الغني المجددي، وقد أخذ الحديث عن الشاه أبي سعيد الدهلوي، الذي أخذ الحديث عن الشاه عبد العزيز الدهلوي، والأخير أخذ الحديث عن الشاه ولي الله الدهلوي[١].

٤ ـ **المحدث خليل أحمد السهارنفوري**: ولد في «نانوته» من أعمال سهارنفور في سنة تسع وستين ومائتين وألف من الهجرة، وقرأ العلم على خاله الشيخ يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي والشيخ محمد مظهر النانوتوي، وعلى غيرهما من العلماء في «دار العلوم» ديوبند و«مظاهر علوم».

وأخذ الحديث عن الشاه عبد الغني المجددي، والشيخ عبد القيوم البدهانوي، وقد أخذ الحديث عن الشاه إسحاق الدهلوي تلميذ الشاه عبد العزيز الدهلوي.

كذلك حصل على إجازة الحديث من الشيخ محمد مظهر النانوتوي، الذي تصل سلسلة إسناده إلى الشاه عبد العزيز الدهلوي، درّس الحديث الشريف في «دار العلوم» ديوبند، و«مظاهر علوم» قال المؤرخ عبد الحي الحسني عنه: كانت له الملكة القوية والمشاركة الجيدة في الفقه والحديث، واليد الطولى في الجدل والرسوخ التام في علوم الدين[٢]، وتخرج على يده جمع من العلماء والمشايخ منهم الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والشيخ عاشق إلـٰهي الميرتهي، ولازمه الشيخ محمد زكريا مدة من الزمن وحصل منه على إجازة الحديث.

ألَّف الشيخ السهارنفوري مؤلفات عديدة من أهمها «بذل المجهود» و«المهند على المفند».

---

(١) العناقيد الغالية ص١٣٤، وانظر: أسانيد الشيخ محمد زكريا وإجازاته في مقدمة الأوجز ص٦٠.

(٢) نزهة الخواطر ١٤٧/٨، وانظر ترجمته في: العناقيد الغالية ص١٢٤، وبذل المجهود ٢٥/١ ـ ٣٤، ٢٤٥/٢٠، ومقدمة أوجز المسالك ٥٩.

توفي في المدينة المنورة يوم الأربعاء في السادس عشر من ربيع الآخر سنة (١٣٤٦هـ)، ودفن بالبقيع.

٥ ـ وحصل الشيخ محمد زكريا على الإجازة من الشيخ مولانا **عناية إلـهي** عن الشيخين الجليلين مولانا محمد مظهر النانوتوي، وشارح صحيح البخاري مولانا أحمد علي المحدث السهارنفوري رحمهم الله تعالى[١].

ب ـ تلاميذه:

أما تلاميذه الذين نهلوا من علمه واستفادوا منه فعددهم كثير، وما زالوا يخدمون الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويجدهم السائح في المدارس الإسلامية ولا سيما في الهند وباكستان، وبنغلاديش وإنكلترا وكندا، وأمريكا، وجنوب إفريقية، وغيرها من البلدان.

وقد برز منهم في الحديث الداعية المحدث محمد يوسف الكاندهلوي (ت١٣٨٤هـ) صاحب كتاب «أماني الأحبار شرح معاني الآثار» للطحاوي[٢]، والشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي (ت١٤١٦هـ)[٣]، والشيخ عبد الجبار الأعظمي صاحب كتاب «إمداد الباري شرح صحيح البخاري»، والمفتي محمود حسن الكنكوهي (ت١٤١٧هـ)، والشيخ الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي المظاهري، والشيخ محمد يونس الجونفوري شيخ الحديث بجامعة مظاهر علوم، والشيخ محمد عاقل السهارنفوري وغيرهم.

وأخذ عنه إجازة الحديث كثير من العلماء وطلبة العلم، من أشهرهم: الدكتور مصطفى السباعي، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والدكتور محمد علوي المالكي، والشيخ محمد طه البركاتي وغيرهم[٤].

---

(١) مقدمة أوجز المسالك ص٦٠.

(٢) انظر ترجمته في: تذكرة الداعي إلى الله الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، للشيخ الشريف محمد الثاني الحسني.

(٣) قاد حركة جماعة التبليغ من (١٣٨٤هـ) إلى (١٤١٦هـ).

(٤) علماء مظاهر علوم وخدماتهم العلمية والتأليفية ص٣٠٣.

ج - مؤلفاته:

ألّف الشيخ في أكثر العلوم والفنون مؤلفات تدل على غزارة علمه ورجاحة عقله وعلو منزلته، وتتميز كتبه بالضبط التام، والتحقيق والإتقان والدقة، وعمق البحث والاستيفاء والإنصاف، والاعتدال والتواضع البالغ، والصبر والأناة، وكثرة المصادر وتنوع المعارف.

وقد اهتم الشيخ بالتأليف كما اهتم بالتدريس، فيرى المتتبع لأحوال حياته أنه لم ينقطع عن التأليف في حله وترحاله ومرضه، وهذا كتابه «حجة الوداع» أكمله في يوم وليلة ونصف ليلة، عدا عن الحواشي التي أضافها في الأوقات المتفرقة[١]، وأكمل كتابه «شرح الشمائل للترمذي» خلال يومين أو ثلاثة[٢].

وقد يلاحظ المتتبع لحياته أنه بدأ يؤلف في أيام دراسته، فكان أول كتاب ألفه: «شرح ألفية ابن مالك» في علم النحو في ثلاثة أجزاء بـ«اللغة الأردية»، وكان عمره حينئذ نحو ثلاث عشرة سنة[٣].

ولعل أبلغ دلالة على ذلك كثرة مؤلفاته التي تجاوزت المئة، وهذا يدل دلالة واضحة على اهتمام الشيخ محمد زكريا بتأليف الكتب وتصنيفها منذ الصغر.

كذلك يلاحظ القارئ عند مطالعته لكتبه أنه معترف بفضل المتقدمين، وإن اختلف معهم اختلف بكل أدب واحترام.

يقول العلامة الندوي: يمتاز كتابه بمعرفته لفضل المتقدمين، والأدب معهم وإيتاء كل ذي حق حقه، والتصريح بأسمائهم، وبالمصادر التي ينقل عنها، والرد عليهم، ويُبين بعض أوهامهم في أدب جم، وتواضع ظاهر، وأسلوب علمي نزيه، وذلك شعار العلماء المتقدمين في كل عصر وطبقة[٤].

---

(١) انظر: حجة الوداع ص٢٠٥.

(٢) آب بيتي ٢/ ١٣١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٢٥.

(٤) مقدمة حجة الوداع، لأبي الحسن الندوي ص٨١.

وقد قرر الشيخ أن لا يأخذ حقوق الطبع من دور النشر التي نشرت كتبه، وأعلن في الجرائد والصحف أنه ألف هذه الكتب ابتغاء لوجه الله تعالى، فلا يطلب عوضاً ماليّاً من الجهة التي قامت بطباعة كتبه، ويجيز لكل من يريد طباعة كتبه، بشرط أن لا يغيّر موضوعات الكتاب، ويهتم بالتصحيح[(١)].

لذلك نرى أن كتبه وجدت رواجاً وقبولاً بين الناس في العرب والعجم، وتُرجمت إلى عدة لغات في العالم، منها: كتابه «فضائل القرآن» الذي ترجم إلى إحدى عشرة لغة، و«فضائل الصلاة» إلى خمس عشرة لغة، و«فضائل رمضان» إلى اثنتي عشرة لغة، وهكذا كتبه الأخرى الكثيرة، ونفع الله بها خلائق لا يحصون[(٢)].

ألف الشيخ في علوم وفنون شتى، واختار لذلك اللغة الأردية والعربية، فكان له نحو مئة مؤلف، منها ما هو للمختصين، ومنها ما هو لعامة الناس.

أسماء كتب الشيخ حسب العلوم والفنون[(٣)]

◘ أ ـ التفسير والتجويد:

١ ـ تحفة الإخوان في بيان أحكام تجويد القرآن (الأردية) مطبوع.

٢ ـ تبويب أحكام القرآن، ذكره الشيخ في (آب بيتي)[(٤)].

٣ ـ تفسير موجز للقرآن (العربية) مطبوع.

٤ ـ شرح الجزرية (العربية) مخطوط.

---

(١) تذكرة شيخ الحديث، للدهيانوي ١/ ٢٠٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٠٠.

(٣) انظر: آب بيتي ٢/ ١٦٩، ومجلة الفرقان ص١٢٥.

(٤) ٢/ ١٦٩.

ب ـ الحديث وعلومه:

١ ـ الأبواب والتراجم للبخاري (العربية) مطبوع.

٢ ـ أوجز المسالك إلى موطأ مالك (العربية) مطبوع.

٣ ـ أصول الحديث على مذهب الحنفية (مخطوط).

٤ ـ أوليات القيامة (العربية) مخطوط.

٥ ـ تبويب تأويل مختلف الحديث (العربية) مخطوط.

٦ ـ تبويب مشكل الآثار (العربية) مخطوط.

٧ ـ تخريج الجامع (العربية) مخطوط.

٨ ـ تقارير كتب الحديث (الأردية) مخطوط.

٩ ـ تقرير مشكاة (شرح مشكاة المصابيح) (العربية) مخطوط.

١٠ ـ تقرير نسائي (المسمى: الفيض السمائي على سنن النسائي) (العربية) مطبوع.

١١ ـ تلخيص «بذل المجهود» (العربية) مخطوط.

١٢ ـ جامع الروايات والأجزاء (العربية) مخطوط.

١٣ ـ جزء أفضل الأعمال (العربية) مخطوط.

١٤ ـ جزء أنْكحته ﷺ (العربية) مخطوط.

١٥ ـ جزء إنما الأعمال بالنيات (العربية) مخطوط.

١٦ ـ جزء تخريج حديث عائشة رضي الله عنها.

١٧ ـ جزء الجهاد (العربية) مخطوط.

١٨ ـ جزء روايات الاستحاضة (العربية) مخطوط.

١٩ ـ جزء رفع اليدين (العربية) مخطوط.

٢٠ ـ جزء صلاة الاستسقاء (العربية) مخطوط.

٢١ ـ جزء صلاة الخوف (العربية) مخطوط.

٢٢ ـ جزء صلاة الكسوف (العربية) مخطوط.

٢٣ ـ جزء ما جاء في شرح ألفاظ الاستعاذة (العربية) مخطوط.

٢٤ ـ جزء ما قاله المحدثون في الإمام الأعظم (العربية) مخطوط.

٢٥ ـ جزء ما يشكل على الجارحين (العربية) مخطوط.

٢٦ ـ جزء المبهمات في الأسانيد والروايات (العربية) مخطوط.

٢٧ ـ جزء مُكفرات الذنوب (العربية) مخطوط.

٢٨ ـ جزء المعراج (العربية) مخطوط.

٢٩ ـ حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ (العربية) مطبوع.

٣٠ ـ حواشي المسلسلات (العربية) مطبوع.

٣١ ـ حواشي وتعليقات بذل المجهود (العربية) مطبوع.

٣٢ ـ حواشي ذيل التهذيب، مخطوط.

٣٣ ـ ذيل التيسير (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) (العربية) مخطوط.

٣٤ ـ شذرات الحديث (وهي تعليقات على بعض كتب الحديث) (العربية) مخطوط.

٣٥ ـ شذرات أسماء الرجال (العربية) مخطوط.

٣٦ ـ فضائل زبان عربي (فضائل اللغة العربية) (الأردية) مطبوع.

٣٧ ـ الكوكب الدري على جامع الترمذي (العربية) مطبوع.

٣٨ ـ لامع الدراري على جامع البخاري (العربية) مطبوع.

٣٩ ـ معجم الصحابة الذين أخرج عنهم أبو داود الطيالسي في مسنده (العربية) مخطوط.

٤٠ ـ ملتقط الرواة عن المرقاة (العربية) مخطوط.

٤١ ـ مختصات المشكاة (العربية) مخطوط.

٤٢ ـ معجم رجال تذكرة الحفاظ للذهبي[1].

(١) ذكره الشيخ في آب بيتي ٢/١٦٨.

٤٣ ـ معجم المسند للإمام أحمد[١].

٤٤ ـ مقدمات كتب الحديث (العربية) بعضها مطبوعة وبعضها مخطوطة.

ج ـ الفقه وأصوله:

١ ـ اختلاف الأئمة (الأردية) مطبوع.

٢ ـ جزء المناط (العربية) مخطوط.

٣ ـ جزء خلاف الأئمة في الصلاة (العربية) مخطوط.

٤ ـ جزء رفع اليدين (العربية) مخطوط.

٥ ـ شذرات أي تعليقات على الهداية، ونور الأنوار، والدر المختار والحسامي، وهذه مجموعة من المذكرات كتبها الشيخ باللغة العربية وهي مخطوطة.

٦ ـ وجوب إعفاء اللحية (الأردية) و(العربية) مطبوع.

د ـ التاريخ والسير:

١ ـ أبجد الوقائع (الأردية) مخطوط.

٢ ـ أكابر كا رمضان (الأردية) مطبوع.

٣ ـ آب بيتي (مسيرة الحياة) (الأردية) مطبوع.

٤ ـ أكابر علماء ديوبند (أي: تراجم كبار علماء ديوبند) (الأردية) مطبوع.

٥ ـ تاريخ مشايخ جشت (الأردية) مطبوع.

٦ ـ تاريخ مظاهر علوم (الأردية) مطبوع.

٧ ـ تذكرة القراء السبعة (العربية) مطبوع.

٨ ـ جزء أمراء المدينة المنورة (العربية) مخطوط.

٩ ـ جزء طرق المدينة المنورة (العربية) مخطوط.

---

(١) ذكره الشيخ في آب بيتي ٢/١٦٣.

١٠ ـ جزء وفاة النبي ﷺ (العربية) مخطوط.

١١ ـ الحواشي على الإشاعة في أشراط الساعة[١] (العربية) مطبوع.

١٢ ـ حياة الصحابة (العربية) مطبوع.

١٣ ـ خصائل نبوي (شرح الشمائل) (الأردية) مطبوع.

١٤ ـ رسائل استرائك (رسالة فيما يتعلق بإضراب الطلبة عن الدراسة) (الأردية) مطبوع.

١٥ ـ سيرة الصديق رضي الله عنه (الأردية) مطبوع.

١٦ ـ قرآن عظيم أور جبرية تعليم (الأردية) مطبوع.

١٧ ـ مجددين ملت (مجددو الدين) (الأردية) مخطوط[٢].

١٨ ـ مشايخ التصوف (الأردية) مخطوط.

١٩ ـ ميري محسن كتابين (كتب عشت فيها) (الأردية) مخطوط.

٢٠ ـ المؤلفات والمؤلفون (فهرس المؤلفات والمؤلفين من كتب الأخبار والمحدثين) (العربية) مخطوط.

٢١ ـ نظام مدرسة مظاهر علوم (الأردية) مخطوط.

٢٢ ـ المؤلفات والمؤلفون (فهرس المؤلفات والمؤلفين من كتب الأخبار والمحدثين).

٢٣ ـ نتائج حج (أثر الحج) (الأردية) مطبوع.

٢٤ ـ الوقائع والدهور (العربية) مخطوط.

هـ ـ العقيدة:

١ ـ إسلام لانى كا طريقه (طريقة الدخول في الإسلام) (الأردية) مطبوع.

٢ ـ التقدير (مخطوط)[٣].

---

(١) ذكره الشيخ في آب بيتي ٢/ ١٦١.

(٢) ذكره الشيخ في آب بيتي ٢/ ١٦٥.

(٣) ذكره الشيخ في آب بيتي ٢/ ١٥٩.

٣ ـ تين مكتوب (ثلاث رسائل) (الأردية) مطبوع.

٤ ـ موت كي ياد (ذكر الموت) (الأردية) مطبوع.

و ـ الزهد والرقاق:

١ ـ شريعت وطريقت كا تلازم (الأردية) مطبوع، وطبع باللغة العربية باسم (الشريعة والطريقة).

٢ ـ ضمائم خوان خليل (الأردية) مطبوع.

٣ ـ فضائل التجارة (الأردية) وترجم إلى اللغات الأخرى.

٤ ـ فضائل درود شريف (الأردية) مطبوع، وترجم إلى العربية باسم (فضائل الصلاة على النبي ﷺ) كما ترجم إلى لغات أخرى.

٥ ـ فضائل الذكر (الأردية) مطبوع.

٦ ـ فضائل القرآن (الأردية) مطبوع، وترجم إلى العربية واللغات الأخرى.

٧ ـ فضائل الحج (الأردية) مطبوع.

٨ ـ فضائل التبليغ (الأردية) مطبوع.

٩ ـ فضائل الصدقات (الأردية) مطبوع، وترجم إلى اللغات المختلفة.

١٠ ـ فضائل الصلاة (الأردية) مطبوع، وترجم إلى اللغات الأخرى.

١١ ـ نسبت وإجازات (النسبة والإجازة) (الأردية) مطبوع.

١٢ ـ وصايا وتعليمات (العربية والأردية) مطبوع.

ز ـ الصرف والنحو والمنطق والإقليدس:

١ ـ إضافة بر أشكال أقليس (إضافة على أشكال أقليدس) (الأردية) مخطوط.

٢ ـ شرح ألفية ابن مالك (الأردية) مخطوط.

٣ ـ شرح سلم العلوم (الأردية) مخطوط.

حـ ـ الفرق والحركات:

١ ـ الاعتدال في مراتب الرجال (الأردية) مطبوع.

٢ ـ تبليغي جماعت بر اعتراضات كي جوابات (انتقادات الناس على جماعة التبليغ والجواب عنها) (الأردية) مطبوع.

٣ ـ فوائد حسيني (العربية) مخطوط.

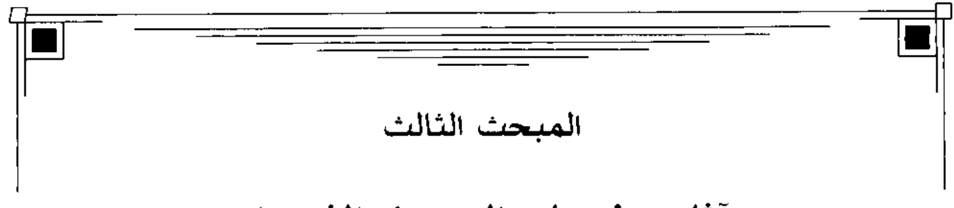
٤ ـ فتنة مودوديت (الأردية) مطبوع، وترجم إلى العربية باسم «الأستاذ المودودي ونتائج بحوثه وأفكاره».

٥ ـ مشرقي كا إسلام[1] (إسلام المشرقي) ألفه الشيخ في الرد على عناية الله المشرقي الملحد.

٦ ـ مطالعة قادنيت (الرد على القاديانية) (الأردية) مخطوط.

* * *

(١) ذكره الشيخ في آب بيتي ٢/١٦٦.



المبحث الثالث

آثاره في علم الحديث الشريف

لما كان موضوع البحث «المحدث محمد زكريا وآثاره في علم الحديث»، فقد أفردت لآثاره الحديثة عنواناً مستقلاً كي أفصل القول فيها حتى يقف القارئ على جهوده في هذا الجانب المهم.

وأذكر هنا أولاً الكتب المطبوعة ثم الكتب المخطوطة:

أ ـ الكتب المطبوعة:

١ ـ أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك:

يعد هذا الكتاب أوفى شرح للموطأ حديثاً وفقهاً وخدمة للقارئ وتوضيحاً للمراد، وهو مؤلف جامع يغني عن كثير من الشروح والحواشي، ويمكن عدّه موسوعة ضخمة في علم الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، تعلن دون غموض سعة علم المؤلف وصفاء ذهنه، ورحابة صدره في ذكر الدلائل والحجج، وتحريه للصحة والدقة في نقل المذاهب، وفهمه العميق، وهو يستوفي شرح أسماء الرجال، وبيان المذاهب الأربعة وما عداها في المسائل الخلافية من كتب موثوقة عند أهلها، ويهتم في شرح الحديث ويذكر أقوال مشايخه وأعيان المحدثين في الهند[1].

وعليه مقدمة ضافية ذكر فيها المصنف أولاً سبب تأليف هذا الشرح مع بيان خطته فيها.

ثم قسّم مقدمته إلى **سبعة أبواب** وأدرج تحتها فوائد عديدة.

(١) انظر: مقدمة أوجز المسالك ١/ ٩.

فجعل **الباب الأول** في علم الحديث الشريف، ذكر فيه تعريف علم الحديث رواية ودراية، وشرافة هذا العلم وأهله والثناء عليه، ثم تطرق لبيان كتابة السُّنَّة في العهد النبوي وتدوينها.

وأما **الباب الثاني** ففيه فصلان: جعل الفصل الأول في ترجمة إمام دار الهجرة مالك بن أنس ﷺ فذكر فيه اسمه ونسبه ونسبته وولادته ووفاته وصفاته الخلقية ولباسه وأولاده وثناء العلماء عليه، ثم ذكر مشايخه الذين أخذ عنهم العلم وتلامذته الذين نهلوا من علمه، وختم هذا الفصل بذكر مؤلفاته غير الموطأ.

وجعل الفصل الثاني: في بيان أفضلية الموطأ وثناء العلماء عليه، وسبب تسميته بالموطأ، ومنهجه فيه، ثم تطرق إلى بيان تعريف رواة الموطأ ونسخه، وأهمية نسخة يحيى بن يحيى المصمودي الأندلسي مع بيان عدد روايات الموطأ، ثم ذكر المراسيل، والبلاغات الواردة فيه مع بيان حكمها، ثم ذكر الكتب التي ألفت حول الموطأ مع تعريف وجيز للمؤلف والمؤلَّف.

وأما **الباب الثالث**: فخصصه للتعريف بنفسه وشيوخه وذكر أسانيده بالتفصيل مع تعريف بكبار علماء الهند.

وجعل **الباب الرابع**: في ترجمة الإمام أبي حنيفة وشيوخه وتلامذته والدفاع عنه، وذكر في الباب الخامس بعض أصول الحديث المهمة.

وأما **الباب السادس**: فجعله في بيان آداب المحدث ومراتب أهل الحديث وآداب الطالب، وطرق التحمل والأداء.

وأما **الباب السابع**: فجعله في بيان نكت في علوم الحديث.

وطبع الكتاب بتحقيق والدي الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي بدار القلم في (١٨) مجلداً.

منهجه في أوجز المسالك:

١ - إنه شرح ممزوج مع متن الحديث ولفظ السند فيشرحه شرحاً حرفيّاً ليسهل على الناظر فهمه وإدراكه.

٢ ـ إن المؤلف ينبه على سائر الألفاظ الواردة في الأمهات الست من رواية لفظ الحديث لكي يقف الناظر في شرحه عليها بوضوح وجلاء، ويتسنى له ترجيح بعضها على بعض من غير خفاء.

٣ ـ إنه يقول في المسائل المهمة: فيه عدة أبحاث أو عدة مسائل، ثم يفسرها ويبينها بالتفصيل، وأذكر لذلك أمثلة: قال: في صلاة الخوف ثمانية أبحاث(١) وقال: في القنوت أربع مسائل خلافية بين الأئمة(٢)، وقال في باب العمل في الاستسقاء: هاهنا عدة أبحاث وهي سبعة أبحاث(٣)، وقال في باب إعادة الصلاة مع الإمام: فيه ثلاث مسائل خلافية(٤)، وقال في كسوف الشمس: فيه عدة أبحاث (عشرة أبحاث)(٥)، وقال في قصر الصلاة في السفر: اختلفوا من ذلك في خمسة مواضع(٦).

٤ ـ إنه أسند البلاغات والأحاديث المرسلة، وشيد الموقوفة بالمرفوعة(٧).

٥ ـ إنه يشرح ترجمة الكتاب إذا كانت الحاجة داعية إلى ذلك، ولتظهر مناسبة الحديث بالباب، ومن أمثلة ذلك:

قوله: باب الرخصة في ترك الوضوء من المذي(٨):

قال المؤلف:

الترجمة مؤولة؛ لأن المذي والودي من نواقض الوضوء عند الجميع، وذكر الإجماع فيه في «المغني»(٩) وغيره، فالمراد في الترجمة من المذي سلس المذي، كما صرح به المالكية أيضاً(١٠)، فحاصل الترجمة أن المذي إذا صار

---

(١) أوجز المسالك ٤/ ٦ ـ ١٢.
(٢) ٣/ ١٧٤.
(٣) ٤/ ٦١ ـ ٦٦.
(٤) ٣/ ١٨.
(٥) ٣/ ٢٢ ـ ٢٨.
(٦) ٣/ ٨٨.
(٧) انظر: أوجز المسالك ١/ ١٩٦، ٢٣٧، ٣٢٥، ٢/ ١٩، ٣٢٥.
(٨) أوجز المسالك ١/ ٢٦٧.
(٩) المغني، لابن قدامة ١/ ٢٣٠.
(١٠) انظر: حاشية الدسوقي على شرح الكبير ١/ ١١٦.

يتسلسل فرخص في ترك الوضوء منه؛ لأنه صار في حكم المعذور.

قوله: باب وضوء النائم إذا قام إلى الصلاة[١]:

قال: الظاهر في مقصود الترجمة بيان كيفية وضوء النائم، فعلم من الحديث استحباب غسل اليدين إذ ذاك، فهو أشد تأكيداً من غير النائم حتى قال بعضهم بوجوبه في حقه كما سيجيء، والأوجه أن يكون مقصود الترجمة أن الوضوء للنائم لا يجب على الفور بل إذا قام إلى الصلاة.

قوله: باب ما جاء في السعي يوم الجمعة[٢]:

قال: الغرض أنه أمر في هذه الآية بالسعي، وهو العَدْوُ في المشهور، فغرض الإمام مالك في هذه الترجمة التنبيه على أنه ليس المراد في الآية هو السعي اللغوي، بمعنى العَدْو، بل بمعنى المضي.

٦ ـ إنه يستوفي بيان المذاهب الأربعة وما عداها في المسائل الخلافية من كتب موثوقة عند أهلها، بل يستقصي الأقوال والروايات المختلفة المروية في كتب المذاهب عن الأئمة، ولا سيما في مذهب الإمام مالك.

٧ ـ إنه يذكر أدلة المذاهب تارة بالاستقصاء[٣]، وتارة بالتلخيص، حسبما اقتضاه المقام، ليكون كل من انتسب إلى أحد من الأئمة المتبوعين على بصيرة.

٨ ـ إنه يستوفي في شرح أسماء الرجال[٤] بكلام موجز منقح مع جرح وتعديل إيقاظاً للناظر على درجة الحديث.

٩ ـ إنه اعتمد في شرح الحديث على جهابذة شراح الحديث، ولكن إذا وجد وهماً في كلامهم نبَّه عليه، من ذلك قوله:

أ ـ مالك عن موسى بن عقبة عن عبد الرحمٰن بن زيد الأنصاري أن

---

(١) ١/ ١٩٩.

(٢) انظر: ٢/ ٢٣٩.

(٣) انظر: ٢/ ٢٢، ١٢٩، ١٦٥، ٢٦١.

(٤) انظر: أوجز المسالك ١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩، ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٩٣، ٣٣٢ و٢/ ٢٢٤.

أنس بن مالك قدم من العراق. . . إلخ[١]، «عبد الرحمٰن بن زيد» هكذا في جميع النسخ إلا في نسخة الزرقاني[٢]، والتنوير[٣]، ففيها بزيادة الياء في أوله، وهو وهم والصواب بإسقاط الياء كما في أكثر النسخ، وكذا في روايات الطحاوي والبيهقي[٤]، بدون الياء وهو المؤيد بكتب الرجال، والحقيقة أنه اشتبه هذا الراوي على العلامة الزرقاني، ففسره بعبد الرحمٰن بن يزيد بن جارية الأنصاري أبي محمد المدني وذكر حاله وليس كذلك بل هو غيره، هو عبد الرحمٰن بن زيد بن عقبة المدني الأنصاري[٥].

ب ـ وقوله: مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة وأم سلمة أنها رأت زينب بنت جحش التي كانت تحت عبد الرحمٰن بن عوف. . . إلخ[٦] قال عياض: اختلف أصحاب الموطأ فأكثرهم يقولون: زينب، وكثير منهم يقولون: ابنة جحش، وهو الصواب كما يدل عليه قوله: التي كانت تحت عبد الرحمٰن بن عوف؛ لأن زينب أم المؤمنين لم يتزوجها عبد الرحمٰن قط، وإنما تزوجها أولاً زيد بن حارثة ثم تزوجها النبي ﷺ والتي كانت تحت عبد الرحمٰن هي أم حبيبة. انتهى.

قال الحافظ في الفتح[٧]: وجزم ابن عبد البر أن رواية الموطأ هذه خطأ، وعلق عليه الشيخ محمد زكريا بقوله: في سنن أبي داود[٨] وغيره بلفظ «امرأة» على الإبهام دون التسمية، فالظاهر أن هذه التسمية وهم، والصواب الإبهام والمراد بها أم حبيبة.

---

(١) أوجز المسالك ١/ ٢٢٠.
(٢) شرح الزرقاني ١/ ٦١.
(٣) تنوير الحوالك ص٤٨.
(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٥٨، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٥٨.
(٥) انظر: لسان الميزان ٣/ ٤١٦، وجامع الأصول ٧/ ٢٢٢.
(٦) أوجز المسالك ١/ ٣٥٣.
(٧) فتح الباري ١/ ٤١٠.
(٨) أخرجه أبو داود في الطهارة ١/ ١١٤، باب في المرأة تستحاض. . . والنسائي في الطهارة (٢٠٨)، باب ذكر الاغتسال من الحيض.

جـ ـ قوله: مالك عن هشام بن عروة. . . إلخ. قال المؤلف في الشرح: زاد في بعض الهوامش بعد ذلك نسخة «عن أبيه» ومتون النسخ كلها خالية عن هذه الزيادة وكذا الشراح من الزرقاني والسيوطي وغيرهما لم يذكروا هذه الزيادة، والصواب وجودها. . . وكذا حكاه الحافظ عن مالك فتأمل وتشكر[(١)].

وقلت: وأخرج الخطيب هذا الأثر في كتابه «تالي تلخيص المتشابه» من طريق هشام عن أبيه قال: حدثني زبيد[(٢)].

١٠ ـ إن الشرح استوى من بدئه إلى الختام بأسلوب واضح غير معقد بعبارة فصيحة وبخطة متوسطة بين الإيجاز وبين الإسهاب، فتشابه طرفاه، وكان كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها كما قال أبو الطيب: فتشابهت كلتاهما نجلاء.

وقد كَمُل هذا الشرح في ثلاثين سنة[(٣)].

٢ ـ لامع الدراري على جامع البخاري:

هو مجموعة من الإفادات الثمينة والتحقيقات النادرة للإمام الرباني شيخ الفقهاء والمحدثين في عصره رشيد أحمد الكنكوهي المتوفى سنة (١٣٢٣هـ)، في أثناء تدرس «الجامع الصحيح» للإمام البخاري قيدها تلميذه النجيب الوفي الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي المتوفى سنة (١٣٣٤هـ)، وهو عُصارة دراسات الشيخ ولباب تأملاته، وعكوفه الطويل على علم الحديث دراسة وتدريساً.

وقد جاء دور الشيخ محمد زكريا فنقحها وهذبها وتناولها بالشرح والإيضاح والكشف والإبانة، وضم إليها ما فتح الله به عليه من نكت بديعة

---

(١) أوجز المسالك ١/ ٢٩٥.

(٢) تالي تلخيص المتشابه، للخطيب البغدادي ١/ ٣٣٨.

(٣) طبع أولاً في الهند في ستة مجلدات كبار طباعة حجرية، ثم أعيدت طباعته في القاهرة في خمسة عشر مجلداً. ثم طبع الكتاب بتحقيق وتعليق والدنا الجليل الدكتور تقي الدين الندوي في دار القلم بدمشق في ثمانية عشر مجلداً.

وإشارات لطيفة، وتحقيقات نادرة، وتطبيقات فائقة، وسماه: «لامع الدراري على جامع البخاري» وألف على الكتاب مقدمة ضافية، ذكر فيها أولاً التعريف بالشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وطريقة تدريسه للكتب الستة وإجازاته لطلبة الحديث، ثم بين سبب تأليف هذا الكتاب.

ثم قسم **المقدمة** إلى أربعة فصول: أما **الفصل الأول** فخصصه لدراسة حياة الإمام البخاري من نواح شتى بكل إتقان وإنصاف، وأبرز الجوانب المهمة من حياته، ومن ذلك قوله في بيان مذهبه الفقهي بعد ذكر آراء العلماء فيه: كذلك الإمام البخاري المعروف أنه شافعي ولذا عدّوه في الشافعية، والأوجه عندي أنه مجتهد مستقل كما يظهر من إمعان النظر في «الصحيح» فإن إيراداته على الشافعية ليست بأقل من إيراداته على فروع الحنفية، إلا أنه إذا أورد على الحنفية يشدد الكلام لعوارض معلوماته[١].

وعندما تعرض الإمام لذكر شيوخ البخاري قال بعد ذكر شيوخه من الحنفية: أكثر ثلاثيات البخاري من شيوخه الحنفية[٢].

وأما في **الفصل الثاني**: فتناول فيه التعريف بكتابه «الصحيح» فذكر اسمه والباعث على تأليفه وثناء العلماء عليه وشروطه وخصائصه ومنهجه في الأبواب والكتب والأحاديث المكررة ومكانة الصحيح بين كتب الحديث، وكتب الحديث التي ألفت قبل البخاري، وغيرها من الأمور المهمة.

ثم تحدث عن أنواع كتب الحديث والتعريف بكل نوع منها، وعن رواة البخاري والأحاديث المنتقدة في البخاري والجواب عنها.

وأما **الفصل الثالث**: فجعله دراسة عن تراجم صحيح البخاري، فذكر خصائصها والكتب المؤلفة فيها وغيرها من الأمور التي تتعلق بهذه التراجم.

وفي **الفصل الرابع**: تحدث عن الكتب والشروح التي ألفت حول صحيح

---

(١) مقدمة لامع الدراري ص٥٩، وهنا ذكر الإمام بحثاً لطيفاً في مذاهب أئمة الحديث الفقهية.

(٢) مقدمة لامع الدراري ص٦٢.

البخاري والتي بلغت مئة وواحداً وثلاثين كتاباً حسب إحصائية الإمام[(١)].

من أجل هذا كله أصبحت هذه المقدمة موسوعة عن الإمام البخاري وكتابه «الصحيح» وتستحق أن تكون كتاباً مستقلّاً كما قال العلامة أبو الحسن الندوي: لقد أصبحت هذه المقدمة كتاباً مستقلّاً مفيداً يستحق أن ينشر بمفرده، فقد أصبحت مقدمة ضافية في علوم الحديث، ودائرة معارف فيما يتصل بالإمام البخاري وسيرته وأخباره، ودقائق حياته وجلائلها، ومنهجه في التأليف، وما التزمه من التزامات وشروط في وضع الكتاب، وبما تلقته هذه الأمة من اعتناء وقبول[(٢)].

وعندما توجه الإمام إلى شرح صحيح البخاري جعل إفادات الإمام الكنكوهي أصلاً ومتناً، ثم علق واستدرك عليها، ولم يتطرق الكنكوهي في إفاداته إلى الخلافات المذهبية والتعريف بالرواة وبيان غريب الحديث وغيرها، إنما تطرق إلى شرح الأبواب والأحاديث من حيث المراد والمفهوم، من ذلك قول البخاري: باب إدخال البعير في المسجد لعلة[(٣)]، قال الكنكوهي: يعني ذلك: إنهم ينهون عنه لما فيه من احتمال تلويث المسجد، فإذا احتيج إلى إدخال شيء من الدواب فيه أو حصل الأمن من بوله وروثه لكونه مدرباً فلا بأس[(٤)].

وعلق عليه الإمام الكاندهلوي بقوله: أشار الشيخ بذلك إلى أن لفظ العلة في الترجمة معناه الحاجة، قال الحافظ[(٥)]: قوله: للعلة؛ أي: الحاجة، وفهم بعضهم أن المراد بالعلة الضعف، وقال العيني[(٦)]: قوله: للعلة؛ أي: للحاجة وهي أعم من أن تكون للضعف وغيره.

(١) مقدمة لامع الدراري ص٥ و٤٧٠.
(٢) مقدمة لامع الدراري ص٢.
(٣) صحيح البخاري ١/ ١١٦.
(٤) لامع الدراري ١/ ٤٩.
(٥) فتح الباري ١/ ٥٥٨.
(٦) عمدة القاري ٢/ ٥٦٩.

ومن ذلك قوله في شرح ألفاظ الحديث: «فاطَّهروا» قال الكنكوهي: «والصيغة لما فيها من المبالغة لا تصدق إلا على الغُسل»[١].

وعلق عليه الإمام الكاندهلوي بقوله: قال العيني[٢]: فاطَّهروا؛ أي: اغسلوا أبدانكم على وجه المبالغة.

وقال الحافظ: قدم الآية التي في سورة المائدة على الآية التي في سورة النساء لدقيقة وهي أن لفظ الآية التي في المائدة «فاطهروا» في إجمال، ولفظ التي في النساء فيه تصريح بالاغتسال وبيان للتطهير المذكور، فدل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَاطَّهَّرُواْ﴾ هو فاغتسلوا.

أكثر ما اعتنى به الشيخ الكنكوهي في إفادته هو شرح تراجم البخاري وبيان المقصود منها، من ذلك قوله في «باب رفع اليدين في التكبيرة الأولى مع الافتتاح سواء»: لا يُقدم الرفع على التكبير ولا يؤخره عنه، ودلالة الرواية عليه لكون الرفع في الرواية قد وقع طرفاً للافتتاح أو جزءاً له، وأياً ما كان فالاتصال ثابت.

وأما الإمام الكاندهلوي[٣] فشرح هذه الترجمة بقوله: الأوجه عندي أن الإمام البخاري أشار بالترجمة إلى مسألتين خلافيتين شهيرتين، الأولى: رفع اليدين عند افتتاح الصلاة، أشار إليها بالجزء الأول، هذا الرفع فيه اختلاف معروف وإن كان مجمعاً عليه عند الجمهور حتى حُكي عليه الإجماع.

ثم شرح الكاندهلوي الجزء الثاني من الترجمة وهو «الافتتاح سواء» بقوله: قال الحافظ[٤]: يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وفي رواية شعيب الآتية بعد باب «يرفع يديه حين يكبّر» فهذا دليل المقارنة... إلخ.

نستنتج من هذا كله أن الإمام الكاندهلوي أكمل علوم العلامة الكنكوهي

---

(١) لامع الدراري ٢/ ٢٠٧.
(٢) عمدة القاري ٣/ ٣.
(٣) لامع الدراري ٢/ ٢٥٤.
(٤) فتح الباري ٢/ ٢١٨.

وفسرها واستدرك عليها، ولذلك أصبحت تعليقات الإمام الكاندهلوي خمسة أضعاف إفادات الكنكوهي، أودع فيها الفوائد الحديثية والفقهية والنكت اللطيفة.

قال العلامة محمد يوسف البنوري في تقديم «لامع الدراري»: «اللامع» مختص بحَلِّ مشكلات البخاري، وما يتعلق بأحاديثه في غير الخلافيات الفقهية، وجاء البحث عنها نادراً، نعم استدرك هذا صاحب التعليقات إكمالاً لفوائدها، وشفاء لغليل الوراد الذين اقتصرت أنظارهم على «اللامع»، فإذن «اللامع» بتعليقاته اللامعة، وأبحاثه الساطعة أصبح شرحاً وافياً بالمقصود من كل جهة في الباب[١].

٣ ـ كتاب «الأبواب والتراجم» للبخاري:

هذا الكتاب يحتوي على بحث واف لكل ما يتصل بالأبواب والتراجم للبخاري، كان المؤلف رَحِمَهُ الله ذكر في كتابه كل ما جاء من أصول الإمام المحدث ولي الله الدهلوي والقواعد الكلية للتطبيق بين الأبواب والتراجم، وأبواب لا ترجمة لها، وكذلك كل ما جاء في رسالة العلامة محمود حسن الديوبندي، وكل ما وجد من فوائد في دروس الإمام الرباني مولانا رشيد أحمد الكنكوهي، والمحدث الجليل أحمد السهارنفوري، وما وجد من أصول وقواعد في كلام شراح البخاري فاستوعبها وزاد عليها مما كان خاطره أبا عذرته، ولم يسبق إليه، حتى بلغ عدد هذه الأصول والقواعد الكلية سبعين أصلاً وقاعدة.

قال العلامة أبو الحسن الندوي: ذكر المؤلف سبعين أصلاً لفهم أسرار المؤلف وأغراضه في وضع هذه التراجم، والوصول إلى مراده وغايته والتطبيق بينهما، وقد استقصى هذه الأصول من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع قديماً

(١) مقدمة لامع الدراري ص: ط. **أقول**: وقد طبع الكتاب في ثلاثة مجلدات كبار من القطع الكبير طباعة حجرية بالهند، ثم أعيدت طباعته في باكستان في عشرة مجلدات من القطع المتوسط.
وقد قرر صاحب المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة طبع هذا الكتاب مع متن صحيح البخاري في أربعة وعشرين مجلداً باسم «الكنز المتواري».

وحديثاً ومن شروح البخاري، وضم إليها أصولاً جديدة ألهمه الله إياها بطول ممارسته لهذا الفن[1].

وقال العلامة المحدث البنوري: إن دَيْن شرح البخاري على رقاب الأمة كما قاله ابن خلدون، وادعى السخاوي قضاءه بتأليف «فتح الباري» قال الشيخ محمود حسن الديوبندي المعروف بشيخ الهند: إن دين شرح التراجم كان باقياً على رقاب الأمة لم يقضه أحد إلى اليوم، ولكن أقول الآن: إن هذه السعادة الأزلية كانت مقضية بأن يقوم الشيخ محمد زكريا ويقضي هذا الدين، قُضي بخدمته لشرح الأبواب والتراجم إن شاء الله[2].

وهذا الكتاب يشتمل على **مقدمة وأربع فوائد**، ذكر الإمام في **المقدمة** سبب اختيار الموضوع.

وبيّن في **الفائدة الأولى** مؤلفات العلماء في الأبواب والتراجم.

وفي **الفائدة الثانية** أصول التراجم[3] التي ذكرها شراح الحديث والعلماء في كتبهم بالإجمال.

وذكر في **الفائدة الثالثة** تفاصيل الأصول المذكورة في كلام علماء الحديث أو كان من تحقيقاته، وركز الكلام على الأصول التي ذكرها الإمام ولي الله الدهلوي والمحدث الكبير محمود حسن في كتابيهما، ثم ذكر كلام هذين الشيخين مسلسلاً مع فوائد جديدة، وزاد على كتابيهما من كلام علماء الحديث وما أفاده مشايخ الحديث في الهند عدة أصول، وبلغت هذه الأصول سبعين أصلاً، وأتى لكل أصل بأمثلة على إثباته وقال في الآخر: هذا آخر ما اكتفيت به من الأصول المفصلة رعاية لعدد السبعين المرعية في كثير من

---

(١) انظر: مقدمة لامع الدراري ص٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٤.

(٣) **التراجم**: ما ترجم به من الكتب والأبواب، جمع ترجمة، وسمي ما ذكر ترجمة لأنه مترجم عما بعده لأن ما يذكر في الباب مثلاً تنبئ عنه الترجمة وتبينه، انظر: الأبواب والتراجم ص١٣.

الأحاديث وإلا فدقائق استنباط البخاري كثيرة غير ما تقدم[١].

ومن ذلك قوله[٢]: الأول من الأصول: أنه يترجم بحديث مرفوع ليس على شرطه ويذكر في الباب حديثاً شاهداً له على شرطه، وهذا أصل مطرد كثير الوقوع في صحيحه، مثّل له الحافظ ابن حجر بعدة أبواب منها «باب الأمراء من قريش»[٣]، و«باب اثنان فما فوقهما جماعة»[٤].

أضاف الإمام الكاندهلوي على مثال الحافظ بقوله: قلت: ومن أمثلته أيضاً باب «سترة الإمام سترة لمن خلفه»[٥] حديث للأوسط: ضعيف ذكر له البخاري شاهداً.

ومن ذلك قوله: الثاني ـ أي: من الأصول ـ: أنه يترجم بمسألة استنبطها من الحديث بنحو من الاستنباط من نصه أو إشارته أو إيمائه، وأشار الحافظ ابن حجر في «الفتح» في آخر باب فضل صلاة الفجر في جماعة إلى هذا الأصل[٦].

ثم ذكر الإمام عدة أبواب تنطبق عليها هذه الأصول منها:

باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان... إلخ، أورد فيه الإمام البخاري أولاً أثر ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شَعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس... إلخ؟ ثم أخرج حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره.

---

(١) انظر: الأبواب والتراجم ١/ ١١٧ ـ ١٣٢، وقد ذكر المؤلف أصول التراجم في لامع الدراري ١/ ٣٠٣.

(٢) الأبواب والتراجم، للكاندهلوي ١/ ٣٢.

(٣) قال الحافظ: لما لم يكن شيئاً منها على شرط المصنف في الصحيح اقتصر على الترجمة وأورد الذي صح على شرطه مما يؤدي معناه في الجملة، فتح الباري ١٣/ ١١٤ وتبعه القسطلاني، انظر: إرشاد الساري ٢/ ٣٣٨.

(٤) قال الحافظ: هذه الترجمة لفظ حديث ورد من طرق ضعيفة، فتح الباري ٢/ ٢٤٢.

(٥) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه سويد بن عبد العزيز ضعيف. مجمع الزوائد ٢/ ٢٦٢.

(٦) الأبواب والتراجم ١/ ٣٣، وانظر: فتح الباري ٢/ ١٣٨.



قال الحافظ: أراد المصنف بإيراد هذا الأثر تقرير أن الشعر الذي حصل لأبي طلحة كان في الحديث الذي يليه بقي عند آل بيته إلى أن صار لمواليهم منه. ووجه الدلالة على الترجمة أن الشعر طاهر وإلا لما حفظوه ولا تمنى عبيدة أن يكون عنده شعرة واحدة منه، وإذا كان طاهراً فالماء الذي يغسل به طاهر(١)، وهنا ثبتت علاقة الباب بالحديث بالدلالة الالتزامية.

ومن ذلك قوله(٢): إن من دأبه المعروف أنه كثيراً ما يذكر الترجمة بخلاف لفظ الحديث، ويكون الغرض منه الإشارة إلى اختلاف ألفاظ الرواية الواردة في الباب، وهذا مطرد في كتابه، وأمثلته كثيرة في الصحيح، منها: أنه ترجم بباب من أدرك من الصلاة ركعة وأورد فيه حديث أبي هريرة بلفظ: «**من أدرك ركعة من الصلاة**».

قال الحافظ(٣): وأخرجه البيهقي(٤) وغيره بلفظ ترجمة الباب، وقد وضح لنا بالاستقراء أن جميع ما يقع في تراجم البخاري مما يترجم بلفظ الحديث، ولا يقع فيه شيء مغاير للفظ الحديث الذي يورده إلا وقد ورد من وجه آخر بذلك اللفظ المغاير، فللّه دره ما أكثر اطلاعه.

وذكر في **الفائدة الرابعة** الوجوه العامة الشائعة على ألسنة المشايخ المسطورة في الشروح من غلط النساخ أو الوهم من الإمام البخاري أو عدم تبييضه الكتاب، لكن المؤلف خالف هؤلاء العلماء في هذه الأقوال وقال: ما من ترجمة من التراجم في البخاري إلا هو داخل في أصل من الأصول السبعين المذكورة قبل ذلك(٥).

ثم ذكر جداول التراجم التي ليس لها حديث مسند وهي على أربعة أنواع:

(١) فتح الباري ١/ ٢٧٤.
(٢) الأبواب والتراجم ١/ ١١٧.
(٣) فتح الباري ٢/ ٥٨.
(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٠٢.
(٥) الأبواب والتراجم ١/ ١١٧.

الأول: التراجم التي ليس فيها حديث، ولا ذكر مع الترجمة شيئاً من الآيات والآثار وهي تسع تراجم.

الثاني: التراجم التي جعل فيها الآية ترجمة وهي أربع عشرة ترجمة.

الثالث: التراجم التي ليس فيها حديث مسند، لكن ذكر في الترجمة آية أو حديثاً أو أثراً وهي ثمان وستون ترجمة.

والرابع: أبواب بلا ترجمة، وهي تسع وخمسون ترجمة.

وحاول المؤلف أن يتكلم على كل ترجمة من التراجم التي بلغ عددها في صحيح البخاري نحو ثلاثة آلاف وثمانمئة وتسع وثمانين ترجمة، بل تزيد على ذلك في بعض النسخ(١).

ثم أخرج المؤلف من كل ترجمة معاني وآداباً لا يستطيع استنباطها إلا مهرة هذا الفن، أذكر من ذلك أمثلة ليكون القارئ على بصيرة منها:

أ ـ باب الأيمن فالأيمن في الشرب(٢): أورد فيه حديث أنس أن النبي ﷺ أتي بلبن قد شيب بماء، وعن يمينه أعرابي وعن شماله أبو بكر فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال: «**الأيمن فالأيمن**»، فالحديث مطابق للترجمة(٣).

قال الحافظ: وقوله في الترجمة: في الشرب، يعم الماء وغيره من المشروبات(٤).

وعلق عليه الإمام الكاندهلوي بقوله(٥): قال الباجي: قوله: الأيمن؛ يقتضي أن التيامن مشروع في مناولة الشراب والطعام وما جرى مجراهما.

---

(١) انظر: الإمام البخاري وصحيحه، للدكتور عبد الغني عبد الخالق ص١٨٥.
(٢) فتح الباري ١٠/٧٦، وعمدة القاري ٢١/ ١٩٥، وإرشاد الساري ٨/ ٣٣٠.
(٣) المتواري على تراجم أبواب البخاري ص٢١٨.
(٤) فتح الباري ١٠/٨٦.
(٥) الأبواب والتراجم ٦/ ٤٣.

ب ـ قوله: باب من صلى وقدامه تنور أو نار أو شيء مما يعد فأراد به الله تعالى[١]:

وقال الزهري: أخبرني أنس قال: قال النبي ﷺ: «**عُرضت عليّ النار وأنا أصلي**»، حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ قال: «**أُريتُ النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع**».

غرض البخاري بذلك الباب أن المصلي إذا لم يتوجه بصلاته إلا لله فإن صلاته جائزة، إلا أنه إذا كان فيه شبه بعبدة الأصنام، فإنها حينئذ لا تخلو عن كراهة، وإن سقطت عن ذمته.

وقال الحافظ[٢]: أشار به إلى ما ورد عن ابن سيرين أنه كره الصلاة إلى التنور.

وعلق عليه الكاندهلوي بقوله: إن استدلال البخاري بالرواية لا يخلو من لطافة ما، فإنه أظهر بذلك أن وجه الشبه إذا كان خفيّاً لا يدرك فإنه لا يكون مورثاً للكراهة، ووجهه ارتفاع سبب الكراهة، فإن الذي أمامه نار أو صورة أو قبر فسترها لم يبق بعد الستر شبه بعبدة الأصنام، فكذلك النار الغائبة عن الأعين كما أُرِيَها النبي ﷺ فإنها لم تصر سبباً للشبه لاستتارها، ومن هنا يعلم حال التنور الذي ذكره في الترجمة، وعلى هذا فلم تكن صلاته ﷺ مما نحن فيه؛ أي: من الصلوات المكروهة[٣].

جـ ـ باب الصلاة إلى الحربة، وباب الصلاة إلى العنزة[٤]:

لما كان النهي عن السجدة إلى ما يلزم التشبه بعبدة الأصنام فإنه يقتضي أن لا تجوز الصلاة إلى الحربة والعنزة وغيرهما من السلاح لتعظيم بعض

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٢٨، وعمدة القاري ٣/ ٤٩٨ وطبع هذا الكتاب، وإرشاد الساري ٢/ ١٠٢.

(٢) فتح الباري ٢/ ٩٣.

(٣) الأبواب والتراجم ٢/ ٢١٥.

(٤) صحيح البخاري ١/ ١٢٧.

الفرق إياها، هذا أقصى ما توجه به الترجمة بحيث يناسب شأنه، وإلا فالشراح قاطبة سكتوا عن بيان غرضه[١].

هذا هو منهج المؤلف في هذا الكتاب، ولا شك أنه لا يستطيع أن يأتي فيه من لباب النقول وصفوة الأقوال ومحصول العقول والألباب إلا من مارس هذه الصناعة واشتغل بتدريس الكتاب مدة طويلة، ولقي الجهد والعناء في غوامضه وفك مشكلاته، وقد قال القائل: «إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه»[٢].

٤ ـ الكوكب الدري على جامع الترمذي:

هذا الكتاب مجموع إفادات وأمالي المحدث الرباني رشيد أحمد الكنكوهي، وهو بالمذكرات أشبه منه بشرح ضافٍ وافٍ لجامع الترمذي، وعلى وجازته وقلة حجمه وعدم استيفائه شرح الكتاب من أوله إلى آخره، يشتمل على فوائد كثيرة لا يعرف قيمتها إلا من اشتغل بتدريس الجامع طويلاً، وعرف مواضع الدقة والغموض التي لا يرتاح فيها المدرس الحاذق، والطالب الذكي إلى ما جاء في عامة الشروح والتعليقات، ويتوق فيها ويتطلع إلى ما يحل العقدة، ويروي الغلة بكلام فصل لا فضول فيه ولا تقصير، هذا إضافة إلى فوائد في اللغة وغريب الحديث وعلم الرجال والأصول ومقاصد الشريعة، وفيه بعض النكت التي يعين عليها صفاء النفس وإشراق القلب والحب، والقول السديد في ترجيح بعض الوجوه على بعض، وتعيين معنى من المعاني بالذوق والممارسة، وجواب للإيراد على المذهب الحنفي.

وقد علق على هذا الكتاب الإمام المحدث محمد زكريا الكاندهلوي وأضاف إلى صلب الكتاب[٣] ما جاء من فوائد في شروح للكتب الأخرى

---

(١) لامع الدراري ٢/ ٤٩٨.
(٢) طبع هذا الكتاب في ستة أجزاء في الهند، وسيطبع إن شاء الله بتحقيقنا في خمسة مجلدات في بيروت.
(٣) مقدمة الكوكب الدري ١/ ٩.

كـ«بذل المجهود»، و«لامع الدراري» وغيرهما وسماه: «الكوكب الدري على جامع الترمذي»[١]، وقد جاءت تعليقات الكاندهلوي شاملة لعدة جوانب:

منها: شرح الألفاظ الغريبة الواردة في الحديث الشريف، والزيادة على شرح الإمام الكنكوهي، من ذلك لفظ: «غلول» قال الكنكوهي[٢]: الغلول خاص بما هو من مال الغنيمة والصدقة... إلخ، علق عليه الإمام الكاندهلوي بقوله: قال الملا علي القاري[٣]: بالضم على ما في النسخ الصحيحة، وأصل الغلول الخيانة في الغنيمة، ووهم ابن حجر؛ إذ ظن أن الرواية بفتح الغين فقال: كثير الغل.

ومنها: ذكر مذاهب العلماء في المسائل المختلفة بينما لم يتعرض الإمام الكنكوهي لبيان المذاهب إلا نادراً وقليلاً، من ذلك مسألة الطمأنينة في الصلاة، فلم يذكر الكنكوهي أقوال العلماء ومذاهبهم في هذه المسألة، أما الإمام الكاندهلوي فإنه أشار إلى اختلاف الفقهاء بقوله: والمسألة خلافية بين الأئمة، فقال الشافعي وأبو يوسف وأحمد: إنه فرض، وقال أبو حنيفة ومحمد: إنه واجب، واختلف أصحاب مالك، هل ظاهر مذهبه يقتضي أن يكون سُنَّة أو واجباً؛ إذ لم ينقل عنه نص في ذلك قاله ابن رشد[٤].

ومنها: الكلام على الأسانيد والرواة: تكلم الإمام الكاندهلوي على الأسانيد والرواة، فمن ذلك قوله في رواية حبيب بن أبي ثابت عن عروة: إن عروة عروتان، عروة المزني وعروة بن الزبير.

وعلق عليه الإمام الكاندهلوي بقوله: لم يصرح الترمذي أنه «أي: العروتين» أراد بذلك، وكلاهما محتمل؛ لأن أهل الحديث والرجال مختلفون في ذلك، قال ابن عبد البر في «الاستذكار»[٥]: هذا الحديث عندهم معلول

---

(١) مقدمة الكوكب الدري ص١٨.
(٢) الكوكب الدري ١/ ٢٨.
(٣) مشكاة المصابيح ١/ ٣٢١.
(٤) الكوكب الدري ١/ ٢٩٤.
(٥) الاستذكار ٣/ ٦٢.

فمنهم من قال: لم يسمع حبيب من عروة، ومنهم من قال: هو عروة المزني، وضعفوا هذا الحديث وصححه الكوفيون وأثبتوه لرواية الثقات من أئمة الحديث... إلخ[١].

كذلك قول الترمذي: أبو زيد رجل مجهول[٢]: إن أبا زيد مولى عمرو بن حريث، روى عنه راشد بن كيسان العبسي وأبو روق، وبهذا يخرج عن حد الجهالة ولا يعرف إلا بكنيته فيجوز أن يكون الترمذي أراد به أنه مجهول الاسم ولا يضر ذلك... إلخ[٣].

وهكذا نرى الإمام الكاندهلوي قد شرح كلام الكنكوهي من نواح شتى، واستدرك عليه، وقد بلغت هذه التعليقات مثل أصل الكتاب.

وهذا التعليق يكشف الغامض ويفصل المجمل ويوضح المبهم، وضمنه الإمام الكاندهلوي تحقيقات استخرجها من كتب أخرى، وعني بتنقيح الأقوال، وتحرير المذاهب، معتمداً في ذلك على ما توصل إليه من كتب المذاهب الأربعة التي لم يتفق نشرها في حياة الشارح، أو لم يتسنَّ له الاطلاع عليها فزاد قيمة الكتاب العلمية، وساعد على الانتفاع به، وأضاف إليه كذلك ما استفاده في درس والده العلامة محمد يحيى الكاندهلوي وقد تكون أموراً ذوقية أو علوماً وجدانية، هداه إليها ذوقه السليم ونظره العميق وطول اشتغاله بصناعة الحديث، وقد تكون أقرب إلى الصواب وأكثر كشفاً لمعاني الحديث من كثير مما تناقله الشراح[٤].

٥ ـ حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ:

هذا الكتاب موسوعة صغيرة فيما يتصل بحجة النبي ﷺ التي تسمى

(١) الكوكب الدري ١/١١٦.

(٢) جامع الترمذي ١/١٤٧.

(٣) الكوكب الدري ١/١٠، وانظر: عارضة الأحوذي ١/١٢٨.

(٤) انظر: ١/٢٨، ٣٨، ٤٥، ٥٣، ٨٤، ١٠٩، ١٢٣، ١٣٢ وقد طبع الكتاب في أربعة مجلدات في مطبعة ندوة العلماء عام (١٣٩٥هـ) بالهند، وأعيدت طباعته في باكستان أيضاً.

«حجة الوداع»، ويمتاز هذا الكتاب أولاً بالاستيعاب الشامل لكل ما يتصل بهذه الرحلة المباركة والركن العظيم من قريب أو بعيد، من بيان المناسك ونقل المذاهب، واختلاف الأئمة وآراء الشراح ومباحث المحدثين والفقهاء، وتحديد المنازل وتعيين أسمائها ومواضعها في ضوء العلم الحديث، والتغيرات التي طرأت عليها، واقتباس أحسن ما كتب في هذا الموضوع في القديم والحديث، واستعراض النقول المفيدة عن كتب المتقدمين حتى يحار القارئ ويملكه العجب من الاستقصاء.

منهجه في الكتاب:

الكتاب يقع في جزأين، تناول الإمام في الجزء الأول حجته ﷺ، والجزء الثاني جعله في عمراته ﷺ وعددها وتحديدها وتفاصيلها، وما اشتملت عليه من أحكام فقهية وبحوث تاريخية وفوائد علمية وتحقيقات حديثية.

وقد لخص الإمام في «كتاب حجة الوداع» رحلة حجه ﷺ بكل دقة، وجعلها متناً لهذا الكتاب، ثم شرح هذا المتن، فمن ذلك قوله في المتن: «ولبد رسول الله ﷺ رأسه»[(١)]، وقال الكاندهلوي في شرح هذه الجملة[(٢)]: كذا في «الهدي»[(٣)] و«مرآة الحرمين» وظاهر سياقهما أن التلبيد كان بعد الإحرام، وإليه يظهر ميل الحافظين ابن حجر والعيني[(٤)].

ثم ذكر الإمام تحت هذا المتن حكم التلبيد واختلاف العلماء في حكمه بالتفصيل، وحاول الجمع بين حديث التلبيد وحديث: «**الحاج الشعث التفل**»[(٥)]،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٧٤٨) من حديث ابن عمر، ورجاله ثقات.

(٢) ص٤١.

(٣) زاد المعاد ٢/١٤٨.

(٤) فتح الباري وعمدة القاري ٥/٩/١٥٩.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٩٩٨) في التفسير وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن يزيد المكي.
وقد تكلم بعض أهل العلم من قبل حفظه، وأخرجه ابن ماجه (٢٨٩٦) بهذا السند، فهو أيضاً ضعيف.

وقال: قال الشيخ السهارنفوري في «البذل»[١]: فإن قلت: في التلبيد بظاهره مخالفة لما روي عنه ﷺ: **«الحاج الشعث التفل»**، قلت: لا مخالفة أصلاً؛ لأن المراد من الشعث ترك الزينة والتلبيد ليس بزينة، بل هو دفع أذى انتشار الشعر، وهذا إذا قلنا: إن تلبيد رسول الله ﷺ كان بعد الإحرام، وإذا سلمنا أن التلبيد كان قبل الإحرام فلا إشكال فيه.

كذلك قوله في الشرح: «أذن لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر» قال الكاندهلوي: هاهنا أبحاث عديدة: الأول: في قوله: «ضعفة أهله» ذكر منهم سودة رضي الله عنها كما في الصحيحين[٢] وغيرهما، ومنهم أم سلمة رضي الله عنها[٣]، ومنهم أم حبيبة رضي الله عنها كما في رواية مسلم[٤]، ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما كما في رواية الشيخين وغيرهما[٥]، هكذا أشار الإمام إلى هذه الروايات بالإجمال مع إشارة إلى الكتب التي أخرجت هذه الروايات.

وفي المبحث الثاني: ذكر الإمام وقت الذهاب من مزدلفة إلى الرمي واختلاف العلماء في هذه المسألة، وفي المبحث الثالث: تحدث عن وقت رمي الجمرة مع بيان اختلاف الفقهاء والروايات الواردة فيه مع الكلام على بعضها ورفع الإشكال عن بعضها فقال: يشكل عليه حديث عبد الله بن زمعة الذي أخرجه أبو داود[٦]، عن أم سلمة قالت: كانت ليلتي التى يصير إلي فيها رسول الله ﷺ يوم النحر فصار إلي... إلخ، ويمكن الجمع بينهما أن يقال: إن ليالي أيام الحج تابعة للأيام السابقة كما هو معروف، والوارد في حديث عائشة أن يوم النحر كان لأم سلمة لا ليلته، ونصّ حديث عبد الله بن زمعة أن

---

(١) بذل المجهود ٨/٣٣٨.
(٢) أخرجه البخاري (١٦٨٠) في الحج، ومسلم ١٢٩٠/٢٩٣ ـ ٢٩٢ في الحج.
(٣) أخرجه أبو داود (١٩٤٢) في المناسك، والبيهقي ٥/١٣٣، وهو مضطرب سنداً ومتناً راجع: الجوهر النقي ٥/١٣٢.
(٤) أخرجه مسلم ١٢٩٢/١٢٩٨ في الحج.
(٥) أخرجه البخاري (١٦٧٨) في الحج، ومسلم ١٢٩٣/٣٠٠ ـ ٣٠٢ في الحج.
(٦) أخرجه أبو داود (١٩٩٩) في المناسك، باب الإفاضة في الحج.

ليلة الحادي عشر كانت لأم سلمة فلا منافاة[١].

كذلك قام الإمام الكاندهلوي بتعريف الأماكن التي نزل فيها رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله: «فلما كانوا بالروحاء» قال الإمام في الشرح: المنزل الثاني وهو على ليلتين من المدينة، وفي «صحيح مسلم»[٢]: ستة وثلاثون ميلاً، سميت بالروحاء؛ لأنها طيبة ذات راحة، وإنها سميت الآن بهذا الاسم لكنها ليست بمنزل في هذا الزمان، وهي على بعد أربعة وسبعين كيلو متراً من المدينة[٣].

كذلك بيّن الإمام طرق المدينة إلى مكة وفصل القول فيها فقال: لا يذهب عليك أن الطرق المعروفة من المدينة إلى مكة أربع كما بسطت في رسالتي «جزء طرق المدينة» أحدها: الطريق السلطاني، وهي طريق الشجرة، والثاني: الغائر، والثالث: الفرعي، والرابع: الشرقي، ثم أثبت أن النبي ﷺ كان خروجه من المدينة إلى مكة بطريق الشجرة[٤].

ثم إن المؤلف بدا له أن يكمل كتابه هذا ببحث في عمرات النبي ﷺ وعددها وتحديدها وتفاصيلها، وما اشتملت عليه من أحكام فقهية وبحوث تاريخية وفوائد علمية وتحقيقات حديثة، وكان نهجه في هذا البحث كنهجه في جزء «حجة الوداع» استيعاباً شاملاً، واستقصاءً كاملاً، وتحرياً للصواب، وأمانة في النقل، وقد أيّد هذا العمل المبارك ببعض المبشرات والرؤيا الصالحة والإشارات الغيبية ولا بأس أن أشير إلى بعض موضوعات في الكتاب في الهامش[٥] لو اطلع عليها الباحث لسر قلبه[٦].

---

(١) حجة الوداع ص١١٩.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٦.
(٣) حجة الوداع ص٥٠.
(٤) حجة الوداع ص٢٧.
(٥) انظر: ص٥٤ فأضلها غلامه، ص٦٦ موضع طهر عائشة ودفع استبعاد ابن حزم، ص١٠١ تحقيقه في مسألة: أن القصر بمنى وعرفة لأجل السفر، وص١٩٣ تلخيصه لحديث غدير خم، ص٢١٦ عمرة الحديبية، وغيرها من المباحث.
(٦) طبع هذا الكتاب في الهند، ثم طبع بتحقيقنا على نفقة وزارة الأوقات والشؤون الإسلامية بأبو ظبي.

٦ ـ تعليقات على كتاب «بذل المجهود في حَلِّ أبي داود»:

سبق أن ذكرت أن الشيخ شارك أستاذه خليل أحمد السهارنفوري في تأليف «بذل المجهود» لكنه أضاف بعد ذلك بعض التعليقات وهي مستفادة من الكتب التي لم تطبع في حياة شيخه أو لم يتسنَّ الوصول إليها.

فجاءت هذه الاستدراكات والتعليقات من نواح شتى، من أهمها:

أولاً: المباحث الفقهية التي فاتت المحدث السهارنفوري، ومن ذلك: قوله في مسألة الطهارة للصلاة: قلت: هناك بحث آخر ذكر في «عارضة الأحوذي»[(١)]، وهو أن الكافر إذا أسلم هل يجب عليه الغسل؟ قال أحمد ومالك: نعم لهذا الحديث[(٢)]، وقال الشافعي: يستحب، وقال أبو حنيفة: لا[(٣)].

ومن ذلك أيضاً: قوله في «باب تخليل اللحية»[(٤)]: قال في «عارضة الأحوذي»: للعلماء فيه أربعة أقوال: لا يستحب به قاله مالك، يستحب به قاله ابن حبيب، الثالث: إن كانت كثيفة لم يجب وإلا يجب إيصال الماء، الرابع: يغسل وجوباً ما قابل الذقن وما تحته استحباباً.

ثانياً: تناول الكاندهلوي في هذه التعليقات بعض المباحث الحديثية، ومن ذلك تعليقه على الراوي المجهول: اختلف في قبول روايته فقيل: يقبل مطلقاً، وقيل: لا مطلقاً، وقيل: فيه تفصيل وهو إن كان ممن لا يروي إلا عن عدل يقبل، وإلا فلا[(٥)].

ومن ذلك قوله في تعليقه على سند من طريق موسى بن إسماعيل نا حماد بن سلمة بن دينار، قال السيوطي[(٦)]: إن موسى إذا أطلق حماداً أراد به

---

(١) ١/ ٩.

(٢) ما رواه الترمذي (رقم ٥) من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول**».

(٣) بذل المجهود ١/ ١٥٠.

(٤) بذل المجهود ١/ ٣٥٥، عارضة الأحوذي ١/ ٤٩.

(٥) بذل المجهود ١/ ٧.

(٦) عون المعبود ١/ ٢٠.

ابن سلمة؛ لأنه قليل الحديث عن ابن زيد حتى قيل: إنه لم يرو عن حماد بن زيد إلا حديثاً واحداً فقط(١).

ثالثاً: أحياناً يشير إلى ضبط الأسماء والأنساب، فمن ذلك قوله: «التبوذكي»(٢) بفتح التاء نسب إليه؛ لأنه اشترى بتبوذك داراً فنسب إليه، وقال: إني مولى بني منقر إنما نزل داري قوم من تبوذك فسموني التبوذكي.

رابعاً: أحياناً يبين درجة الصحة والضعف(٣).

خامساً: اهتم بشرح الألفاظ الغريبة(٤).

سادساً: إنه قارن نسخ سنن أبي داود وبيّن الاختلاف فيها، وهي كثيرة(٥).

وهي تعليقات ذات قيمة علمية(٦).

٧ ـ الفيض السمائي على سنن النسائي:

هو مجموع إفادات أفادها الإمام الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وقد زاد عليها العلامة المحدث محمد زكريا، ولكنه ترك بياضاً في كثير من المواضع فأكملها الشيخ محمد عاقل وهو من أرشد تلاميذ الشيخ فجاء الكتاب في أحسن صورة من التحقيق والتعليق، وهذه إشارة إلى خصائصه:

١ ـ يذكر اختلاف نسخ الكتاب، وأحياناً يرجّح بعضها على بعض(٧).

٢ ـ اعتنى ببيان مطابقة الأحاديث لترجمة الباب(٨).

---

(١) بذل المجهود ١/٦.

(٢) انظر: المرجع السابق ١/١، ٦/٢٤٨.

(٣) انظر: المرجع السابق ١/١، ٢/٨، ٣/٦٩، ٢٨٣/٣٠٤.

(٤) المرجع السابق ٢/٢٦٠، ٢/٢، ٢٩٢/٣٨٨.

(٥) انظر: ص١/٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٣ وغيرها.

(٦) طبعت مع كتاب «بذل المجهود» في القاهرة ١٩٧٣م. ثم طبع كتاب «بذل المجهود» مع هذه الحواشي بتحقيق والدنا الجليل الدكتور تقي الدين الندوي في بيروت.

(٧) انظر: ص١١٦ و٢٠٣ و١٢٥ و١٠٤ وغيرها.

(٨) انظر: ص٩١ و٩٥ و١٣٤ و١٨٤ و٢١٠ و٢٢٤.

٣ ـ حقق بعض رجال الإسناد حيث كانت الحاجة ماسة إليه، لأجل اختلاف الروايات أو لأجل اختلاف الناسخين(١).

٤ ـ اعتنى بحل العبارات الغامضة والمشكلة في الكتاب، وكثير منها لم يتعرض لها السندي والسيوطي(٢).

٥ ـ أحياناً يذكر مذاهب الأئمة الأربعة مع بيان أدلتهم(٣).

٨ ـ تعليقات على شمائل الترمذي:

علَّق على هذا الكتاب تعليقات أنيقة ثم نقل الكتاب إلى اللغة الأردية وطبع باسم «خصائل نبوي» وعلى هوامشه هذه التعليقات(٤).

٩ ـ حواشي المسلسلات (العربية):

ألَّف الإمام الشاه ولي الله الدهلوي ثلاث رسائل في الأحاديث المسلسلة: الأول: الفضل المبين في المسلسلات من حديث النبي الأمين ﷺ، والثاني: الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين ﷺ، والثالث: النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر ﷺ.

وكان من عادة الشيخ وشيوخه أنهم يهتمون بقراءتها بعد ختم البخاري، فرأى الشيخ الإمام أن هناك بعض الأمور تحتاج إلى شرح وفهرس للأحاديث وللرجال وإضافة بعض الأحاديث المسلسلة التي لم تذكر في هذه الرسائل الثلاث، فقام بهذا العمل(٥).

---

(١) انظر: ص١٠١ و٧٦ و٩٩ و٦٨ و١١١ و١١٦ و١١٧ و٩٤ و٩٦ وغيرها.

(٢) انظر: ص٦٦ و٧٨ و١٠٥ و٩٦.

(٣) انظر: ص١٠١ و١٤٣ و١٤٤ و١٥٢ و١٥٤ و١٨٨ و١٩٨ وغيرها. **أقول**: وقد طبع بمكتبة الخليلية بسهارنفور بالهند.

(٤) طبع هذا الكتاب في الهند وباكستان مراراً.

(٥) وطبع الكتاب بمكتبة إشاعة العلوم بسهارنفور الهند.

ب ـ الكتب المخطوطة[١]:

١ـ أصول الحديث على مذهب الحنفية:

حاول الإمام فيه جمع القواعد الحديثية على مذهب الحنفية كما هو واضح من مسمى الكتاب، بدأ الإمام تأليفه في (٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣هـ) لكنه لم يكتمل.

٢ ـ أوليات القيامة:

حاول الإمام في هذه الرسالة جمع الأحاديث التي تتحدث عن أول أمر يسأل عنه العبد في يوم القيامة، من ذلك قوله ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، وأول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم**..» يبدو من مخطوط الكتاب أنه لم يكتمل.

٣ ـ تبويب تأويل مختلف الحديث:

رتب الإمام فيه الأحاديث الواردة في كتاب «مختلف الحديث» لابن قتيبة على الأبواب الفقهية، فجاء الكتاب في عشر صفحات من القطع المتوسط ولكنه لم يكتمل، ألفه في ليلة الجمعة بتاريخ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٢هـ)[٢].

٤ ـ تبويب مشكل الآثار (العربية):

رتب الإمام فيه موضوعات كتاب «مشكل الآثار» للطحاوي على الأبواب الفقهية، وقد جاء الكتاب في أربع وثلاثين صفحة بالقطع المتوسط، لكنه لم يكتمل ولم يهذب.

٥ ـ تخريج الجامع (العربية):

بدأ الإمام بتخريج أحاديث «جامع الأصول» للإمام ابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ) والتعليق عليه عند استفادته منه لكنه لم يكتمل.

---

(١) هذه الكتب المخطوطة موجودة في المكتبة الخاصة بالإمام الكاندهلوي في سهارنفور بالهند، والتي يشرف عليها ابنه الوحيد الشيخ محمد طلحة الكاندهلوي.
(٢) آب بيتي ٢/ ١٦٨.

٦ ـ تقارير كتب الحديث (الأردية):

حينما قرأ الإمام كتب الحديث على شيخه ووالده محمد يحيى الكاندهلوي كتب الإمام إفاداته وضبطها، كذلك إفادات الشيخ خليل أحمد السهارنفوري عند قراءته كتب الحديث عليه[١].

٧ ـ تقرير مشكاة (شرح مشكاة المصابيح) (العربية):

وهو شرح لـ «مشكاة المصابيح» جمع فيه أمالي شيوخه الذين قرأ عليهم الكتاب، ثم أضاف إليها تعليقاته حينما بدأ يدرس «المشكاة» حتى بلغ أكثر من ألف صفحة بالقطع المتوسط، وقد استفاد من هذه المذكرة العلمية كثير من الطلبة والأساتذة[٢].

٨ ـ تلخيص «البذل» (العربية):

سبق أن ذكرت أن الإمام كان خير معين لشيخه في تأليف كتاب «بذل المجهود في حَلِّ أبي داود» فكلما كتب الشيخ خليل أحمد السهارنفوري في هذا الكتاب كان الإمام يقوم بتلخيصه في ألفاظه وأسلوبه، حتى جاء تلخيصه في أربعة مجلدات ضخام»، فرغ من تلخيصه في (٢٥ ربيع الأول ١٣٤٣هـ)[٣].

٩ ـ جامع الروايات والأجزاء (العربية):

حاول المؤلف في جمع أطراف الحديث من كتب السُّنَّة وموطأ الإمام مالك والموطأ برواية الإمام محمد، ومستدرك الحاكم والسنن الكبرى للبيهقي وغيرها من الكتب، لكنه لم يكتمل.

١٠ ـ جزء إنما الأعمال بالنيات (العربية):

تناول الإمام فيه بالشرح حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**» فذكر طرقه وأهميته وما يستفاد منه من الأحكام، يبدو من المخطوط أن الإمام لم يهذبه ولم يكمله[٤].

---

(١) تأليفات ١/ ٢٢٠.
(٢) تأليفات ١/ ١٩٧.
(٣) آب بيتي ٢/ ٢٤١.
(٤) تأليفات ١/ ٢٦٧.

١١ ـ جزء أنكحته ﷺ (العربية):

جمع فيه الإمام الروايات التي وردت في زواجه ﷺ، وكذلك خطبته ﷺ بعض النساء وإن لم يتم الزواج، بدأ الإمام تأليفه في (٢٣ ذي الحجة ١٣٤٥هـ)، ولكنه لم يهذب ولم يكتمل[١].

١٢ ـ جزء أفضل الأعمال (العربية):

جمع فيه الإمام الروايات والأحاديث التي وردت في بيان «أفضل الأعمال»؛ كقوله ﷺ: «**أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله**»، وقد بلغت هذه الروايات ثلاثين رواية[٢].

١٣ ـ جزء تخريج حديث عائشة ﵂ (العربية):

جمع الإمام فيه الروايات التي تتعلق بالصحابية بريرة ﵂ وخاصة رواية عائشة ﵂، وحاول الجمع بين الأحاديث المختلفة[٣].

١٤ ـ جزء الجهاد (العربية):

جمع فيه المؤلف الروايات التي تتعلق بالجهاد، ثم بيّن شرطه وجوازه، وحكم مشاركة النساء في الجهاد، وآداب الجهاد وغيرها من المباحث، يبدو من مخطوط الكتاب أنه لم يكتمل[٤].

١٥ ـ جزء رفع اليدين (العربية):

تناول فيه المؤلف مسألة رفع اليدين في الصلاة، فجمع الروايات الواردة فيه من كتب الصحاح والسنن والمسانيد مع دراسة أسانيد تلك الروايات، ورجح فيه ما ذهب إليه الحنفية[٥].

---

(١) آب بيتي ٢/ ١٦٥.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٥٦.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٥٧.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٦٥.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٥٧.

١٦ ـ جزء صلاة الاستسقاء (العربية):

ذكر فيه الروايات الواردة في صلاة الاستسقاء مع دراسة هذه الروايات، وكذلك تعرض لبيان المذاهب الفقهية في هذه المسألة.

جاء هذا الكتاب في ست عشرة صفحة بالقطع المتوسط[١].

١٧ ـ جزء صلاة الخوف (العربية):

أورد فيه الروايات التي وردت في مشروعية صلاة الخوف، وتعرض لبيان المواضع والغزوات التي أقيمت فيها صلاة الخوف، يشتمل هذا الكتاب على ست عشرة صفحة، بالقطع المتوسط[٢].

١٨ ـ جزء صلاة الكسوف (العربية):

ذكر فيه الأحاديث التي تدل على مشروعية صلاة الكسوف مع بيان اختلاف الروايات ومذاهب العلماء فيها[٣].

١٩ ـ جزء ما جاء في شرح ألفاظ الاستعاذة (العربية):

جمع فيه أحاديث الاستعاذة، مع دراسة هذه الأحاديث من حيث القبول والرد، وشرح ألفاظ الحديث.

٢٠ ـ جزء ما يشكل على الجارحين (العربية):

جمع فيه التعارض الذي وقع في كلام بعض أئمة الجرح والتعديل في شأن بعض الرواة وحاول إزالته، من ذلك قول الذهبي في «ميزان الاعتدال» في ترجمة الحسن بن عمارة: قد بلغه أن الأعمش يقع فيه فبعث إليه بكسوة، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش[٤].

---

(١) آب بيتي ٢/ ١٥٦، تأليفات ١/ ٢٧٣.
(٢) تأليفات ١/ ٢٧٣.
(٣) آب بيتي ٢/ ١٥٦.
(٤) ميزان الاعتدال، للذهبي ١/ ٥١٤.

٢١ ـ جزء ما قال المحدثون في الإمام الأعظم (العربية):

جعل المؤلف هذه الرسالة في جزأين:

الجزء الأول: تناول فيه ما قاله المحدثون من جرح وتعديل في شأن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه مع دراسة لهذه الأقوال والآراء.

الجزء الثاني: جعله فيما قاله المؤرخون في شأن الإمام أبي حنيفة.

أكمل المؤلف هذه الرسالة في أربعين صفحة بالقطع المتوسط.

٢٢ ـ جزء المبهمات في الأسانيد والروايات (العربية):

بيّن فيه الإمام الأسماء المبهمة التي وقعت في كثير من الأحاديث والآثار في السند أو في المتن، بدأ تأليفه في شوال عام (١٣٤١هـ)، يحتوي هذا الكتاب على سبعين صفحة بالقطع المتوسط.

٢٣ ـ جزء المعراج (العربية):

جمع فيه المصنف الروايات والآثار التي وردت في ذكر الإسراء والمعراج مع دراسة المتون والأسانيد، بدأ تأليفه في ربيع الآخر سنة (١٣٤٤هـ)، ولكنه لم يكمل ولم يهذب.

٢٤ ـ حواشي وذيل التهذيب (العربية):

أراد الإمام أن يكتب ذيلاً لتهذيب التهذيب لكنه لم يتمكن، إنما علق على بعض المواضع منه، وقد استفاد من هذه التعليقات الوجيزة الشيخ محمد أيوب المظاهري في كتابه «تصويب التقليب الواقع في تهذيب التهذيب»[١].

٢٥ ـ ذيل التيسير (العربية):

ألف الإمام ابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ) كتابه المشهور «جامع الأصول» ثم لخصه الإمام ابن الديبع الشيباني (ت٩٤٤هـ) وسمّاه «تيسير الوصول إلى جامع الأصول»[٢]، وقد استفاد الشيخ الإمام من كتاب «تيسير

---

(١) آب بيتي ٢/١٥٣.

(٢) الرسالة المستطرفة، للكتاني ص١٤٢.

الوصول» عند تأليف «بذل المجهود»، وأراد أن يعمل ذيلاً على كتاب التيسير، واستدراكاً عليه، لكنه لم يتمكن من ذلك، فعلق على مواضع متفرقة من الكتاب.

٢٦ ـ شذرات أسماء الرجال (العربية):

مثلما اختلف المحدثون في ثبوت السماع لبعض الرواة عن بعض كذلك اختلفوا في بيان الأنساب لبعض الرواة، فألف الإمام هذا الكتاب لدراسة مثل هذه المواضيع ودفع التعارض بين الأقوال المختلفة.

يشتمل هذا الكتاب على مئة صفحة من القطع المتوسط، لكن الشيخ ترك بياضاً في بعض الصفحات، وكأنه لم يستطع أن يكمل بعض الموضوعات.

٢٧ ـ شذرات الحديث (العربية):

حينما بدأ الإمام مساعدة شيخه في تأليف «بذل المجهود» خصص كراسة لكل من البخاري ومسلم وأبي داود، والترمذي، ومستدرك الحاكم، وابن ماجه، والموطأ برواية محمد، والموطأ برواية يحيى المصمودي، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وسنن النسائي، ورَمز لكل منهم فالبخاري رمز له (شيخ)، والمراد به شذرات البخاري، ومسلم رمز له (شم)، والمراد به شذرات مسلم وهكذا عمل في غيرهما من الكتب، وكان الغرض من ذلك تخريج الأحاديث والآثار وشرحها وتعريف الرجال والأماكن وغيرها، وكان الإمام يسجل هذه الأمور في هذه الكراسة فجاءت كراسة شذرات البخاري في عدة أجزاء والتي ضمت إلى «لامع الدراري» و«الأبواب والتراجم» وكراسة غيره من الكتب جاءت مختصرة مفيدة، وكراسة شذرات الترمذي وصلت إلى اثني عشر جزءاً.

٢٨ ـ مختصات المشكاة (الأردية والعربية):

درّس الإمام «مشكاة المصابيح» مدة طويلة، فقد كان في أثناء تحضيره لدرس «المشكاة» يستفيد من كتب شروح الحديث، وقد أشار الإمام فيه إلى الموضوعات التي كانت تهمه مع ذكر المصادر والمراجع، وتناول هذه الموضوعات أحياناً بالأردية وأحياناً كثيرة بالعربية.

٢٩ ـ معجم رجال «تذكرة الحفاظ» للذهبي (العربية):

عمل الإمام فهرساً للرواة الذين ترجم لهم الإمام في «تذكرة الحفاظ» ورتبهم على حروف الهجاء[١].

٣٠ ـ معجم الصحابة الذين أخرج عنهم أبو داود الطيالسي في مسنده (العربية):

هذا الكتاب فهرس لأسماء الصحابة الذين أخرج عنهم أبو داود الطيالسي في كتابه «المسند» فرغ الإمام من ترتيبه وتصحيحه في الثامن من ذي القعدة سنة (١٣٣٩هـ).

٣١ ـ معجم المسند للإمام أحمد (العربية):

عمل الإمام فهرساً لأحاديث المسند لكل صحابي أخرج حديثه مع ذكر الصفحة والجزء[٢].

٣٢ ـ مقدمات كتب الحديث (العربية):

كتب الإمام مقدمات عديدة على كتب شروح الحديث وكتب السُّنَّة بعضها مخطوطة وبعضها مطبوعة، تناول فيها الإمام تعريف الكتاب وأهميته وخصائصه والتعريف بمؤلفه وغير ذلك من الأمور المهمة، من ذلك مقدمة علم الحديث التي طبعت مع «أوجز المسالك»، ومقدمة البخاري التي طبعت مع «مقدمة لامع الدراري»، وكذلك مقدمة «بذل المجهود» التي طبعت مع «بذل المجهود»[٣]، وأما مقدماته التي لم تطبع فمقدمته على الترمذي وشمائله، ومقدمته على النسائي، ومقدمته على الطحاوي.

٣٣ ـ ملتقط الرواة عن المرقاة (العربية):

عمل فيه المؤلف فهرس الرواة الذين ترجم لهم أو عرفهم العلامة نور الدين ملا علي القاري (ت١٠١٤هـ) في كتابه «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة

---

(١) آب بيتي ٢/ ١٦٨.

(٢) تأليفات ٣/ ٣٦٠، آب بيتي ٢/ ١٦٣.

(٣) وذلك بالمكتبة الخليلية بسهارنفور، الهند.

المصابيح» مع ذكر الصفحة والجزء ووقع هذا الكتاب في عشرين صفحة بالقطع المتوسط.

٣٤ ـ ملتقط المرقاة (العربية):

لخص فيه الإمام بعض الموضوعات من كتاب «مرقاة المفاتيح» تلخيصاً مختصراً.

هذا ما تيسر لي من الكلام على حياة شيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي وآثاره في علم الحديث، ولعلّه يكون مقدمة لدراسة أشمل وأعمق، ومن الله التوفيق.



فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة